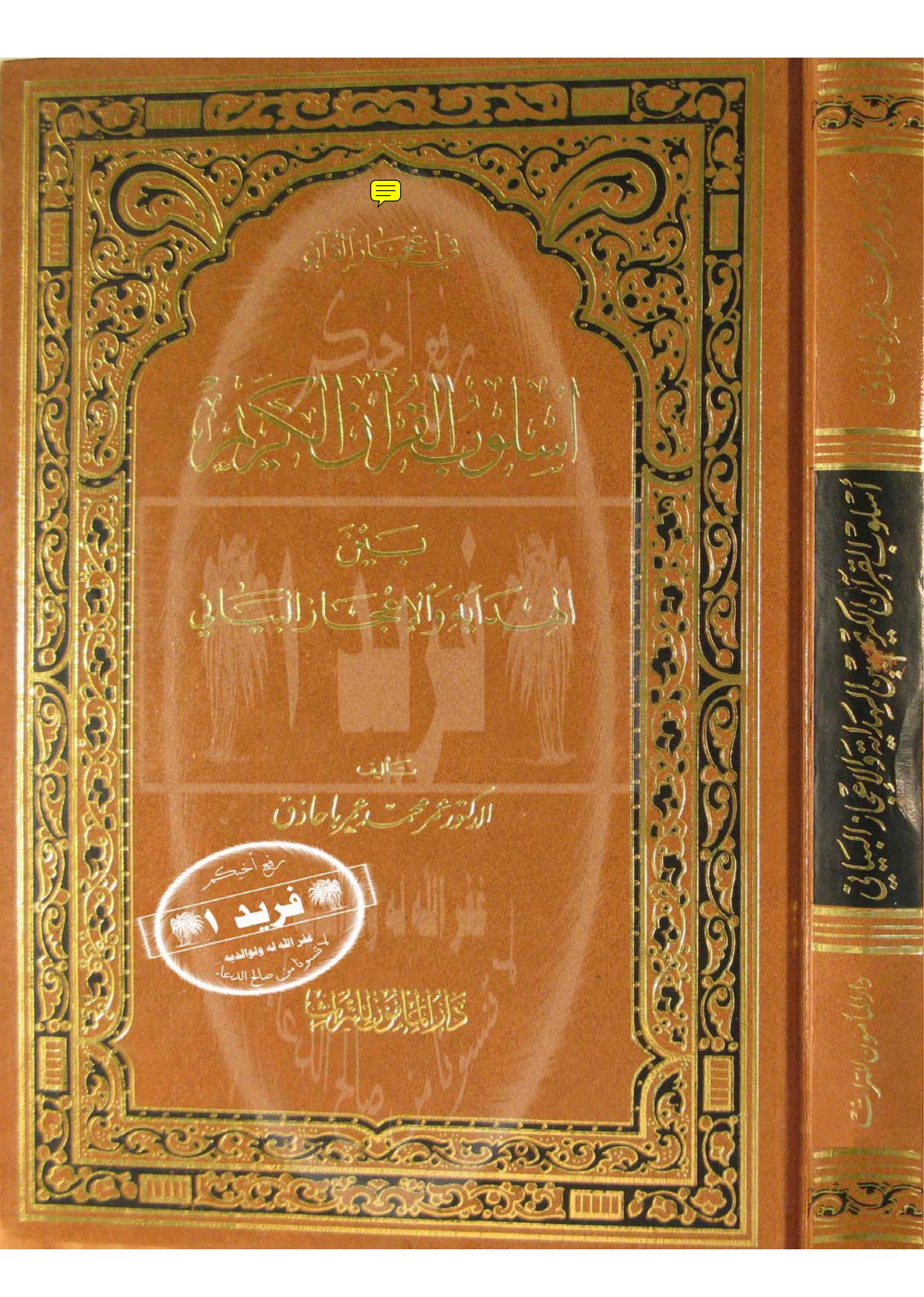

في إعجاز القرآن
أسلوب القرآن الكريم
بين
الهداية والإعجاز البياني
تأليف
الدكتور عمر محمد عمر باحاذق
رفع أخيكم
فريد ١
غفر الله له ولوالديه
لا تنسونا من صالح الدعاء
دار المأمون للتراث



أسلوب القرآن الكريم

بين

الهداية والإعجاز البياني

بسم الله الرحمن الرحيم

في إعجاز القرآن

أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني

تأليف

الدكتور عمر محمد عمر باحاذق





دمشق - ص.ب ٤٩٧١ - بيروت - ص.ب ١١٣/٦٤٣٢

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

الإهداء

إلى مقام والدنا العزيز خادم الحرمين الشريفين
الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود
رائد العلم وأهله حفظه الله وأيده بنصره آمين



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . . .

أما بعد :

فها هي ذي أطروحتي بعنوان : « **أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني** » .

المتقدم بها ، بعون الله وقوته ، للحصول على درجة الدكتوراه من شعبة « الأدب والنقد » بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وفي الواقع إن كانت البحوث القرآنية قد تعددت جوانبها ، فإننا كل يوم في مزيد ومزيد من تلك الدراسات التي تكشف لنا الحين بعد الحين سرّاً من أسرار هذا الكتاب العظيم ، وتعرب لنا عن قوّة بيانه وروعة إعجازه وسموّ معانيه ، ولاشك في أن الأسلوب القرآني قد شدّ كثيراً من الباحثين حتى كرّسوا جهدهم في الغوص على معانيه ، والوصول إلى ماحوله من حكم وعبر ، حتى زخَرت المكتبات بطرائفَ عدّة حول هذا الأسلوب الذي لايسامى ، وهذا البيان الساحر الذي لايجارى ولا يبارى ، وكان أن تعددت الدراسات حول هذا الأسلوب المعجز وتنوعت مظاهرها ، ولا غرو فلقد استحوذت هذه القضيّة على قدر كبير من اهتمام العلماء ، وكانت محل عنايتهم منذ الصدر الأول للإسلام ، وكان الدافع القوي وراء مابذلوه من جهود مباركة يرمون من ورائها إلى تحقيق هدف ديني أصيل جدير بأن يبذل في سبيل تحقيقه

كل جهد ، ذلك أن التسليم بأن القرآن معجز يؤدي إلى التسليم بأنه من عند الله تعالى ، وهذا بدوره يؤدي إلى التسليم بأن كل ماتضمّنه حقّ خالص لاسبيل للباطل إليه ، وأنه الصراط المستقيم ، وحبل الله المتين وأن العصمة في الاستمساك به .

وقد بارك الله جهودهم ، وأجرى الحقّ على ألسنتهم . وعندما حقّقوا هدفهم النبيل هذا ، اكتشفوا أنهم قد حققوا بجانبه هدفاً آخر إذ أضافوا إلى الثقافة العربية علماً كامل البنيان قوي الدعائم ، وهو علم « البلاغة » ؟

بل أضافوا علوماً متكاملة تقوم أساساً على دراسة هذا القرآن العظيم وأخذت اسم علوم القرآن . . .

إذ من الثابت أن تدوين البلاغة العربية وتطوّرها واكتمالها إنما تمَّ في كنف دراسة الإعجاز القرآني ، ومحاولة الكشف عن خصائصه البيانيّة التي بوأته هذه القمة المعجزة .

وإذا كان هناك الكثيرون ممن وقفوا حياتهم على دراسة هذه البلاغة المعجزة في كتاب الله قديماً وحديثاً ، فقد كان من الذين بحثوا في هذا المضمار قديماً الإمام ابن قيم الجوزية ، رحمه الله ، في كتابه : (الفوائد المشوق في علوم القرآن وعلم البيان) والإمام بدر الدين الزركشي في كتابه : (البرهان في علوم القرآن) ، والإمام الجلال السيوطي في كتابه : (الاتقان في علوم القرآن) ، وغيرهم .

ومن المحدَثين ممّن طرق هذا الباب : الشيخ محمد متولّي الشعراوي في كتابه : (معجزة القرآن) ، والشيخ محمد أبو زهرة في كتابه : (المعجزة الكبرى في القرآن) ، والشيخ محمد الصادق عرجون في كتابه : (القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين) .

إلى غير ذلك من مؤلفات وبحوث حول جوانب الإعجاز في كتاب الله . . .

وفي الواقع أن كلّ باحث من هؤلاء الباحثين كان له دوره في إجلاء معالم هذا المبحث ، وبيان مدى الروعة الكامنة في تضاعيف هذا

الكتاب العظيم .

بيد أن ما شدّ انتباهي وجعلني أكرس جهدي لإعداد هذا السفر هي ظاهرة الإعجاز بالهداية ، إلى جانب الظاهرة الجليّة في إعجاز البيان والتي لربما لم تكن محط أنظار كثير ممن تعرّضوا للبحث في هذا الجانب . من هنا فقد كان جهدي منصباً على هذا الجانب ، لكي أثبت أن أروع مظاهر الإعجاز القرآني عامل الهداية المرتبطة بالأسلوب البياني ، فهما لبّ إعجاز القرآن .

إن القرآن العظيم كان مدداً رائقاً لكلّ باحث ومنقّب ، وذخيرة لاتنفذ لكل من ينشد العون والمثاليّة المطلقة ، فمن معينه يرتوون ومن أفكاره يقتبسون ، ومن هداه يسترشدون ، ومن سحر بيانه وروعة أسلوبه يتأثرون .

هذا وقد حاولت في بحثي أن أسير على المنهج التالي :

تقسيم الرسالة إلى أربعة أبواب ، ويندرج تحت كل باب فصول حسب طبيعة كل باب ، وهي على النحو التالي :

الباب الأول : (الآراء حول قضية الإعجاز في القرآن الكريم) .

الفصل الأول : الأقدمون وقضية الإعجاز .

الفصل الثاني : إعجاز القرآن في آراء المحدثين .

الفصل الثالث : من دراسات المحدثين حول الإعجاز في القرآن .

الباب الثاني : (المنهج القرآني في الهداية والتوجيه) .

الفصل الأول : عنصر الزمان في توجيهات القرآن .

الفصل الثاني : عنصر المكان في الهداية والتوجيه .

الفصل الثالث : الهداية القرآنية بين أسلوبي الترغيب والترهيب .

الفصل الرابع : الجانب الأخلاقي في أسلوب القرآن الكريم .

الباب الثالث : (الإعجاز البياني في أسلوب القرآن الكريم) .

الفصل الأول : أسلوب الجدل والحوار .

الفصل الثاني : القسم في أسلوب القرآن .

الفصل الثالث : الأمثال في الأسلوب القرآني .

الفصل الرابع : أسلوب القصة في القرآن .
الفصل الخامس : الصور البيانية في أسلوب القرآن الكريم التشبيه ـ الاستعارة ـ الكناية .
الباب الرابع : (الأسلوب القرآني بين حقائق الإعجاز وشُبَه المبطلين) .
الفصل الأول : شبهات حول أسلوب التكرار في القرآن الكريم .
الفصل الثاني : حول أسلوب القصة في القرآن الكريم .
الفصل الثالث : أباطيل القائلين بالإعجاز بالصرفة في أسلوب القرآن والرد عليهم .
الفصل الرابع : أباطيل القائلين بإمكانية المعارضة في أسلوب القرآن الكريم مع الرد عليهم ، والمستشرقون والقرآن ، مع الرد عليهم في افتراءاتهم .

ومع جهدي المتواصل الذي قد أعانني الله عليه والحمد لله ، ومحاولتي تتبع مواطن الإعجاز في ثنايا هذا الكتاب العزيز ، إلا أنني لا أنكر ما قدمه لي بعض من سبقوني في الحديث عن جانب الإعجاز في القرآن من أمثال الشهيد سيد قطب في كتابه القيم : « تفسير الظلال » ، والشيخ الصادق عرجون في كتابه : « القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين» ، فلقد فتحوا لي الطريق، ومهدوا لي السبيل ، ويسروا لي بعض الوعر من الطريق حتى أضفت إلى أفكارهم طرائف عديدة . . .

وأحياناً كنت أناقش رأي من سبقني في نقاش جدّي بناء ، كما حصل في نقاشي مع الدكتور محمد أحمد خلف الله حول التكرار في القصة القرآنية ، حيث يرى بأن قصة موسى في سورة طه ليست هي في سورة النمل ، وقصة موسى في سورة طه قصة مستقلة ، وقصته في سورة النمل قصة مستقلة ، ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك أخرى ، وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه .

وقد أثبتت بأن القصة واحدة ، وأنه لااختلاف في القصّ ،

ولاتباين في الألفاظ التي تؤدي إلى تضارب المعاني ، إذ أنه مع هذا الاختلاف اللفظي الذي قد يحدث أحياناً من خلال القصص المكررة ، إلا أن ماتهدف إليه العبارة ، وماتشير إليه متفق تماماً وليس فيه شيء من التعارض الذي يجعل سياق القصة غير متناسق مع القصص التي تحكى في سور أخرى . . .

وما من قضية أثارها غيري من الباحثين ولهاصلة بالإعجاز القرآني إلا حاولت ما استطعت أن أناقشها مبدياً ما أراه من وجهة نظري ، وإن كان ذلك على حساب مخالفة رأي الآخرين . . .

وبعد ، فإني لايسعني إلا أن أتقدّم بالشكر لكل من أسهموا في عوني لإتمام هذا البحث ، وأخص بالشكر الدكتور صلاح الدين محمد عبد التواب الذي لم يضنّ علي في أي توجيه أو استفسار .

كما أن هذا جهد المقلّ وعمل متواضع ، أسأل الله عز وجل أن يجعله فاتحة خير ، وانطلاقة نحو العلم النافع والخير العميم ، وأن يجعلني دائماً ممن يتبصرون القرآن ويقفون على شيء من إعجازه . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل . . .

عمر محمّد عمر باحاذق

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(الشورى : ٥٢ ، ٥٣) .

تمهيد

إن حديثي عن أسلوب القرآن الكريم سيكون منصباً على إعجاز الهداية والإعجاز البياني ، ومن ثم يلوح لي أن أوضح هذين الجانبين الهامين لينجلي بهما الموضوع الذي يتحدث عنه هذا السفر . . .

فإذا تعقّبنا هذا المعنى في القرآن والسنة ، وكتب اللغة وكتب التراث ، وجدناه يعطينا كثيراً من الملامح التي تفيدنا فيما أردناه من موضوع الهداية والإعجاز البياني في أسلوب القرآن العظيم .

فالقرآن الكريم تحدث عن مادة الهداية في آيات متعددة .

ففي سورة الفتح قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ (سورة الفتح : ٢٨) .

أي : أن الله جلّ وعلا هو الذي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة الشاملة الكاملة والدين الحقّ المستقيم دين الإسلام .

وفي سورة الجنّ ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴾ (سورة الجن : ١٣) .

أي : لمّا سمعنا القرآن العظيم آمنّا به وبمن أنزله ، وصدّقنا محمداً ﷺ في رسالته ، فهم يشكرون الله أنْ مَنّ عليهم بنعمة الإيمان والاهتداء .

وفي سورة البقرة : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (سورة البقرة : ٢) .

أي : هاد للمتقين الذين يتقّون سخَط الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ويدفعون عذابه بطاعته .

وفي سورة الفاتحة : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ (سورة الفاتحة : ٦) .

أي : نطلب الهدى منه تعالى .

وفي سورة الحج : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (سورة الحج : ٢٤) .

أي : أرشدوا إلى الكلام الطيب والقول النافع ، إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب .

﴿ وهُدُوا إلى صراطِ الحميدِ ﴾ : أي : إلى صراط الله ، وهي الجنة دار المتقين .

وفي سورة الشورى : ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة الشورى : ٥٢) .

أي : ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً وضياء نهدي به عبادنا المتقين ، وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيِّمٍ مستقيم هو الإسلام .

ومن أمثلة ورود هذه الكلمة في السنّة :

قوله ﷺ : « الهدي الصالح والسمت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة »[1] .

والهدي : السيرة والهيئة والطريق .

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه : « إن أحسن الهدي هديُ محمد ﷺ » .

أي : أحسن الطريق ، والهداية : الطريقة .

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لعلي : « قل : اللهم اهدني وسدّدني ، واذكر بالهدي هدايتَك الطريق ، وبالسداد تَسْديدك السهم »[2] .

والمعنى : إذا سألت الله فأخطر بقلبك هداية الطريق ، وسل الله الاستقامة فيه .

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر / للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري المشهور بابن الأثير - الجزء الخامس / تحقيق محمود محمد الطناحي (٢٥٣) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار رقم (٧٨) : وأبو داود خاتم ٤ وأحمد في مسنده ١/٨٨ ، ١٣٨ ، ١٥٤ .

وفي الحديث : « واهدوا هدي عمار »[1] .
أي : سيروا بسيرته ، وتهيؤوا بهيئته .
يقال : هدى هَدْي فلان : إذا سار بسيرته .
ومن ورود هذه الكلمة في كتب المعاجم ماذكره ابن منظور في اللسان[2] .
يقال : هديت له الطريق على معنى بيّنت له الطريق .
وعليه قوله سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد : ١٠) .
هديته الطريق : بمعنى عرفته .
وهدى : بمعنى بيّن .
وقال الأعشى ، وذكر عشاه وأن عصاه تهديه :
إذا كانَ هادِي الفَتى في البلا   دِ صَدْرَ القناةِ أطاعَ الأميرا[3]
وقد يكون إنما سمّى العصا هادياً لأنه يمسكها فهي تهديه ، وقد يكون من الهداية لأنها تدله على الطريق .
وكذلك الدليل يسمى هادياً لأنه يتقدم القوم ويتبعونه .
قال طرفة بن العبد البكري :
للفتى عقلٌ يعيشُ به   حيثُ تهدي ساقَه قَدَمُه
وهكذا من خلال تتبعنا لمعنى الهداية في الكتاب والسنة وكتب اللغة نجد أن معناها يدور حول « الطريقة ، والسيرة ، والدلالة ، والبيان » .
والقرآن العظيم كذلك ما هو إلا دليل إلى الطريق القويم ، وبيان ورشاد للأخذ بالسيرة الحسنة والهيئة الصالحة والسلوك السليم وهذه هي هداية القرآن .
فإذا ماأردنا أن نعرف ورود هذه الكلمة عند العلماء وما يحمله معناها عندهم من تعبير :

(١) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٣٩٩ .
(٢) لسان العرب لابن منظور الإفريقي ج ٢٠/ مادة (هدى).
(٣) ديوان الأعشى ص ٩٥ .

نجد الإمام الباقلاني يقول[1] : « إن الله تعالى بعث النبي ﷺ وجعل معجزته الكبرى القرآن ، ليقع به الاهتداء ، ولايكون كذلك إلا وهو حجّة ، ولا تكون حجّة إن لم تكن معجزة .

قال تعالى : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (سورة إبراهيم : ١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (سورة التوبة : ٦) .

فلولا أن سماعه حجة عليه ماكانت إجارته حتى يسمع كلام الله ، ولايكون حجّة إلا وهو معجزة » .

وفي عصرنا الحاضر نجد الشيخ محمداً الصادق عرجون يعقد بحثاً مستقلاً في الهداية ، ويرى أنها مناط إعجاز القرآن .

يقول : « وهناك مرتبة من مراتب التحدّي وهداية الإعجاز جاءت نصاً في مناط التحدّي ، وبياناً للجهة التي منها أعجز القرآن ويعجز جميع الذين تحدّاهم ويتحدّاهم من أبناء البشر قاطبة في كل زمان ومكان من كل جنس وأمة ، وعلى أيّة درجة من العلم والمعرفة .

هذه الجهة هي التي سما بها كلام الله تعالى إلى ذروة الفضل والإحسان ، فبها سبق فلا يلحق ، وانفرد محلقاً في آفاقها فلا يدرك ، وهي الجهة التي تحقّق رسالته وخلودها ، لأنها خالدة بخلوده ، ولاسيما في عالمنا المعاصر الذي فتن بالعلوم التجريبية والمعارف المادية ، وفتن بجولات العقل في ظواهر الطبيعة وبعض حقائق الكون في هذا الكوكب الأرضي الصغير المحدود[2] » .

وهكذا نجد أن العلماء في القديم والحديث اتفقوا على أن مناط إعجاز القرآن عنصر الهداية فيه ، والنظم الفريد .

فالباقلاني يقول : « وجعل معجزته الكبرى القرآن ليتم به

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني الطبعة الثالثة .

(٢) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ـ لمحمد الصادق عرجون ـ طبعة ١٣٨٦ هـ ـ الناشر : مكتبة الكليات الأزهرية ـ ص (١٤٦) .

الاهتداء » .

وعرجون يقول : « وهداية الإعجاز جاءت نصاً في مناط التحدّي وبياناً للجهة التي منها أعجز القرآن » .

وهكذا نجد الهداية القرآنية هي لبّ إعجاز القرآن .

وأما عن ورود كلمة الإعجاز ـ وهي الشقّ الثاني من التعريف ـ في القرآن الكريم ، فقد وردت في أكثر من آية .

ففي سورة سبأ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ (سبأ : ٥) .

أي : وأما الذين بذلوا جهدهم وجدّوا لإبطال القرآن مغالبين لرسولنا يظنّون أنهم يعجزونه بما يثيرونه من شبهات حول رسالته والقرآن ، أولئك لهم عذاب من رجز أليم .

وفي سورة سبأ أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (سبأ : ٣٨) .

أي : يسعون في الصدّ عن سبيل الله واتباع آياته ورسله معاندين لنا ، يظنون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ، أولئك في العذاب محضرون .

وفي سورة الحج : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الحج : ٥١) .

أي : كذبوا بآياتنا ، وسعَوا في إبطالها مغالبين مشاقّين يريدون إطفاء نور الله ، أولئك أصحاب الجحيم .

وفي سورة التوبة قوله تعالى : ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (التوبة : ٢) .

« واعلموا أنكم غير معجزي الله » : أي : لاتفوتونه تعالى وإن أمهلكم هذه المدة .

وأما عن ورود هذه الكلمة في كتب السنة :

ففي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ﴿ ولاتَلِثُّوا بدارِ مَعْجزَةٍ ﴾ أي : لاتقيموا في موضع تعجزون فيه عن الكسب .

ومنه الحديث : « كلّ شيء بقدَر حتى العجزُ والكَيْسُ »[1] .

وقيل : أراد بالعجز : ترك مايجب فعله بالتسويف ، وهو عام في أمور الدنيا والدين .

وفي حديث الجنة : « ما ليَ لايدخُلُني إلا ضعفاء الناس وعَجَزُهُمْ »[2] .

جمع عاجز ، يريد الأغبياء العاجزين في أمور الدنيا .

وأما عن ورودها في كتب اللغة .

يقول ابن منظور في اللسان[3] : وأعجزه الشيء : عجز عنه .

والتعجيز : التثبيط ، ومعنى الإعجاز : الفوت والسبق .

يقال : أعجزني فلان ، أي : فاتني .

وقال الليث : أعجزني فلان : إذا عجزت عن طلبه وإدراكه ، والمعجزة : واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام .

وأما صاحب القاموس فيقول[4] : وأعجزه الشيء : فاته ، ومعجزة النبي ﷺ : وما أعجز به الخصم عند التحدي .

فإذا ماانتقلنا إلى بيئة العلماء والأدباء لنتعرف على ماقالوه حول هذا المعنى ، ومايحمله لديهم من تعبير ، نجد الإمام الباقلاني رحمه الله يقول : « إنه تحدّاهم إلى أن يأتوا بمثله ، وقرّعهم على ترك الإتيان طول تلك السنين فلم يأتوا بذلك .

فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلاً على أنه منه ، ودليلاً على وحدانيته »[5] .

---

(١) رواه مسلم في القدر رقم (٢٦٥٥) . وأحمد في مسنده ٢/ ١١٠ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة رقم ٣٥٠ (٢٨٤٦) ، قوله : وعجزهم : بفتح العين والجيم .

(٣) لسان العرب / لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري المتوفى ٧١١ هـ - الجزء السابع / طبعة مصورة عن طبعة بولاق .

(٤) القاموس المحيط / لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي / الجزء الأول - الطبعة الثانية ١٣٧١ هـ .

(٥) إعجاز القرآن للباقلاني / الطبعة الثالثة / (٦٨) .

ونستمع إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني يحدّثنا عن هذا الجانب فيقول : « إنا إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا : لولا أنهم حين سمعوا القرآن وحين تحدّوا إلى معارضته سمعوا كلاماً لم يسمعوا قط مثله ، وأنهم قد رازوا أنفسهم فأحسُّوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريباً منه . . . إلى أن يقول : فقيل لنا : قد سمعنا ماقلتم ، فخبرونا عنهم عماذا عجزوا ؟

فقلنا : أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادىء آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام ، وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان .

وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول وأعجز الجمهور ، ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً . . . »[1] .

ومن كلام الأدباء والنقاد المحدثين نجد نفس المعنى الذي قاله السابقون يردده هؤلاء ، نجد الدكتور أحمد بدوي يقول :

« وربما كان من شعور الكتاب بالسمو القرآني وعجزهم عن مجاراته . . . وهكذا كان القرآن أمة وحده يوم نزل ، وظل إلى اليوم أمة وحده كذلك .

وإذا كان الكتاب قد حاولوا الاقتداء به ، فلم يكن ذلك إلا المظهر دون الحقيقة ، فظل القرآن فريداً في اللغة بأسلوبه وطريقة عرضه . . . »[2] .

وهكذا تجلى لنا من خلال استعراض آيات الذكر الحكيم ، والسنة

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ـ تصحيح محمد رشيد رضا طبعة ١٣٩٨ هـ ـ دار المعرفة ـ بيروت ص (٣٢) .

(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب ـ د . أحمد أحمد بدوي ـ دار نهضة مصر (٦١٠).

المطهرة ، وكتب المعاجم ، وأقوال العلماء ، أن المعنى الذي يحمله الإعجاز عندهم هو : **عدم القدرة ، والفوت ، والتثبيط** .

وليس القرآن إلا المعجزة الخالدة التي عجز عن مجاراتها جميع المخلوقات وهذا في حد ذاته هو الإعجاز .

كما لاحظت بأن الهداية القرآنية هي جانب من جوانب الإعجاز القرآني .

ولعله من كل ماتقدم يمكن أن نقول : بأننا قد وضعنا أصابعنا على شيء ملموس من ناحية الهداية والإعجاز .

فإذا أدركنا مايدور حول هذا المعنى سهل علينا بعد ذلك أن ندرك المعنى الذي سوف نتحدث عنه موضوعاً لرسالتنا هذه وهو :

«الأسلوب القرآني بين الهداية والإعجاز البياني» .

وبلوغه الغاية في التعبير وسمو الألفاظ ، ودقة التراكيب ، وصدق العاطفة ، والذروة في الإعجاز . ومجيء هذا الأسلوب المبدع على غير ما مثال سابق وهذا هو الإعجاز . . .

الباب الأول

الآراء حول قضية الإعجاز في القرآن

الفصل الأول

الأقدمون وقضية الإعجاز

الفصل الثاني

إعجاز القرآن في آراء المحَدثين

الفصل الثالث

من دراسات المحدثين حَول الإعجاز في القرآن

الفصل الأول

الأقدمون وقضيّة الإعجاز

١ ـ الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه :
« الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان »

٢ ـ الإمام الزركشي في كتابه :
« البرهان في علوم القرآن »

الإمام ابن قيم الجوزية ودراسته حول الإعجاز القرآني(١)

تعريف بالإمام ابن قيم الجوزية :

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ،

ولقب قيم الجوزيّة نسبة إلى المدرسة المسماة بالجوزية التي بناها محي الدين بن الحافظ بسوق القمح بدمشق وكان مشرفاً عليها .

ولد في السابع من صفر ٦٩١ هـ وتوفي في الثالث عشر من رجب ٧٥١ هـ ، وقد نشأ في بيت علم وفضل ، وأخذ العلم عن كبار علماء عصره ، ونهل من موارد عذبة في الفقه والأصول والفرائض ، وقد أربت مؤلفاته على الأربعين .

قال عنه ابن كثير رحمه الله : « كان كثير الصلاة والتلاوة حسن الخلق ، كثير التودد ، لايحسد ولايحقد على أحد ، وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه » .

وهو تلميذ الإمام الجليل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى (آمين) .

---

(١) راجع في الترجمة :

روضة المحبين ونزهة المشتاقين ـ لابن قيم الجوزية ـ الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ ـ مقدمة الكتاب .

وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ـ الناشر المكتب التجاري للطباعة ـ بيروت ـ (٦/ ١٦٨) .

ودائرة المعارف الإسلامية ـ المجلد الأول ـ الناشر : دار المعرفة بيروت ـ (٢٦٨) .

والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ لابن حجر العسقلاني تحقيق محمد سيد جاد المولى ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ الجزء الرابع ـ (٢١) .

وهدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين ـ لإسماعيل باشا البغدادي ـ المجلد الثاني ـ مكتبة المثنى ـ بيروت ١٩٥٥ م ـ (١٥٨) .

ابن قيم الجوزية وتناوله لقضية الإعجاز في القرآن الكريم

أخذ ابن القيم رحمه الله أولاً في عرض آراء القائلين بالإعجاز من الأقدمين ، ومن ثم أخذ يتحدث عن أقوال هؤلاء السابقين ، ثم يسوق الاعتراض على بعض هذه الأقوال .

ويقول : فمن العلماء من يرى إعجازه من جهة إيجازه واحتواء لفظه القليل على المعاني الكثيرة من مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٩) ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ (يوسف : ٨٠) .

وقد اعترض على هذا القول بأنه وجد في السنة وكلام العرب مالفظه قليل ومعناه كثير من مثل قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات »[١] .

وقال قوم : إعجازه من جهة حسن تركيبه ، وبديع ترتيب ألفاظه ، وعذوبة مساقها وجزالتها وفخامتها وفصل خطابها .

وقال قوم : إعجازه من غرابة أسلوبه العجيب واتساقه الغريب الذي خرج عن أعاريض النظم وقوانين النثر وأنماط الأراجيز[٢] .

وقد اعترض على هذا القول من وجوه :

الأول : لو كان الابتداء بالأسلوب معجزاً لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً .

الثاني : الابتداء بالأسلوب لايمنع الغير من الإتيان بمثله .

الثالث : إن الذي تعاطاه مسيلمة من الحماقة في معارضة القرآن على حدّ زعمه كما صنع في الضفدع والفيل هو أسلوب في غاية الركاكة والفظاعة ، وكان مبتدئاً به ولم يعد ذلك إعجازاً بل عدّ سخفاً وحماقة .

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ لابن حجر العسقلاني ـ كتاب بدء الوحي ـ الجزء الأول ـ المطبعة السلفية ـ طبعة ١٣٨٠ هـ .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ـ لابن قيم الجوزية ـ (٣٧٩) الطبعة الأولى .

الرابع : لما فاضلنا بين قوله تعالى : ﴿ ولكُمْ في القِصاصِ حياةٌ يا أولي الألبابِ ﴾ ، وبين قولهم : « القتل أنفى للقتل » لم تكن المفاضلة بسبب الوزن ، وإنما تعلق الإعجاز بما ظهرت به الفضيلة[1] .

وقال قوم : إعجازه بما فيه من المعاني الخفيّة والجليّة وفنون العلوم النقليّة والعقلية ، كإخباره عن القرون السالفة في الأزمنة الخالية والأعصر الماضية في الأماكن القاصية والدانية ، وقصص الأنبياء مع أممها مما التمسوه منه مثل قصة أهل الكهف ، وقصة الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام .

وقد اعترض على هذا القول بأن بعض سور القرآن ليس فيها شيء من ذكر القرون الماضية والأعصر الخالية ، والإعجاز مقرون بكل سورة[2] .

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ـ لابن قيم الجوزية ـ (٣٨٠) ـ الطبعة الأولى .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ـ لابن قيم الجوزية ـ (٣٨٢) .

ويعقد الرماني مقارنة بين إيجاز القرآن في قوله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ ، وبين ما استحسنه العرب في هذا الفن من كلامهم فيقول :

« وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : (القتل أنفى للقتل) وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه : إنه أكثر في الفائدة ، وأوجز في العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة .

أما الكثرة في الفائدة ففيه كل ما في قولهم : (القتل أنفى للقتل) وزيادة معان حسنة منها إبانة العدل لذكره القصاص ، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره للحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله تعالى به .

وأما الإيجاز في العبارة : فإن الذي هو نظير : (القتل أنفى للقتل) قوله : ﴿القصاص حياة ﴾ والأول أربعة عشر حرفاً ، والثاني عشرة حروف .

وأما بعده عن الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة ، فإن في قولهم : (القتل أنفى للقتل) تكريراً غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة » .

النكت في إعجاز القرآن ـ للرماني ـ (٧٨) ـتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ـ الطبعة الثالثة .

ومنهم من قال : إعجازه بإخباره بما كان ومايكون مما وقع على حكم ما أخبر به ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ (النصر : ١) .

وقوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ (الروم : ١ ، ٣) .

وقوله تعالى : ﴿ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ ﴾ (آل عمران : ١٥٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة : ٦٧) .

إلى غير ذلك مما كشف به أخبار المارقين ، وأسرار المنافقين ، وكان جميعه كما أخبره وصدق الله ورسوله .

وقد اعترض على هذا القول بأن بعض سور القرآن ليس فيها شيء من الأخبار بالغيبيّات ، وتلك السور معجزة قد تحدّاهم الله بالإتيان بمثلها ، فلم يقدروا على ذلك ، وضاقت عليهم مع فصاحتهم المسالك[1] .

ومنهم من قال : إعجازه بما احتوى عليه من العلوم التي لم يسبق إليها أحد من البشر قبل نزوله ولا اهتدت إليه فطن العرب ولا غيرهم من الأمم .

وقد اعترض على هذاالقول بأنه قد وجد في السنة ، وكلام العرب مثل هذا ولم يعد معجزة[2] .

ومنهم من قال : إعجازه حصل بما فيه من نشاط القلوب الواعية وغير الواعية[3] إليه ، وإقبالها بوجه المودّة عليه ، واستحلاء طعم عذوبة ألفاظه ومعانيه وهشاشتها بما يتردّد عليه من مبشّراته المبهجة ومحذّراته المزعجة ، ومع ذلك فالقلوب مقبلة على أذكاره ، راغبة في

---

(١) الفوائد المشوق الى علوم القرآن ـ لابن قيم الجوزيه ـ الطبعة الأولى (٣٨٢) .

(٢) الفوائد المشوق الى علوم القرآن ـ لابن قيم الجوزيه ـ الطبعة الأولى (٣٨٣) .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

تكراره ، شجيّة عند سماع ترتيله .

وروي أن نصرانياً مرّ بقارىء ، فوقف يبكي . فقيل له :ممّ بكاؤك ؟ قال : الشجا والنظم .

وفي الحديث الذي وصف به النبي ﷺ القرآن بأنه « لايخلَق على كثرة الردّ ، ولاتنقضي عِبَرُه ، ولاتفنى عجائبه ، هو الفصل ليس بالهزل ، لاتشبع منه العلماء ، ولاتزيغ به الأهواء ، ولاتلتبس به الألسنة ، وهو الذي لم تلبث الجن حين سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ (الجن : ١) .

وقد اعترض على هذا القول بأنه : قد يوجد في ألسنة وكلام فصحاء العرب ، وأشعار فحول الشعراء مايحسن موقعه ، وتشرئب النفوس إليه ولا تملّه على تكراره .

ومنهم من قال : إعجازه : بما يقع في النفوس عند تلاوته من الروعة ، وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة ومايلحقها من الخشية ، سواء كانت فاهمة لمعانيه ، أو غير فاهمة أو عالمة بما يحتويه . فقد تدلّهت به ألباب جماعة من المحسنين ، وقد صح عن جبير بن مطعم أنه قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ (الطور : ٣٥) كاد قلبي أن يطير .

وقد اعترض على هذا القول بأن جماعة من أرباب القلوب وذوي الاستغراق في بديع أوصاف المحبوب حصل له من سماع بعض الأشعار ما أخرجه عن طوره ، وربما مات على فوره[1] ؟

وقال قوم : إعجازه : حفظ آياته من التبديل ، وصون كلماته من النقل والتحويل ، ولايستطيع أحد أن يتحيف منه سمطاً ، ولايزيد شكلاً ولا نقطاً ، ولايدخل فيه كلمة من غيره ، ولايخرج منه أخرى ، ولايبدل حرفاً بحرف ، وكم جهد أهل العناد في ذلك فما قدروا له

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ـ لابن قيم الجوزية ـ (٣٨٣ ـ ٣٨٤) ـ الطبعة الأولى .

وماستطاعوا ، وكم قصدوا تحريفه ، فأبى الله ذلك فأذعنوا له وأطاعوا .

روي أن يهودياً تكلّم في مجلس المتوكل فأحسن الكلام ، وناظر فعلم أنه من جلة الأعلام ، وناضل فتحققوا أنه مسدّد السهام ، فدعاه المتوكل إلى الإسلام فأبى ، بعد أن بذل له المتوكل ضروباً من الإنعام وصنوفاً من الرفعة والإكرام ، فلم يزده ذلك إلا طغياناً وكفراً ، فغاب مدّة ثم عاد وهو يعلن إسلامه ؛ فقال له المتوكل : أسلمت ؟ قال : نعم ، قال : ماسبب إسلامك ؟ قال : نظرت في الأديان ، فأخذت التوراة فنظرت فيها ، وتدبّرت معانيها ، وكتبتها بخطي ، وزدت فيها ونقصت ، ودخلت السوق وبعتها ، فلم ينكر أحد من اليهود منها شيئاً .

وأخذت الإنجيل وزدت فيه ونقصت ، ودخلت به السوق وبعته فلم ينكر أحد من النصارى منه شيئاً .

وأخذت القرآن وقرأته ، وتأمّلته فإذا فيه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) كتبت وزدت فيه ونقصت ، ودخلت به السوق وبعته ، فنظر فيه المسلمون فعرفوا المواضع التي زدت فيها ونقصت ، وردوا كلّ كلمة إلى موضعها ، وكلّ حرف إلى مكانه ، فعلمت أنه الحقّ ، لتحقيق وصفه بأنه كلام الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . فآمنت به وصدقت ماجاء به[(١)] .

وقال قوم : إعجازه : في خروج الإتيان بمثله عن مقدور البشر .

وقال قوم : صرف الله خلقه عن القدرة عن الإتيان بمثله ، ولولا ذلك لدخل تحت مقدورهم .

وقد اعترض على هذا القول بوجوه ثلاثة :

الأول : إن عجز العرب عن المعارضة لو كان من أجل أن الله تعالى عجزهم عنها ، بعد أن كانوا قادرين عليها ، لما كانوا مستعظمين

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ـ لابن قيم الجوزية ـ (٣٨٥) الطبعة الأولى .

لفصاحته ، بل يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم ، بعد أن كان مقدوراً لهم . كما أن نبياً لو قال : معجزتي أني أضع يدي على رأسي هذه الساعة ، ويكون ذلك متعذّراً عليكم ، ويكون الأمر كما زعم ، لم يكن تعجّب القوم من وضعه يده على رأسه ، بل تعذّر ذلك عليهم ، ولما علمنا بالضرورة أن تعجّب العرب كان من فصاحة القرآن نفسه بطل القول بالصرف .

الثاني : لو كان كلامهم مقارباً في الفصاحة قبل التحدي لفصاحة القرآن لوجب أن يعارضوه بذلك ، ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله ، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن ، ولما لم يكن كذلك بطل ذلك .

الثالث : أن نسيان الصيغ المعلومة في مدّة يسيرة يدلّ على زوال العقل ، ومعلوم أن العرب مازالت عقولهم بعد التحدّي ، فبطل أن يكون الإعجاز بالصرف بل الإعجاز ليس بالصرف[1] .

ويسوق ابن القيم مثالاً على الإعجاز في القرآن أقصر سورة فيه ، وهي سورة الكوثر فيقول : إن هذه السورة قد احتوت إحدى وعشرين وجهاً من الإعجاز ، ثمانية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ ، وثمانية في قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ ، وخمسة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ (سورة الكوثر : ١ ، ٣) .

فالثمانية التي في ﴿ إنّا أعطيناك الكوثر ﴾ :

١ ـ النعمة العظيمة له ولعقبه من بعده ، فالكوثر هو الكثير من النعمة والخير ، ويدخل في ذلك معنى النهر الصغير .

٢ ـ جمع ضمير المتكلم ، وهو يشعر بعظمة الربوبيّة .

٣ ـ أنه بنى الفعل على المبتدأ ، فدلّ على خصوصيّة وتحقيق على مابيّنا في باب التقديم والتأخير .

٤ ـ أنه صدر الجملة بحرف التوكيد الجاري مجرى القسم .

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ـ للإمام ابن قيم الجوزية ـ الطبعة الأولى (٣٨٦ ـ ٣٨٧) .

٥ ـ أنه أورد الفعل بلفظ الماضي دلالة على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون الآجلة ، ودلالة على أن المتوقع من عطاء الكريم في حكم الواقع .

٦ ـ أنه جاء بالكوثر محذوف الموصوف للإيهام والشمول ، والتناول على طريق الاتساع .

٧ ـ اختيار الصفة المؤذنة بالكثرة .

٨ ـ أنه أتى بالصفة مصدرة باللام المعروف بالاستغراق ، لتكون شاملة لما يوصف بها ، وكاملة في إعطاء معنى الكثرة .

والثمانية التي في الآية : ﴿ فَصَلِّ لربِّكَ وانْحَرْ ﴾ هي :

١ ـ أن فاء التعقيب المفيدة معنى التسبب ، أفادت جعل الأنعام الكثيرة سبباً إلى شكر المنعم .

٢ ـ ترك المبالاة بقول العدو ، لأن العاص بن وائل قال : إن محمداً صنبور ، والصنبور هو الذي لاعقب له ، وقد شقّ ذلك على النبي ﷺ .

٣ ـ قصده بالأمر التعريض بذكر العاص وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير الله ، وتثبيت النبي ﷺ .

٤ ـ الإشارة بالصلاة والنحر إلى العبادتين البدنية والمالية ، اللتين كانت إحداهما قرة عين النبي ﷺ والأخرى موضع همته القوية .

٥ ـ حذف اللام الأخرى ومجرورها لدلالة الأولى عليها .

٦ ـ مراعاة حق السجع ، ولكن دون تكلف ، لتطلب المعنى إياه .

٧ ـ قول : « لربك » فيه حسنان : وروده على طريق الالتفات ، وصرف الكلام على لفظ المضمر إلى لفظ المظهر ، وأن فيه إظهاراً لكبرياء شأنه ، وإثباتاً لعزّ سلطانه .

٨ ـ أنه علم بهذا أن من حقوق الله التي تعبد العباد بها ، أنه ربهم ومالكهم ، فعرض بترك التماس العطاء من عبد مربوب ترك عبادة ربه .

والخمسة التي في : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ هي :

١ ـ أنه علل الأمر بالإقبال على شأنه ، وترك الاحتفال بشانئه على سبيل الاستئناف الحسن الموقع .

٢ ـ ورود الجملة الأخيرة جملة اعتراض مرسلة إرسال الحكمة التي تحكم الأغراض كقوله تعالى : ﴿ إنّ خيرَ منِ استأجَرْتَ القويُّ الأمينُ ﴾ ، وعنى بالشانىء العاص بن وائل .

٣ ـ أنه لم يسمّه باسمه ليتناول كلّ من كان في مثل حاله .

٤ ـ أنه صدّر الجملة بحرف التوكيد الجاري مجرى القسم ، وعبرّ عن خصم النبي ﷺ بالاسم الذي يدلّ على أنه مغرض غير صادق ولايريد الحق ، بل نطق بالشنآن الذي ينبىء عن الحقد .

٥ ـ جعل الخبر معرفة وهو الأبتر والشانىء، حتى كأنه دون غيره الذي يقال له الصنبور .

وهذه السورة على جلالة معانيها ومزاياها خالية من التكلف . ويبدو من نظمها روح الإعجاز البياني في القرآن الكريم .

هذا ويورد ابن قيم الجوزية وجوهاً من الإعجاز ذكرها بعض العلماء منها :

أن التحدّي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة قائمة بالذات الإلٰهية .

وأن العرب إذا تحدّوا بالتماس معارضتهم له والإتيان بمثله ، أو مثل بعضه كلّفوا مالا يطاق ، ومن هذه الجهة وقع عجزهم .

ويعلّق ابن القيم بأن هذا القول حسن .

وأقول : إنه يشمّ منه رائحة الصرفة ، ومن العلماء من قال بأن إعجازه إنما وقع لكون المتكلم به ـ أي : الله ـ عالماً بمراده من كلّ كلمة ومايليق بها ، وماينبغي أن يلائمها من الكلام ، ومايناسبها في المعنى ، لايخفى عنه مادقّ من ذلك وما جلّ ، ولامصرف كل كلمة ولا مآلها ، وغير الله لايقدر على ذلك ، لأنه ـ أي الله ـ قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

وأقول : بل يبدو إعجازها لكل ذي ذوق سليم .
ويعلّق ابن القيم على هذا بأنه من الأقوال التي لامطعن عليها .

تعليق على كلام ابن القيم :

وفي الواقع : أنه إن كان هناك من تعليق على كلام الإمام ابن قيّم الجوزية - رحمه الله - فهو أنه كان عالماً مستقصياً جمع كلّ ماقيل في الإعجاز تقريباً حتى زمانه .

مع أنه وقع في التناقض حين ردّ القول بالصرفة وعلّل ردّه تعليلاً منطقياً ، ثم قبله حين أوصى المؤمن باعتقاد الإعجاز مهما كان وجه تعليله حتى إذا كان الصرفة .

أيضاً علّق على بعض الوجوه بالاستحسان من عدمه ، وبهذا كان له رأيه الشخصي مع العلم أنه وهو يذكر وجوه الإعجاز وماعترض به عليه كان يشفع ذلك بالأدلّة والتعليلات ، وذلك يدلّ على دقّته في البحث والتأليف .

كما حاول إقناع كل كافر بالحجّة ، بعد أن أقنع المؤمن بالحجّة ، وزيادة إقناعه بالاعتماد على إيمانه في أن قدرة الله تنقطع قوى البشر دونها ، فكيف يستطيعون إذاً معارضة كلام الله تعالى !

كما كان له جهده في إظهار الإعجاز البلاغي في دراسته وجوه الحسن في أقصر سورة في القرآن ، وهي سورة « الكوثر » فتلك محاولة تطبيقية رائعة جداً .

الإمام الزركشي ودراسته حول إعجاز القرآن[1]

تعريف بالزركشي :

هو الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، أحد العلماء الأثبات الذين نجموا بمصر في القرن الثامن ، وجهبذ من جهابذة أهل النظر وأرباب الاجتهاد ، وقد كان علماً من أعلام الفقه ، والحديث ، والتفسير ، وأصول الدين .

ولد بمصر المعمورة بمدينة القاهرة المحروسة سنة خمسٍ وأربعين وسبعمائة حينما كانت معمورة بالمدارس ، غاصّة بالفضلاء وحملة العلم ، زاخرة بدور الكتب .

ولم يكد يجاوز سنّ الحداثة حتى انتظم في حلقات الدرس ، وتفقه بمذهب الشافعي ، و شد الرّحال إلى حلب والشام ، ففي حلب أخذ عن الأذرعي الفقه والأصول ، وفي دمشق أخذ عن ابن كثير الحديث ، ثم عاد إلى القاهرة وقد جمع أشتات العلوم مع ذكاء وفطنة وثقافة وألمعية ، فأهّله ذلك للتدريس والفتيا .

واجتمع له من المؤلفات في عمره القصير مالم يجتمع لغيره من أفذاذ الرجال ، وإن كان هذا الفضل لم يعرفه الكثير من الناس إلا بعد وفاته وحين توارت شمس حياته .

كان رضيّ الخلق ، محمود الخصال ، عذب الشمائل ، متواضعاً رقيقاً ، يلبس الخلق من الثياب ، ويرضى بالقليل من الزاد ، لايشغله عن العلم شيء من مطالب الدنيا .

---

(١) راجع في الترجمة : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق محمد سيد جاد الحق ـ الجزء الرابع (١٠٧) .

وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ لابن العماد الحنبلي ـ الجزء السادس ـ (٢٢٤) .

وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ـ للسيوطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الأولى ـ الجزء الأول (٤٣٧) .

توفي بمصر في رجب سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من تربة بكتمر الساقي يرحمه الله .

الإمام الزركشي وتناوله لقضية الإعجاز

وعن الإعجاز يتحدّث الإمام الزركشي رحمه الله فيقول : « وهو علم جليل ، عظيم القدر ، لأن نبوة النبي ﷺ معجزتها الباقية القرآن ، وهو يوجب الاهتمام بمعرفة الإعجاز »[1] .

كما أن الإعجاز في هذا الكتاب العظيم موجود حتى في سماعه ، ولذا قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة : ٦) .

فلولا أن سماعه حجّة عليه لم يقف أمره على سماعه ، ولاتكون حجّة إلا وهي معجزة .

وعن الإعجاز بالصرفة ، وهو ماذهب إليه النظّام[2] « وإن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم ، وكان في مقدورهم الإتيان بمثله ، فصار كسائر المعجزات » .

ويدفع الزركشي هذا الوجه بقوله : « وهو قول فاسد بدليل قوله تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء : ٨٨) .

فإنه دليل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى بكبير يُحتفل بذكره ، هذا مع أن الاجتماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزاً غيره وليس فيه صفة الإعجاز ، بل المعجز هو الله سبحانه ، حيث سلبهم قدرتهم على الإتيان بمثله .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي ـ (٩٠) ـ الجزء الثاني الطبعة الثانية .

(٢) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي (٩٣) ـ الجزء الثاني الطبعة الثانية .

والنظّام هو : أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة في عصره ، وإليه تنسب الفرقة النظامية ، وقد كان باقعة الزمن يقول عنه الجاحظ : « يقولون : في كل ألف سنة يظهر رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحاق النظام » .

وأيضاً يلزم من القول بالصرفة فساد آخر ، وهو زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة ، فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى ، ولامعجزة له باقية سوى القرآن ، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزة[1] .

ثم يورد رداً للإمام القاضي أبي بكر الباقلاني حيث يقول : « ومما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة ـ وإنما منع منها الصرفة ـ لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع معجزاً فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه »[2] .

الوجه الثاني :

الإعجاز بما فيه من تأليف خاص به لامطلق تأليف ، وهو بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة ، وعلت مركباته معنى ، بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى[3] .

الوجه الثالث :

مافيه من إخبار عن الغيوب المستقبلة ، ولم يكن ذلك[4] من شأن العرب كقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر : ٤٥) ، ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ (الفتح : ٢٧) .

وغير ذلك مماأخبر القرآن بأنه سيقع فوقع ، كما أخبر به القرآن الكريم .

ويدفع الزركشي هذا الوجه بأنه يقتضي نفي الإعجاز عن الآيات والسور التي لاتحمل أموراً غيبيّة ، وهذا باطل ومدفوع إذ كل سورة معجزة

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي (٩٤) ـ الجزء الثاني الطبعة الثانية .

(٢) إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني (٣٠) ـ الطبعة الثالثة ـ تحقيق سيد صقر ـ دار المعارف بمصر .

(٣) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي (٩٥) ـ الجزء الثاني الطبعة الثانية ـ وقد اختار هذا الوجه الإمام الزملكاني .

(٤) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي (٩٥) ـ الجزء الثاني الطبعة الثانية .

بعينها[1] .

الوجه الرابع :

ماتضمّنه من إخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها ، كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود : ٤٩) .

الوجه الخامس :

إخباره عما استكن في الضمائر مما لايعلمه سوى علاّم الغيوب من غير أن يظهر ذلك من أصحابه بقولٍ أو فعل ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (المجادلة : ٨) .

الوجه السادس :

إن إعجازه بنظمه وصحّة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه[2] .

الوجه السابع :

إن وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب ، وغير ذلك مقترناً بالتحدّي[3] .

الوجه الثامن :

إعجازه بما فيه من نظم وتأليف وترصيف ، وأنه[4] خارج عن وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ، ومباين لأساليب خطاباتهم .

وهذا هو الذي ذهب إليه القاضي[5] أبو بكر الباقلاّني في إعجاز

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي (٩٦) .

(٢) البرهان ـ للزركشي (٩٧) .

(٣) نفس المرجع (٩٨) .

(٤) البرهان في علوم القرآن ـ للإمام الزركشي (٩٨) ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الثانية .

(٥) القاضي أبو بكر الباقلاني هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم =

القرآن ، ولذا لم يمكنهم معارضته .

الوجه التاسع :

أن إعجازه باعتبار أنه شيء لايمكن التعبير عنه .

وهذا ما ذهب إليه السكاكي في كتابه « مفتاح العلوم » : « ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين : (المعاني والبيان) . نعم للبلاغة وجوه متلثّمة ربما تيسر إماطة اللثام عنها ، أما نفس وجه الإعجاز فلا »[١] .

الوجه العاشر :

إن الإعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة البلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لاتوجد له فترة ، ولايقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لاتستمر الفصاحة والبلاغة بجميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه ، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه[٢] .

وهو ماذهب إليه حازم القرطاجني في « منهاج البلغاء »[٣] .

= المعروف بالباقلاّني ، ولد بالبصرة وتلقّى العلم على يد علماء البصرة وبغداد ، توفي سنة ٤٠٤ هـ ببغداد رحمه الله ودفن بقرب قبر الإمام أحمد بن حنبل ، ونقش على شاهد تربته ما نصه : « هذا قبر القاضي الإمام السعيد فخر الأمة ، ولسان الملة ، وسيف السنة ، وعماد الدين ناصر الإسلام ، أبي بكر : محمد بن الطيب البصري ، قدّس الله روحه ، وألحقه بنبيه محمد ﷺ » .

(١) مفتاح العلوم ـ للإمام السكاكي ـ وهو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ـ للإمام الزركشي ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الثانية (١٠١) .

(٣) منهاج البلغاء للإمام القرطاجني ، وهو أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني شيخ البلاغة والأدب في عصره ، وأوحد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة والعروض والبيان ـ توفي سنة ٦٨٤ هـ .

الوجه الحادي عشر :

إن وجه الإعجاز فيه هو من جهة البلاغة[1] .

ثم صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لاتسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في حال أخرى مايخلص منه إليه ، قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر : ٢١) .

ولهذا أسلم جبير بن مطعم لما سمع قراءة النبي ﷺ للطور حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ (الطور : ٧) ، قال : خشيت أن يدركني العذاب[2] .

الوجه الثاني عشر :

أن الإعجاز بجميع ماتقدم[3] . .

ومن هذه الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعهم سواء المقرين والجاحدين .

ومنه أنه لم يزل غضاً طرياً في أسماع السامعين وعلى ألسنة القارئين .

ومنه جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة .

ومنه جعله آخر الكتب غنياً عن غيره ، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النمل : ٧٦) .

تعليق على الإمام الزركشي في الإعجاز :

هذا ونحن ، إذا تأملنا ماأورده الإمام الزركشي ـ رحمه الله ـ في الإعجاز نجده وقد نقل لنا خلاصة ماقيل في هذا الباب من أقوال الأئمة

---

(١) البرهان ـ للزركشي (١٠١) .

(٢) سيرة النبي ـ ﷺ ـ لابن هشام ـ تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .

(٣) البرهان في علوم القرآن / للإمام الزركشي ـ الجزء الثاني الطبعة الثانية ـ (١٠٦ ، ١٠٧) .

السابقين ، في الوقت الذي لم يفته فيه أن يبدي وجهة نظره التي رآها متمثلة في مجموع ماقاله الأئمة السابقون .

إن الإعجاز وقع بجميع ماسبق من الأقوال ، لابكل واحد على انفراده ، فإنه جمع كل تلك الوجوه فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده ، مع اشتماله على الجميع بل وغير ذلك مما لم يسبق إليه . . .

فليس للزركشي رأي خاص إذن في الإعجاز ، لكن المهمّ أنه يعتقد بإمكان وجود وجوه للإعجاز ، لم تقل حتى في عهده ، فكأنه يؤمن بنظرية الإعجاز العلمي والتي ظهرت أخيراً في عصرنا الحاضر .

الفصل الثاني

إعجاز القرآن في آراء المحدثين

١ ـ الإمام الشهيد سَيّد قطب

٢ ـ الشيخ محمد متولي الشعراوي

سيد قطب

ولد سيّد قطب سنة ١٩٠٦ م في قرية موشا من قرى محافظة أسيوط لأب ميسور الحال ، وكان أبوه محبّاً للعلم ، من هنا فقد سارع إلى إلحاق ابنه بالتعليم ، فأظهر الابن تفوّقاً واضحاً رغم صغر سنه حيث حفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره ، سافر إلى القاهرة والتحق بدار العلوم وتخرج فيها .

اتصل بالعقاد وأعجب بآرائه الفكرية ، كما تأثر بأفكار الشيخ محمد رشيد رضا من الناحية الدينيّة ، وأشدّ ماأثر في نفسه مقتل الإمام حسن البنا ، والضجيج والفرحة اللذان أحدثهما خبر وفاته لدى الغرب ، فالتحق بجماعة الإخوان المسلمين ، وبقي فيها حتى جرى اعتقاله عام ١٩٥٤ م بقي في السجن حتى عام ١٩٦٥ م . خرج بعدها ليمضي ستة أشهر خارج جدران السجن ليعود اعتقاله من جديد حيث تنتهي رحلته مع السجن بالإعدام ليموت شهيداً رحمه الله . . .

بلغت مؤلفاته رحمه الله حوالي العشرين ، ولعل من أنفسها كتابه القيم في التفسير المسمى : « في ظلال القرآن »[1] .

---

(١) راجع في الترجمة كتاب : « سيد قطب ـ خلاصة حياته ، منهجه في الحركة ، النقد الموجه إليه » ، لمحمد توفيق بركات ـ دار الدعوة ـ بيروت ـ لبنان .

سيد قطب ورأيه في الإعجاز

وسيد قطب يرى الإعجاز في القرآن قائماً على الإبداع في العرض والجمال في التنسيق ، والقوة في الأداء ، والجمال في التصوير يفسره بعد ذلك فيقول : « هذا الجمال الفني الخالص عنصر مستقل بجوهره ، خالد في القرآن بذاته ، يتملاه الفن في عزلة عن جميع الملابسات والأغراض .

وإن هذا الجمال ليتملى وحده فيغنى ، وينظر في تساوقه مع الأغراض الدينية فيرتفع في التقدير » .

أيضاً يرى من مظاهر الإعجاز : المشاهد القرآنية وأنها مشاهد حيّة نابضة تكاد تكون ناطقة يقول في هذا الصدد : « إنها مشاهد حيّة منتزعة من عامل الأحياء ، لا ألوان مجردة ، ولاخطوط جامدة ، مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات ، والخواطر والخلجات ، وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيّة ، أو في شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة »[1] .

أيضاً من سمات الإعجاز الأخرى أن مثل هذه المشاهد حاضرة تراها العين وتحسّها النفس يقول : « إنها حاضرة اليوم تراها العين ، وتحسهاالنفس ، والفارق السحيق بين العالمين فارق قريب ، بل لافارق هناك في بعض الأحيان ، بل ربما كانت الأخرى هي الحاضرة وكانت الدنيا ماضياً بعيداً يتذكره المتذكرون .

تلك سمة تحيي هذه المشاهد في النفس ، وتقوّي أثرها في الحس ، وتتحقق بوسائل شتى نستعرض بعضها على سبيل الإجمال .

مرة يبدأ في قصة تقع في الدنيا ، ثم يتابع الحديث ، فإذا نحن في الآخرة : هذا فرعون يؤمّ قومه في الحياة الدنيا ، ثم يستمر الشوط حتى يؤمّهم إلى النار : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن : سيد قطب . الطبعة السابعة (٤٣) .

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ (هود : ٩٦ ، ٩٨) .

ومرة يزاوج بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، ويسوقهما سوقاً واحداً كأنّما هما حاضران في الزمان يتبادلان التقديم والتأخير : ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ (المرسلات : ٨ ، ٢٤) .

ومرة يتحدّث عن الدنيا كأنها ماض كانٍ ، وعن الآخرة كأنها الحاضر الآن : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الزمر : ٧١) .

وهكذا تلتقي هذه الألوان من التعبير عند سمة واحدة هي استحضار المشهد وإحياؤه ، كأنما هو مشهود محسوس ، وذلك بلا ريب أعظم تأثيراً في النفوس .

أما السمة الثالثة فهي : سمة التناسق والترابط بين مختلف الجزئيات في المشهد مع الجرس في الألفاظ والاتساق في السياق . . . يقول : « وهو تناسق يتجلى في جزئيات المشهد ، فتبدي هذه الجزئيات منسقة بين بعضها البعض لوناً من التماثل أو التشابه أو التداعي أو التقابل ، ولكنها من جوّ واحد لانشوز فيه ولا مفارقات ، ويتجلى ثانية في جرس الألفاظ ليدل هذا الجرس على صورة معناه في بعض الأحيان ، وليؤلف مع بقية الألفاظ إيقاعاً يناسب جو المشهد في جميع الأحيان .

فإذا الموسيقى المصاحبة للمشهد تكمل جوه ، وتناسب أحاسيسه وتشترك مع الألفاظ في تصوير الغرض العام .

ويتجلّى ثالثة في اتساق المشهد كله بألفاظه ومعانيه وجرسه وإيقاعه مع السياق الذي يعرض فيه ، سواء جاء تعقيباً ، أو مقدمة لبرهان ، أو تأكيداً

لقضية أو تثبيتاً لإيمان . . . ومشاهد القيامة في القرآن كلها مسوقة لأداء الغرض الديني ، ذلك الغرض الأول للقرآن ، ولكنها تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني . . »[1] .

كما يرى سيد قطب أن الطريقة المفضلة التي اتبعها القرآن في معظم أسلوبه هي طريقة التصوير وكفى ، وهي مظهر هام من مظاهر إعجازه يقول : « التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبرّ بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني ، والطبيعة البشرية ، ثم يرتقى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أوحركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية .

فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيوردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل العناصر ، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين إلى نظارة . . . حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات .

هذه القضية لدى كل مايؤكدها من الإحصاء الدقيق لنصوص القرآن ، فالقصة ، ومشاهد القيامة ، والنماذج الإنسانية ، والمنطق الوجداني في القرآن ، مضافاً إليها تصوير الحالات النفسية وتشخيص المعاني الذهنية ، وتمثيل بعض الوقائع التي عاصرت الدعوة المحمدية . . . تؤلف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحية الكم ، وكلها تستخدم طريقة التصوير في التعبير ، فلا يستثنى من هذه الطريقة إلا مواضع التشريع ، وبعض مواضع الجدل ، وقليل من الأغراض الأخرى التي تقتضي طريقة التقرير الذهني المجرد ، وهي على كل حال محصورة فيما يوازي ربع القرآن ، فليس هناك من شطط حين أقول : « إن التصوير هوالأداة المفضلة في أسلوب القرآن » ، وطريقة التصوير هي أجل طرائق

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب (٤٧) .»

التعبير وأفضلها في الفن والدين .

إنها تصل إلى النفس من منافذ شتى ، من الحواس بالتخييل والإيقاع ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها الفرد الوحيد .

ولهذه الطريقة فضلها ولاشك في أداء الدعوة لكل عقيدة ، ولكننا إنما ننظر إليها هنا من الوجهة الفنية البحتة ، وإن لها من هذه الوجهة لشأناً ، فوظيفة الفن إثارة الانفعالات الوجدانية وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه . . . وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفنّ الجميل »[1] .

وأيضاً يرى سيد قطب : أن من نواحي الإعجاز القرآني قضية التكرار في أكثر قصصه ، يقول : « لقد كان أول أثر لهذا الخضوع أن ترد القصة الواحدة ـ في معظم الحالات ـ مكررة في مواضع شتى ، ولكن هذا التكرار لايتناول القصة كلها ـ غالباً ـ إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها ، أما جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادراً ، ولمناسبات خاصة في السياق .

وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً . . .

ثم يقول : وفي كلّ تكرار صورة تختلف اختلافاً يسيراً أو كبيراً وتنفي وهم التكرار بلا قصد إلى التكرار . وإن يكن للتكرار غرضه في صدد الدعوة ، ولكنه مع هذا يسير مع الجمال الفني بالتنويع الدقيق الملحوظ . . . »[2] .

كما يرى الإعجاز في أساليب الأداء ، وفي المنهج والدساتير التي حواها هذا السفر الخالد ، والتي شملت الحياة الاجتماعية والاقتصادية

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب (٧ ـ ٨) الطبعة السابعة .

(٢) التصوير الفني في القرآن ـ سيد قطب (١٣٠) ـ الطبعة الثامنة .

والسياسية وتنظيم شؤون الحياة .

« أما الإعجاز القرآني فيتجلّى في أن هذه التوجيهات ، وهذه الأسس التي جاء بها القرآن لكي ينشىء الجماعة المسلمة الأولى ، هي هي ، ما تزال التوجيهات والأسس الضرورية لقيام الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان ، وأن المعركة التي خاضها القرآن ضد أعدائها هي ذاتها المعركة التي يمكن أن يخوضها في كل زمان ومكان ، لابل إن أعداءها التقليديين الذين كان يواجههم القرآن ويواجه دسائسهم وكيدهم ومكرهم ، هم هم ، ووسائلهم هي هي ، تغير أشكالها بتغير الملابسات ، وتبقى حقيقتها وطبيعتها ، وتحتاج الأمة المسلمة في كفاحها وتوقيها إلى توجيهات هذا القرآن حاجة الجماعة المسلمة الأولى ، كما تحتاج في بناء تصورها الصحيح وإدراك موقفها من الكون والناس إلى ذات النصوص والتوجيهات ، وتجد فيها معالم طريقها واضحة ، كما لاتجدها في أي مصدرٍ آخر من مصادر المعرفة والتوجيه . ويظل القرآن كتاب هذه الأمة العامل في حياتها ، وقائدها الحقيقي في طريقها الواقعي ، ودستورها الشامل الكامل الذي تستمد منه منهج الحياة ، ونظام المجتمع ، وقواعد التعامل الدولي ، والسلوك الأخلاقي والعملي .

وهذا هو الإعجاز . . . »[1] .

والملاحظ أن سيد قطب في هذا الكلام الأخير يشير إلى هذا الإعجاز القرآني الذي لم يخل بجانب إعجازه في البيان من الإعجاز في الهداية والتوجيه والإرشاد .

---

(١) تفسير [في ظلال القرآن] ـ سيد قطب ـ الجزء الأول (١٢٤) .

الجانب التطبيقي في دراسة سيد قطب للإعجاز البياني في القرآن الكريم

هذا وبحنكة الرائد الخبير يتناول سيد قطب جوانب الجمال والإعجاز في السور القرآنية .

ففي قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (ق : ٣٠) .

وبهذا السؤال والجواب ينفتح المجال للخيال لتصور المشهد من وراء الحوار ، وتخيّل الصورة من وراء الظلال ،هذه هي الأجسام تقذف إلى جهنم ، وقد فتحت أفواهها ، حتى إذا توالى القذف وتكدّس الوقود ، قيل لها : هل امتلأت ؟ وقد نالت مايحقق لها الامتلاء ، ولكنها قد التهمت ما ألقي فيها التهاماً ، وإنها لتتحرق وتتلمظ إلى وقود جديد « هل من مزيد ؟ » . .

وحينما تشهد الجموع هذا المنظر الرهيب ، يكون على الجانب الآخر ، الجنة مقربة مهيأة للمتقين ﴿ وأُزْلفَتِ الجنةُ للمتّقين غيرَ بعيدٍ ﴾ ، وهم يلقون التكريم الأدبي بجانب النعيم الحسي فيسمعون من الملأ الأعلى : ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (ق : ٣٢ ، ٣٥) .

إنه لمشهد رهيب مهيب ، فيه الصورة ، وفيه الحركة ، والمشاهد تتابع محسوسة مجسّمة ، والحوار يزيدها حياة وحرارة ، ويمتد الحوار إلى جهنم ، ليتم التناسق في التعبير والتصوير من جميع الأطراف .

وإنه لمشهد مؤثر في الوجدان ، مثير للمشاعر والخيال ، يؤدي غرضه الديني في يسر ، ثم ينطلق إلى عالم الفن الطليق ، لاتحده قيود الغرض المحدود ، فلغة الجمال الفني تستطيع أن تخاطب الوجدان الديني ،

ولاتعارض بينهما في تصوير القرآن »[1] .

ومشهد ثان :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ (الصافات : ٥٠ ، ٧٠) .

ونحن أمام مشهد[2] من المشاهد المطوّلة المتعدّدة الجوانب ، المتنوعة الأساليب ، المزدحمة بالمناظر الحيّة المتحركة ، والحركات المتتابعة ، يلتقي فيها الوصف بالحوار ، فتسير على نسق الحكاية فترة ، ثم تنتقل إلى نسق الحوار أخرى ، ويتخلّل سير الحوادث والمناظر تعليقات على كل منها ، هي أشبه شيء بتعليق المعلّقين في ساحات الاستعراض على مايقع فيها ، ويستحق الالتفات الخاص ، وبذلك كله يستكمل المشهد كلّ سمات الحياة ، وقد جاء هذا الاستعراض طويلاً رداً على جماعة يقولون : ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنّا لمبعوثونَ * أَوَآباؤنا الأوّلون ؟﴾ ، وكان الرد : نعم : ﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾[3] .

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب (٩١) الطبعة السابعة . وقد جاء في كلامه في وصف هذا المشهد بأنه (مشهد تمثيلي سينمائي) ونحن ننأى بالقرآن أن يخضع لمثل تلك المصطلحات ، ولعل له بعض العذر أنه يتحدث بلغة الفن في العصر الحديث .

(٢) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة السابعة (١٥٥) .

(٣) الآيات من سورة الصافات من (١٦ ـ ١٨) .

ومشهد ثالث :

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (الملك : ٦ ، ١٢).

التشخيص طريقة[1] من طرق التصوير ترد الصورة حية وتمنح الجوامد والخواطر شخصيّة آدمية أوقع في الحس وأجمل في النفس ، وجهنم في هذا المشهد حية متحركة يلقى إليها الذين كفروا كمايلقون إلى الغول ، فتتلقاهم بشهيق وهي تفور ، يملأ نفسها الغيظ حتى لتكاد جوانبها تنفجر من الحقد .

إنه مشهد مروع تضطرب له القلوب ، وتقشعر لهوله الجلود ، وبينما هم في فزع من هذه الغول التي تتميز من الغيظ وهي تتلقفهم بشهيق وهي تفور ، نسمع خزنتها وحرسها يتلقون كل فوج مدفوع بسؤال واحد مكرور ، فكلهم ذوو شأن واحد مكرور : ﴿ ألم يأتكم نذير ؟ ﴾ والجواب في ذلّ الاعتراف وخجل الانكسار : ﴿ بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا ﴾ ، بل تبجحنا في الإنكار ﴿ وقلنا : مانزّل الله من شيءٍ إن أنتم إلا في ضلالٍ كبيرٍ ﴾ أيها الرسل ونحن على هدى مبين ! .

ثم تطرد موجة الاعتراف والانخذال ، فإذا بهم ينفون عن أنفسهم السمع والعقل : ﴿ وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ فما يذهب الإنسان إلى السعير إلا وقد فقد السمع الذي يستمع إلى الهدى ، وفقد العقل الذي يقود إلى الحق ﴿ فاعترفُوا بذَنْبِهم فَسُحْقاً لأصحابِ السعير ﴾ .

« إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة السابعة (٢٠٨) .

يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول وأدق تعبير ، وأجمله وأحياه أيضاً ! مع التناسق العجبي بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو .

ومع جمال التعبير نجد دقة الدلالة في آن واحد ، بحيث لايغني لفظ عن لفظ في موضعه ، وبحيث لايجوز الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال ، ويبلغ من ذلك كله مستوى لايدرك إعجازه أحد ، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً ، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال ، ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً »[1] .

نعم لقد تكلم سيد قطب في كثير من المناسبات في تفسيره « الظلال » ، وفي كتابيه : « التصوير الفني في القرآن » ، « ومشاهد القيامة في القرآن » تكلم عن الإعجاز وتحدّث عن ملامح الجمال والإبداع في النصوص القرآنية ، ولكنه لم يكن حديثه عن الإعجاز إلا ضمناً ، حيث كان يلحّ على هذه السمات ، وأنها من أبرز ملامح النص القرآني ، كالجمال في الأداء والدقة في التعبير والتناسق في الجزئيات والتصوير ، وهو الذي كان يراه الحصن الحصين في جمال وروعة التعبير ، ولذا عقد لهذا المبحث كتابه : « التصوير الفني في القرآن » .

تعليق على ما ارتآه سيد قطب في الإعجاز :

وبذا نستطيع أن نقول من خلال استقرائنا لما كتبه سيد قطب : إنه كان يرى الإعجاز في التصوير القرآني الذي لم يسبق له مثيل والذي يبرز كظاهرة واضحة في أسلوب القرآن بشكل عام وفي التعبير عن مشاهد الدنيا والآخرة بوجه خاص ، حيث المشاهد القرآنية المتحركة والماثلة أمام العيان تراها العين ، وتتمثلها الأذهان شاهدة مع التناسق في الجزئيات .

كما يرى الإعجاز في التكرار القصصي للقرآن .

كما يرى الإعجاز في الأداء المعبر والتشريعات التي حواها القرآن

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ الجزء الثالث ـ الطبعة العاشرة ـ (١٧٨٧) .

حتى كان الدستور الخالد المنظم لشؤون الحياة . . .

ومن هنا يتضح لنا جلياً أن الإمام سيّد قطب في تناوله لقضية الإعجاز القرآني . . . قد حرص على أنِ يركز على جانبين في هذا الإعجاز العظيم ، هما جانب الإعجاز البياني في أسلوب القرآن الكريم ، وجانب الإعجاز في الهداية والإرشاد .

وهما لب إعجاز القرآن وثمرته .

أخيراً ومن خلال العرض المستفيض لنظرية الإعجاز في آراء السابقين واللاحقين لاحظنا العديد من النظرات التي تظهر عظمة هذا الكتاب الخالد .

كما رأينا أن هناك نظريات قد استجدت لم تكن معروفة من قبل ، كنظرية الإعجاز العلمي ، والنظرة إلى الأمور العلمية وما فيها من قدرة كونية تدل على وحدانيّة الخالق وإعجاز القرآن الباهر كما نحس مدى التركيز على الأمور الغيبية كظاهرةٍ إعجازية فريدة تستلزم اليقين والتصديق بقدرة الواجد المبدع . . .

علاوة على أنه قد نجم الكثير من العلماء المحدثين الذين أشبعوا ظاهرة الإعجاز في القرآن بحثاً واستقراء واستقصاء بأسلوب مسهبٍ بديع لايخلو من التذليل ، فذخرت المكتبات بجم غفير من هذه البحوث في خدمة كتاب الله العزيز وكانت نوراً على نور . . .

تعريف بالشيخ محمد متولي الشعراوي

هو الشيخ محمد متولي الشعراوي أحد العلماء الأفذاذ الذين نجموا بمصر في القرن الرابع عشر .

ولد سنة ١٩١١م بقرية دقادوس من محافظة الدقهلية ، وهذه القرية تعد الآن جزءاً من مدينة ميت غمر من الناحية الشرقية .

درس في الأزهر وتخرج من كلية اللغة العربية ١٩٤٦ م

عمل مدرساً بالأزهر ، ثم أعير إلى جامعة أم القرى بمكة .

وظل يتنقل في مختلف المناصب طيلة حياته حتى أسندت إليه وزارة الأوقاف ، فعمل بها وزيراً في مصر مدة وجيزة ، ثم تفرغ للتدريس وإلقاء المحاضرات والدعوة إلى الله .

ولايزال شيخنا أمده الله بالعمر الطويل يتمتع بصحة وافرة حتى يومنا هذا ومستمراً في أداء رسالته .

الشيخ محمد متولي الشعراوي ورأيه في الإعجاز

إذا ما أمعنا النظر في الإعجاز لدى الشيخ محمد متولي الشعراوي نجد أنه ينظر إلى الإعجاز من عدة زوايا :

فهو يرى الإعجاز في القرآن من حيث تمزيقه لحواجز الغيب الثلاث : حاجز الماضي ، والمكان ، والمستقبل .

حاجز الماضي في إخباره عن أمور حدثت في الماضي ، وهي في ضمن المغيبات لأنها غير مشاهدة للسامعين ، فكونها تتحدث عن الزمن الماضي وتحكي ماحدث فيها بأحاديث هي الحقائق الدامغة ، والتي تعدّ حجّة على أهل الكتب السابقة ، لما فيه من تصحيح لما حرّف وبدل منها .

وكأن سيدنا رسول الله ﷺ يتحدّى أحبار اليهود ورهبان النصارى ويقول لهم : هذا القرآن هو من عند الله ، وهو يصحح لكم مابدّلتم وماحرفتم في الكتب السماويّة المنزلة .

الأمر الثاني : تمزيقه لحاجز المكان في إخباره عن أدق أسرار النفس الإنسانية ومايعتمل في خباياها ، وما تضمر في داخلها ، وكأنه يقول لهؤلاء المخاطبين : إني أحدثكم عما يدور في أنفسكم ، ولا يستطيع أي بشر أن يحدثك عما يدور بداخلك إلا إذا كان يطلع على هذا بوحي من اللطيف الخبير ، وهذا لايتأتى إلا من نبي .

ثم نجد هؤلاء المخاطبين يقرون ويسلمون بما يخبرهم به القرآن ، وكأنهم يؤكدون صدقه ويسلمون له بما يقول .

فالقرآن هنا لايقول لهم : لقد هتكت حاجز الماضي ، وأخبرتكم بأنباء الأولين ، ولايقول لهم : سأهتك حاجز المكان وأخبركم بما يدور في بقعة قريبة لاترونها ، بل يقول : سأهتك حاجز النفس وأخبركم بما في أنفسكم ، بما في داخل صدوركم . . . بما لم تهمس به شفاهكم ، فهل هناك أكثر من هذا تحدّياً . . . لحجاب المكان ؟ . . . إنه تحدّ فوق قدرة كل الاختراعات البشرية التي وصل إليها العلم الآن لاختراق حجب المكان . . .

بل إن التحدّي ظهر فيما يحرص غير المؤمنين على خفائه ، فالإنسان حين يحرص على إخفاء شيء ، ويكون غير مؤمن به ، يأتي إليك فيحلف لك بأن هذا صحيح ، وهو غير صحيح في نفسه فقط ، ولكن حرصه في أن يخفيه على الناس يجعله يؤكد أنه صحيح بالحلف .

ويأتي القرآن فيمزق مايعتمل بداخل نفوس هؤلاء ويظهر مافيها إمعاناً في التحدّي ، ويقول سبحانه : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة : ٤٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة : ٩٦) .

وهكذا جاء القرآن لأناس غير مؤمنين ، وهتك حاجز النفس بالنسبة لهم ، فأخرج ما في صدورهم ، وعرّاهم أمام الناس جميعاً وفضح كذبهم ، ونشر على الدنيا كلّها مافي صدورهم من كذب ورياء ونفاق ، أي : أهانهم أمام المجتمع كله[1] .

وأما الحاجز الثالث : فهو حاجز المستقبل . لقد أخبرنا القرآن في أدقّ تفاصيل عما يمكن أن يحدث في المستقبل في أحداثٍ قريبة الوقوع ، وبعضها بعيد الوقوع .

فما الذي حمله على ذلك إلا أنه تنزيل من حكيم حميد عالم بالسرّ وأخفى ، لقد حدّثنا القرآن عن غزوة بدر بادقّ تفاصيلها ، وعن انتصار المسلمين فيها وهم قلة على المشركين وهم كثرة .

والمسلمون في مكة لم يهاجروا بعد إلى المدينة ، وكانوا مغلوبين على أمرهم بين مخالب كفار قريش ، فإذا بالقرآن يفاجئنا فيقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر : ٤٥) .

حتى إن سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : « أيّ جمع هذا الذي سيهزم ونحن لانستطيع أن نحمي أنفسنا » .

ليس ذلك فحسب .

---

(١) المنتخب من تفسير القرآن ـ للشيخ محمد متولي الشعراوي ـ الجزء الأول (١٦ ـ ١٧) الناشر : دار النصر ـ بيروت .

بل حتى إن بعض الكفرة المعاندين أشار القرآن إلى حضورهم المعركة وأنهم سيقتلون وحدد مصارعهم وموقع الضربة أين ستكون .

هذا الوليد بن المغيرة يقول القرآن عنه : ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ (القلم : ١٦) ويجرح أنفه يوم بدر ويبقى أثر الجرح فيه بقية عمره .

من الذي يستطيع أن يحدّد موقع الضربة ، ومكانها ، ومن الذي يستطيع أن يجزم ماذا سيحدث بعد ساعة واحدة ، فضلاً عن معركة تحدث بعد زمن ، وتكون من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي ، وتحدد أبعاد عقيدة واتجاه رسالة ومصير أمة .

إن الذي قال هذا هو القادر العالم بأن ذلك سيحدث يقيناً وهو الله سبحانه وتعالى .

ويرى الشيخ الشعراوي أن للقرآن ثلاث مزايا امتاز بها على سائر الكتب المنزلة وعلى سائر المعجزات ، هذه المزايا :

أولاً : أن معجزة القرآن معجزة عقلية باقية خالدة .

لماذا ؟ لأنها معجزة للعالم وليست خاصة بأمة من الأمم أو جنس من الأجناس ، فهي باقية ببقاء الحياة وهذه الدار .

ومن هنا فإن العالم لايفتأ يجد فيها مايسدّ نهمته ويشبع جوعته في شتى آفاق الحياة ، فهي مأدبة الله في الأرض ، فتعلّموا من مأدبته . . .

أما باقي معجزات الأنبياء فهي معجزات حسية مادية تنتهي بمجرد انتهاء عرضها .

خذ معجزة سيدنا موسى عليه السلام وهي العصا : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف : ١٠٧ والشعراء : ٣٢) ، واليد : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ (الأعراف : ١٠٨ والشعراء : ٣٣) .

إن معجزات موسى عليه السلام ، وهي كثيرة جداً أثبتت صدق موسى عليه السلام في رسالته ، لأن قومه قد برعوا في السحر ، فجاءهم بأمر خارق للعادة وهو العصا التي انقلبت حيّة ، فإذا هي تلقف ما يأفكون ، فإذا بالأمر خارج عن نطاق السحر ، وإذا به يفوقهم في جنس مابرعوا فيه وليس منه . . . من هنا خر السحرة ساجدين : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ

سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ (الشعراء : ٤٦ ، ٤٨) .

إنها معجزة كونية حسية جاءت فأثبتت صدق موسى عليه السلام فيما جاء به ، ومن رآها فقد آمن بها ، ومن لم يرها صارت عنده خبراً إن شاء صدّقه وإن شاء لم يصدقه ، ولو لم يحدثنا القرآن عنها لكان من الممكن أن يقال فيها مايقال !!

وهكذا نجد أن المعجزة الحسية تقع مرة واحدة ، ومن رآها فقد صدّقها ، ومن لم يرها فقد أصبحت لديه خبراً بعد ذلك .

الأمر الثاني : المعجزة القرآنية منهج ودستور ، ففي الوقت الذي جاء فيه القرآن كمعجزة لرسول الله ﷺ دالّة على صدقه فيما جاء به من عند الله سبحانه ، وجاءت من جنس مابرع فيه قومه الذي برعوا في صناعة الكلام ، ومع ذلك أقروا بالعجز وظلّوا مبهورين أمام بلاغة هذا القول وإعجازه .

ثم نجد المعجزة القرآنية هي نفس المنهج والدستور ، وظلت المعجزة محفوظة ببقاء المنهج ، والمنهج قد تكفل الله بحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

وهكذا اكتسبت هذه المعجزة الحفظ والخلود ، واكتسبت هذه الأمة تساويها في تمثل المعجزة منذ بزوغ فجر الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما معجزات بقية الأنبياء فإن المعجزة منفصلة عن المنهج ، فمعجزة سيدنا موسى عليه السلام العصا واليد ، ومنهجه التوراة .

ومعجزة سيدنا عيسى عليه السلام الطب ، فكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله سبحانه ، ومع ذلك فمنهجه هو الإنجيل .

وهكذا كلّ نبي نجد معجزته مباينة لمنهجه ، إلا المعجزة الكبرى : القرآن ، فإن المنهج هو المعجزة .

أما الأمر الثالث : فإن معجزة النبي ﷺ صفة من صفات ربّ العزة والجلال ، وهي صفة الكلام ، والصفة باقية ببقاء الموصوف وهو عظيم الجاه .

وبقية المعجزات أفعال للمولى ، وفعل المولى من الممكن أن ينتهي بعد أن يفعله المولى سبحانه ، كالبحر الذي انشقّ لموسى عليه السلام ثم عاد إلى طبيعته الأولى ، والنار التي لم تحرق الخليل عليه السلام ، ولكنها عادت إلى خاصّيتها من الإحراق بعد ذلك .

كذلك يرى الشيخ محمد متولي الشعراوي من مظاهر الإعجاز القرآني مطابقته لما توصل إليه العلم في العصر الحديث من نظريات وبحوث واكتشافات . . . وأن ماجاء في القرآن الكريم من أخبار غيبية بدأت تتجلّى وتظهر آثارها بدقة في إنجازات العلم وبحوثه في العصر الحديث ، وأن هناك حقائق كونية لم تكن معروفة من قبل ، جاء القرآن متحدّثاً عنها من قبل أربعة عشر قرناً من الزمان لتظهر آثارها جليّة في العصر الحديث .

الجانب التطبيقي لدى الشيخ الشعراوي

وبعد أن حدّد الشيخ محمد الشعراوي مظاهر الإعجاز القرآنية نراه يطبق مثل هذه المعالم في تفسير آيات الذكر الحكيم فيما يتعلّق بصدق أخباره عن أحداث المستقبل القريب أوالبعيد ، قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ (المسد : ١ ، ٥) .

هذا قرآن ، وفي من ؟ في عم الرسول ﷺ ، وفي من ؟ في عدو الإسلام . ألم يكن أبو لهب يستطيع أن يحارب الإسلام بهذه الآية ، ألم يكن يستطيع أن يستخدمها كسلاح ضدّ القرآن ، ضدّ هذا الدين ؟ قالت له الآية : يا أبا لهب ، أنت ستموت كافراً ، ستموت مشركاً ، وستعذّب في النار ، وكان يكفي أن يذهب أبو لهب إلى أيّة جماعة من المسلمين ويقول : أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، يقولها نفاقاً ، ويقولها رياء ، يقولها ثم يقف وسط القوم يقول : إن محمداً قد أنبأكم أنني سأموت كافراً ، وقال : إن هذا كلام مبلغ له من الله ، وأنا أعلن إسلامي لأثبت لكم أن محمداً كاذب . لو كان أبو لهب يملك ذرة واحدة من الذكاء لفعل هذا ، ولكن حتى هذا التفكير لم يجرؤ عقل أبي لهب على الوصول إليه ، بل بقي كافراً مشركاً ، ومات وهو كافر ، ولم يكن التنبؤ بأن أبا لهب سيموت كافراً ، أمراً ممكناً ، لأن كثيراً من المشركين اهتدوا إلى الإسلام كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب وغيرهم رضوان الله عليهم ، كانوا مشركين وأسلموا ، فكيف أمكن التنبؤ بأن أبا لهب بالذات لن يسلم ولو نفاقاً ، وسيموت وهو كافر ، المعجزة هنا أن القرآن قد أخبر بما سيقع من عدوّ ، وتحداه في أمر اختياري ، كان من الممكن أن يقوله ، ومع ذلك هناك يقين أن ذلك لن يحدث ، لماذا ؟ لأن الذي قال هذا القرآن يعلم أنه لن يأتي إلى عقل أبي لهب تفكير يكذب به

القرآن ، هل هناك إعجاز أكثر من هذا ؟![1] .

أوليس هذا الإعجاز القرآني يَدْفَعُ إلى أن يستمسك الناس بهذا الحبل المتين ويخرون للأذقان سجداً وهم خاشعون خاضعون لله رب العالمين ؟

أما من حيث الحقائق التي أثبتتها الكشوف العلمية اليوم والتي تحدث عنها القرآن ، فعلم الأجنّة علم تكوين الجنين في بطن أمه ، هل تناول أحد هذه المسألة قبل القرآن أو عصر القرآن أو بعده بفترة ؟ أبداً ، أول من تحدّث عنها هو القرآن وأعطاني ماهو غائب عني .

لأن خَلقي هو غَيْبٌ عني ، فكون الله سبحانه وتعالى يأتي في قرآنه ويعطيني مراحل تكوين الجنين ، فهذه آية من آيات عظمته وقدرته وعلمه ، يقول الله سبحانه في أطوار الجنين : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ١٢ ، ١٦) .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) المنتخب من تفسير القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي - الجزء الأول (١٩ - ٢٠) الناشر : دار النصر - بيروت .

مات أبو لهب أثناء غزوة بدر الكبرى في مكة أصيب بمرض العدسة (الجدري) فقضى عليه ودفن في جرول ، وكان قد انتدب من يحضر الغزوة بدلاً عنه .

وأما امرأته أم جميل حمالة الحطب فهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه حتى أنه في مداعبة بين معاوية وعقيل بن أبي طالب رضي الله عنهما جرت ، يقول معاوية للمجلس : هذا عقيل وعمه أبو لهب ، فرد عليه عقيل : وهذا معاوية وعمته حمالة الحطب .

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (الحج : ٥ ، ٧) .

وعلم الأجنة ماعرفه الناس إلا حديثاً ، والقرآن كما قلت كلام متعبّد بتلاوته لاتبديل فيه ولاتغيير ، أي إن القضية التي يذكرها ستبقى كما هي إلى آخر الدنيا ، فعندما يأتي القرآن ويخبر بهذا فكأنه يتحدّى العلم والعلماء إلى يوم القيامة يقول لهم : هذا هو تكوين الجنين في بطن أمه ، وأنا أذكره لكم وأذكر مراحله بتفصيل لم يشهده أحد من البشر حتى ساعة نزول هذا القرآن ولا حتى بعد نزوله بمئات السنين ، ولكني أسجله لتعلموا عندما أعطيكم من العلم ماتستطيعون به معرفة أطوار الجنين لتعلموا أن القائل هو الخالق ، لأنه لايمكن لأحد أن يقول هذا الكلام ، وأن يتحدّى بصحته على مر العصور ، وأن يخترق الحجب ليروي شيئاً لم تكن البشرية تعرفه أو تعلم به ، إلا أن يكون ذلك هو الله ، وإلا فكيف يأمن أيّ إنسان ، أيّ بشر مهما بلغ من العلم ، كيف يأمن أنه بعد عشرات السنين أو مئات السنين ، لن يأتي مايناقض هذا الحديث ومايثبت عدم صحته ؟!

فإذا لم يكن الحديث هنا من الله ، وإذا لم يكن عن يقين كامل ، فكأن القرآن قد أعطى معه وسيلة هدمه . كان يكفي أن يقول أي إنسان : إن القرآن يقول هذا عن أطوار الجنين ، وقد أثبت التقدم العلمي أنه غير صحيح ، كان يكفي أن يقال هذا ليهدم قضية الدين من أساسه ، ويكون القرآن قد أعطى الكفار أقوى سلاح يهدمونه به .

فالذي كشف علم الأجنة متأكد تماماً أن مايقوله هو الحق ، وأن تطور العلم مهما جاء فإنه لن يأتي ليناقض هذا الكلام ، وقد أثبتت أحدث البحوث عن الجنين صحة ماذكره القرآن منذ أربعة عشر قرناً ، ولم تختلف عنه في أي تفصيل من التفصيلات رغم أن هذا كان أمراً غيبياً وأمراً لم يتحدث عنه أي إنسان قبل أن يأتي القرآن . . .[1]

كذلك يقول تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ

(١) المنتخب من تفسير القرآن ـ للشعراوي ـ الجزء الأول (٢٩) .

﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ، (الروم : ١-٥) ويتحقّق ما أخبر به الله .

وتمضي آيات القرآن تمعن في التحدي فتقول : ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الروم : ٦) .

ماهذا ؟ أيستطيع محمد ﷺ أن يتنبأ بنتيجة معركة ستحدث بين الروم والفرس بعد بضع سنين ؟ هل يستطيع قائد عسكري مهما بلغت قوته وعبقريته ونبوغه أن يتنبأ بمصير معركة عسكرية بعد ساعة واحدة من قيامها ؟ فما بالك أن ذلك يأتي ويقول : إنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم .

هل أمن محمد ﷺ على نفسه أن يعيش بضع سنين ليشهد هذه المعركة ، ولقد وصل الأمر بأبي بكر - رضي الله عنه - أن راهن على صحة ماجاء به القرآن .

إذاً فقد أصبحت قضية إيمانية كبرى ، هذا هو القرآن . . . كلام الله ، وأساس الإيمان كلّه ، يأتي ويخبر بحقيقة أرضيّة قريبة ستحدث لغير العرب ، ويقول الكفار : إن القرآن كاذب ، فيقول المؤمنون : إن هذا صدق ويحدث رهان بين الاثنين .

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه لم تحدث معركة بين الروم والفرس ، أو لو أنه حدثت معركة وهزم فيها الروم ؟ أكان بعد ذلك يصدق أي إنسان القرآن ، أو يؤمن بالدين الجديد ، ثم إذا كان القرآن من عند محمد ﷺ فما الذي يجعله يدخل في قضية غيبية كهذه لم يطلب منه أحد الدخول فيها أيضيع الدين من أجل مخاطرة لم يطلبها أحد ولم يتحده فيها إنسان .

ولكن المتكلم هوا لله والفاعل هو الله ، ومن هنا كان هذا الأمر الذي نزل في القرآن يقيناً سيحدث ، لأن قائله ليس عنده حجاب الزمان وحجاب المكان ، ولا أي حجاب ، وهو الذي يقول مايفعل ، ومن هنا حدثت الحرب وانتصر الروم على الفرس فعلاً كما أخبر الله تعالى[1] . . .

أوليس في هذا الإخبار الصادق الذي انطلقت به آيات الله المحكمات

---

(١) المنتخب من تفسير القرآن - للشيخ الشعراوي . الجزء الأول : (٢٠ - ٢١) .

مايثير في النفوس بواعث الإيمان واليقين بصدق هذا الذكر الحكيم وصدق قائله ، ثم بصدق المؤيد به وهو محمد ﷺ ليكون هداية ورحمة للعالمين ؟

وفي موقف آخر يقول تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (النساء : ٥٦) .

هذه الآية عن الكفار يوم القيامة ، والهدف منها هو أن يقول الله عز وجل : إن العذاب سيستمر في الآخرة ، وكانوا يقولون إن مراكز الإحساس موجودة في المخ ، وأن الجلد ليس فيه مراكز إحساس ، كان هذا هو الحديث حتى فترة وجيزة ، أما أثناء نزول القرآن فلم يكن أحد يعرف شيئاً عن ذلك على الإطلاق ، فيأتي الله سبحانه وتعالى ويقول : ﴿ كلما نضِجتْ جلودُهم بدّلناهم جلوداً غيرَها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكِيماً ﴾ .

فكأن العذاب له صلة بالجلد ، والإحساس بالعذاب يأتي من الجلد ، ثم يكتشف العلم أخيراً أن مراكز الإحساس بالألم[١] موجودة فعلاً في الجلد ، وهي التي تحسّ العذاب .

ويقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل : ٧٨) .

كأن وسائل الإدراك تعطيني ، أنا خرجت من بطن أمي لا أعلم شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة يبقى كم وسائل العلم ؟ ثلاثة الحواس المركزة في أمهات الحواس التي هي السمع والبصر (وبعدين)[٢]

---

(١) المنتخب من تفسير القرآن الكريم ـ للشيخ محمد متولي الشعراوي الجزء الأول (٣٠) الناشر : دار النصر بيروت لبنان .

(٢) (وبعدين) مثل هذه الكلمة وغيرها من الكلمات العامية التي جاءت عرضاً في كلام الشيخ الشعراوي أثناء حديثه عن إعجاز القرآن ، كان أولى بها أن تكتب فصيحه في الكتاب الذي تحدث عن الإعجاز نقلاً عن الشيخ الشعراوي ، وهو كتاب « المنتخب من تفسير القرآن الكريم » . وواضح أن الشيخ الشعراوي كان يلجأ أحياناً إلى مثل هذه الكلمات العامية لتوضيح مراده لبعض جمهور العامة الذي كان يشارك في حضور هذه المحاضرات عن القرآن وإعجازه .

وكان ينبغي أن يقال بدلاً من كلمة (بعدين) كلمة (ثم) وكذا كلمة (يبقى لازم فيه) فيما يأتي من كلام وفصيحه (إذن لا بد أن تكون هناك) وهكذا . . =

الأفئدة التي تفقه المعاني والترتيب هكذا ترتيب طبيعي دائماً .

كأن الله سبحانه أخرجنا من بطون أمهاتنا لانعلم شيئاً ، ثم جعل لنا السمع يعني الله يمتن بأنه أخرجنا لانعلم شيئاً ثم علمنا ، لم يقل ثم علمتم ، جاء بأدوات العلم ﴿ وجعلَ لكمُ السمعَ والأبصارَ والأفئدة لعلَّكم تشكرون ﴾ ماذا نشكر ؟

إذن لابد أن تكون هناك نعمة حصلت بهذه الوسائل ، وهي نعمة العلم ، وإذن فكأن الحقّ يقول : ﴿ والله أخرجَكُم من بطونِ أمّهاتكم لاتعلَمون شيئاً ﴾ ، ثم علّمكم بأن خلقَ لكم وسائلَ العلم متطورة مع أعماركم العقلية ، فمرّة يكون علمكم من السماع ، ومرة يكون علمكم بالرؤية ، ومرة يكون علمكم بالاستنباط من المسموع فتستنتجون منه معلوماتكم ، فلعل هذا يجعلكم حين تعرفون هذه المعلومات بتلك الوسائل تشكرون الله ، لأن الشكر لا يكون إلا عن وجود نعمة .

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلّم عن وسائل العلم قال : السمع والبصر والفؤاد . . .

وقلنا : هذا كلام منطقي مع علم وظائف الأعضاء ، . لأنهم أثبتوا لنا حاسة السمع هي أول حاسة تؤدي مهمتها في الإنسان عندما تأتي للوليد الصغير وتجعل أصبعك أمام عينه لايطرف ، لأنه لم ير شيئاً ويبقى على ذلك ثلاثة أيام ، ثم تؤدي مهمتها ، لكنك لو صرخت بجانبه صرخة ينفعل ، فمعنى ذلك أن الأذن أدّت مهمّتها قبل العين ، ففي الآية إذن ترتيب منطقي أن يكون السمع والبصر هذا باستمرار في القرآن كله السمع والبصر ، بهذا النظام ، وأيضاً فإن السمع هو الوسيلة الأولى لتلقّي العلم حتى المرئي لك بالعين ، أنت لاتقرأ إلا إذا تعلمت فن القراءة فتعلم أن هذا (ألف) وهذا (باء) . . . إذاً فلا بدّ قبل أن تقرأ بعينك أن تسمع ، وإن لم تسمع فإنك لن

= ولذا كان الأولى أن يراعي طابع الكتاب مثل هذا الأسلوب عند طبعه حتى يتفق مع جمال وجلال القرآن ، وليستطيع كل قارىء أن يقف على المعنى المراد .

على أني تجنبت في حديثي عن كلام الشيخ الشعراوي مثل هذه الالفاظ فأوردت ما يقابلها بالفصحى .

تعرف[1] .

وتأتي الدنيا كلّها . . . فتتهم النساء بأن لهن دخلاً في أن يلدن إناثاً[2] ويلدن ذكوراً ، ويخبر الله سبحانه أنه خلق الإناث والذكور من نطفة الرجل ، وليس للمرأة دخل في ذلك ، ثم يأتي العلم أخيراً ، ويكتشف هذه الحقيقة الكونيّة ، ويعلن أن عنصري البشرية الذكر والأنثى موجودان معاً في الرجل ، وأن تحديد النوع يأتي من الرجل وليس للمرأة دخل فيه ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ (القيامة : ٣٩) أي : من نطفة الرجل لا من بويضة المرأة وإلا لقال (منها) (فخلق منها) وإنما قال : ﴿ فجعل منه ﴾ .

إذا أخذنا التراب . . . ثم نضيف إليه الماء ليصبح طيناً ، ثم يترك لتتفاعل عناصره فأصبح حماً مسنوناً كالذي يستخدمه البشر في صناعاتهم ، ثم يجف فيصبح صلصالاً ، هذه أطوار خلق الجسد البشري ، والبشر تمّ خلقهم من الطين ، من الأرض ، فإذا جئنا للواقع فلنسأل أنفسنا : الإنسان مقومات حياته من أين ؟

من الأرض . . . من الطين ، هذه القشرة الأرضية الخصبة هي التي تعطي كلّ مقومات الحياة التي أعيشها ، إذن فالذي ينمي المادة التي خلقت منها هو من نفس نوع هذه المادة وهي الطين .

ولقد حلل العلماء جسد الإنسان فوجدوه مكوناً من ستة عشر عنصراً أوّلها الأوكسجين وآخرها المنجنيز ، والقشرة الأرضية الخصبة مكونة من

---

(١) المنتخب من تفسير القرآن الكريم للشيخ محمد متولي الشعراوي الجزء الأول (٧٧ـ ٧٨) .

(٢) المنتخب من تفسير القرآن للشعراوي الجزء الأول (٣١) .

وهنا حكمة إلٓهية حيث حفظ المولى عز وجل للمرأة المهيضة الجناح حق بقاء الزوجية ، لأن الرجل حينما يعلم بأن المرأة لا دخل لها في هذه العملية وأن السبب منه فلن يفكر في الإساءة إليها حتى ولو ساورته النفس الأمارة فسوف يتراجع . وإلى زمن قريب كان الرجل يشك في علاقة المرأة بالنوع فمن كانت تلد له البنات كان يقدم على تطليق زوجته أو يتزوج عليها رغبة في الحصول على الذكور من غيرها ، فجلى القرآن الحقائق وحفظ للأسرة كيانها .

نفس العناصر ، إذن عناصر الطين المخصب هي نفس عناصر الجسم البشري الذي خلق منه ، هذا أول إعجاز .

وهذه تجربة معملية لم يكن هدفها إثبات صحة القرآن أو عدم صحته ، ولكنها كانت بحثاً من أجل العلم الأرضي .

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من الموت دليلاً على قضية الخلق فالموت نقيض للحياة ، أي : أن الحياة موجودة وأنا أنقضها بالموت ونقض كل شيء يأتي على عكس بنائه ، فإذا أردنا أن نبني عمارة نبدأ بالدور الأول ، وإذا أردنا أن نهدمها نبدأ بالدور الأخير ، إذا وصلت إلى مكان وأردت أن أعود أبدأ من آخر نقطة وصلت إليها ، إنها تمثل أول خطوة في العودة ، ونحن لم نعلم عن خلق الحياة شيئاً ، لأننا لم نكن موجودين ساعة الخلق ، ولكننا نشهد الموت كل يوم ، والموت نقض للحياة ، إذ هو يحدث على عكسها ، أول شيء يحدث في الإنسان عند الموت أن الروح تخرج ، وهي آخر مادخل فيه أول شيء خروج الروح ، إذاً آخر شيء دخل الجسم هو الروح ، ثم تبدأ مراحل عكس عملية الخلق ، يتصلّب الجسد ، هذا هو الصلصال ثم يتعفن فيصبح رمة ، هذا هو الحمأ المسنون . ثم يتبخر الماء من الجسد ويصبح الطين تراباً ويعود إلى الأرض .

إذاً مراحل الإفناء التي أراها وأشهدها كل يوم هي عكس مراحل الخلق ، فهناك الصدق في مادة الخلق ، والصدق في كيفية الخلق ، كما هو واضح أمامي من قضية نقض الحياة وهو الموت .

شيء آخر ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (الحجر : ٢٩ وص : ٧٢) ، ومعنى النفخ أي نفس ، أي أن هناك نفساً خرج من النافخ إلى المنفوخ فيه فبدأت الحياة تدب فيه ، ولذا تنتهي الحياة بخروج النفس ، فأنت إذا شككت في أن أيّ إنسان قد فارق الحياة يكفي أن يقال لك : إنه لايتنفس[1] ، لنتأكد يقيناً أنه مات إذ دخول الحياة إلى الجسد هو دخول هذا النفس مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ونفختُ فيه من روُحي ﴾ ، وخروجها هو خروج هذا النفس ، فالمسألة

---

(١) المنتخب من تفسير القرآن للشعراوي الجزء الأول (٢٧ ـ ٢٨) .

يقيناً كما قال الله سبحانه .

هذه الحقائق العلمية وغيرها التي أثارتها آيات الله المحكمات إنما هي إعجاز تخرّ له جباه أهل العلم والفكر في شتى مجالات العلوم ، وهي كفيلة بدورها أن تأخذ بأيدي الناس جميعاً إلى طريق الهداية والرشاد بعد أن أزالت عنهم غشاوة الجهل بحقائق هذا الكون الفسيح بما فيه ومن فيه ، وكان الذي يدعو إلى الدهشة والإعجاب حقاً أن هذا القرآن لم ينزل أصلاً ليكون كتاب طبّ أو تشريح ، أو كتاباً في علم الأجنة أو علم الفلك ، أو علم يبحث في طبقات الأرض مثلاً .

وإنما هو كتاب معجز آياته محكمات ، وكلّ مافيها يشير إلى عظمة الخالق في خلقه ، وعظمته في ملكه ، وعظمته في آياته الكونية ، وعظمته في آياته ، آيات الذكر الحكيم التي أنزلها الله لتكون وسيلة علم وهداية وإرشاد إلى الحق أينما كان ، ووسيلة إنذار بعذاب إليم إذا ما أصر الإنسان على الكفر والعناد وسلوك غير سبيل المهتدين .

وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (إبراهيم : ٥٢) .

تعليق على ما ارتآه الشيخ محمد متولي الشعراوي :

وهكذا يطالعنا الشيخ محمد متولي الشعراوي بوجهة نظره في الإعجاز ، والتي تبرز في حديث القرآن عن الغيب وتصديق الواقع ذلك ، وفي حديثه عن الأمور الكونية التي جاء العلم فأكدها في عصرنا الحاضر ، والواقع أن مسألة إعجاز القرآن بغيبياته أمر تحدث فيه العلماء وأفاضوا قديماً وحديثاً ، وإن كان تناول الشيخ لهذه الأمور قد جلّى ما أشكل في كثير الأمور ، ولا سيما في حديثه عن حواجز الماضي والحاضر والمستقبل ، وتعرضه لهذه المسألة تطبيقياً ، وفي محاولة ربطه الدقيق لهذه الآراء وأحداث القرآن .

كل ذلك في دعوة دقيقة للربط بين إعجاز القرآن في أسلوبه البياني ، وفي كونه كتاب هداية ورشاد .

الفصل الثالث

من دراسات المحدثين حول الإعجاز في القرآن

١ ـ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه :

« مناهل العرفان في علوم القرآن »

٢ ـ الشيخ محمد الصادق عرجون في كتابه :

« القرآن العظيم : هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين »

تعريف بالشيخ الزرقاني
وكتابه مناهل العرفان

الشيخ عبد العظيم الزرقاني من مواليد إحدى القرى بمحافظة الغربية بمصر من أسرة عريقة عرفت بالصلاح والتقوى . . . درس إلى أن أصبح أحد علماء الأزهر البارزين . . .

وقد امتاز بالنشاط العلمي والاجتماعي في المجال الإسلامي ، فكان رئيساً لجماعة التربية الإسلامية ، وعضواً بارزاً بجماعة جبهة علماء الأزهر .

له مؤلفات أشهرها هذا الكتاب العظيم : « مناهل العرفان في علوم القرآن » . كان أستاذاً للدراسات العليا بكلية أصول الدين . توفي في السبعينات من هذا القرن ، أي : منذ حوالي عشرين عاماً تقريباً رحمه الله[1] . أي بعد ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م تقريباً بسنوات قلائل .

---

(١) راجع في الترجمة كتاب الدراسات القرآنية المعاصرة - لمحمد عبد العزيز السديس - (٢٢٥) - طبعة ١٣٩٢ هـ - الطبعة الأولى .

الشيخ عبد العظيم الزرقاني ونظرته للإعجاز في كتابه « مناهل العرفان »

وممن اهتم بالقرآن وأولاه عناية فائقة الشيخ عبد العظيم الزرقاني في كتابه « مناهل العرفان في علوم القرآن » .

يقول : « إن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز ، من أجل هذين المطمحين نزل ، وفيهما تحدّث ، وعليهما دلّ ، فكلّ علم يتّصل بالقرآن من ناحية قرآنيّته ، أو يتّصل به من ناحية هدايته أو إعجازه ، فذلك من معلوم القرآن وهذا ظاهر في العلوم الدينيّة والعربيّة »[1] .

هذا والشيخ الزرقاني يرى الإعجاز من عدّة وجوه :

يرى الإعجاز في ألفاظ القرآن فيقول : « إن الإعجاز منوط بألفاظ القرآن ، فلو أبيح أداؤه بالمعنى لذهب إعجازه ، وكان مظنّةً للتغيير والتبديل ، واختلاف الناس في أصل التشريع والتنزيل »[2] .

كما يرى في نزوله مُنَجّماً مظهراً من مظاهر إعجازه : « إن في كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجّم معجزةً جديدة غالباً حيث تحدّاهم كلّ مرّة أن يأتوا بمثل نوبة من نوبات التنزيل ، فظهر عجزهم عن المعارضة ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت .

ولاشك أن المعجزة تشدّ أزره وترهف عزمه ، باعتبارها مؤيّدةً له ولحزبه ، خاذلة لأعدائه ولخصمه »[3] .

كما يرى في نزوله منّجماً على حسب الأحداث متدرّجاً مع التشريعات تدرّجاً حكيماً لتحقيق الغاية المرجوة إعجازاً بيناً للقرآن .

« التمهيد لكمال تحلّيهم بالعقائد الحقّة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة ، بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة . ولهذا بدأ الإسلام بفطامهم عن الشرك والإباحية ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ـ للإمام الزرقاني ـ جـ١ (٢٤) .
(٢) المرجع السابق (٥١) .
(٣) المرجع السابق (٥٤) .

والجزاء ، من جراء ما فتح عيونهم عليه من أدلّة التوحيد ، وبراهين البعث بعد الموت وحجج الحساب والمسؤولية والجزاء .

ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات ، فبدأهم بفرضيّة الصلاة قبل الهجرة ، وثنّى بالزكاة والصوم في السنة الثانية من الهجرة ، وختم بالحجّ في السنة السادسة منها وكذلك كان الشأن في العادات : زجَرهم عن الكبائر وشدّد النكير عليهم فيها ، ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق ، وتدرّج بهم في تحريم ماكان مستأصلاً فيهم كالخمر . . . تدرجاً حكيماً حقق الغاية ، وأنقذهم من كابوسها في النهاية ، وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطة المثلى أبعد نظراً ، وأهدى سبيلاً ، وأنجح تشريعاً ، وأنجع سياسة من تلكم الأمم المتمدّنة المتحضرة التي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أفظع إفلاس وفشلت أمرّ فشل . وماعهد أمريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد ؟

أليس ذلك إعجازاً للإسلام في سياسة الشعوب ، وتهذيب الجماعات وتربية الأمم ؟

بلى ، والتاريخ على ذلك من الشاهدين .

كما يرى الإعجاز في دقة السبك وقوة الاتصال[١] والترابط مع الاتساق بين أجزاء وأسلوب هذا الكتاب العظيم : « إن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره ، فإذا هو محكم السرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوي الاتصال ، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله يجري روح الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة ، ولايكاد يوجد بين أجزائه تفكّك ولا تخاذل ، كأنه حلقة مفرغة ، أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار : نظمت حروفه وكلماته ، ونسقت جمله وآياته ، وجاء آخره مساوقاً لأوله ، وبدا أوله مؤاتياً لآخره !

وهنا نتساءل : كيف اتسق للقرآن هذا التآلف المعجز ؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش ؟ على حين أنه لايتنزل جملة واحدة بل تنزل آحاداً مفرّقة تفرّق الوقائع والحوادث على أكثر من عشرين عاماً !؟

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ـ للزرقاني ـ جـ١ (٥٦ ـ ٥٧) .

الجواب : إننا نلمح هنا سراً جديداً من أسرار الإعجاز ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية ، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن ، وأنه كلام الواحد الديّان ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء : ٨٢) .

وإلا فحدّثني ـ بربّك ـ كيف تستطيع أنت ؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط ، متين النسج والسرد ، متآلف البدايات والنهايات ، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر هي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء كلّ جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها ومتحدثاً عنها : سبباً بعد سبب وداعية إثر داعية ، مع اختلاف بين هذه الداوعي ، وتغاير مابين تلك الأسباب ، ومع تراخي زمان هذا التأليف ، وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عاماً »[1] .

ويرى الزرقاني من مناحي الإعجاز تنوّع القراءات :

« وذلك ضرب من ضروب البلاغة يبتدىء من جمال الإيجاز وينتهي إلى كمال الإعجاز[2] . أضف إلى ذلك في تنوع القراءات من البراهين الساطعة ، والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله ، وعلى صدق ماجاء به وهو رسول الله ﷺ فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لاتؤدي إلى تناقض في المقروء أو تضاد ، ولا إلى تهافت وتخاذل بل القرآن كله على تنوع قراءاته يصدق بعضه بعضاً ، ويبين بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض ، على نمط واحد في علوّ الأسلوب والتعبير ، وهدف واحد من سموُ الهداية والتعليم ، وذلك من غير شك يفيد تعدّد الإعجاز بتعدّد القراءات والحروف ، ومعنى هذا أن القرآن يعجز إذا قرىء بهذه القراءة ، ويعجز أيضاً إذا قرىء بهذه القراءة الثانية ، ويعجز أيضاً إذا قرىء بهذه القراءة الثالثة ، وهلمّ جراً .

ومن هنا تتعدّد المعجزات بتعدّد تلك الوجوه والحروف !

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ـ لمحمد عبد العظيم الزرقاني ـ جـ١ (٦٠ ـ ٦١) .
(٢) مناهل العرفان ـ للزرقاني ـ جـ١ (١٤٩) .

ولاريب أن ذلك أدل على صدق محمد ﷺ لأنه أعظم في اشتمال القرآن على مناح جمة في الإعجاز وفي البيان ، على كل حرف ووجه ، وبكل لهجة ولسان .

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٤٢) .

كما ارتأى الإعجاز في الحروف التي جاءت في أوائل السور :

« إن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي ﷺ وهذا مما ترضاه النفوس . ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة ، وهذا النبي الأمي ﷺ قد نطق بها ، والذي في أول السور أربعة عشر حرفاً منها ، وهي كلها ثمانية وعشرون حرفاً ، إن لم تعدّ الألف حرفاً برأسه ، فالأربعة عشر نصفها .

وقد جاءت في تسع وعشرين سورة ، وهي عدد الحروف الهجائية إذا عدّت فيها الألف .

وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة وهي : « فحثّه شخص سكت » بنصفها وهي : الحاء والهاء والصاد والسين والكاف »[1] .

كذلك الإعجاز في نزول هذا الكتاب المقدس على رجل أمّي لايقرأ ولايكتب ، فبهر بفصاحته أهل الفصاحة والبيان .

« خصوصاً إذا لاحظت أن هذا الذي جاء بتلك المعارف الخارقة كان رجلاً أمياً ، نشأ وعاش وشبّ وشاب ، وحيّ ومات ، بين أمة أمية ، كانت لاتدري ما الكتاب ولا الإيمان »[2] .

وفي إخباره بالغيبيات وهي كثيرة : « اقرأ قوله سبحانه مخاطباً لنبيه في موقف من مواقف الخصومة والمحاجة بينه وبين أعدائه اليهود : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ٩٤ ، ٩٥) .

---

(١) مناهل العرفان ـ للزرقاني ـ جـ١ (٢٣٢) .

(٢) نفس المرجع (٨٢) .

وهذا من أبرز شواهد الإعجاز والتحدي[1] : إذ كيف يتسنى لرجل عظيم في موقف من المواقف الفاصلة بينه وبين أعدائه ، أن يجرؤ على تحدّيهم بشيء من شأنهم وحدهم ، وكان في استطاعتهم عادة بل في استطاعة أقل واحد منهم أن يقول ـ ولو ظاهراً ـ : « إني أتمنى الموت » ليظفروا بذلك التمني على محمد ﷺ ويُبطلوا بها دعوته ويستريحوا منه على زعمهم ، ولكن كل ذلك لم يكن ، فما تمنى أحد منهم الموت ، بل صرفوا ومازالوا مصروفين عنه أبداً . ثم سجل القرآن عليهم ماهو أبعد من ذلك إذ قال عقيب تلك الآية : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ٩٦) .

والإعجاز المتمثل فيما احتواه كتاب الله من أسرار بلاغية وبيانية :

« كذلكم القرآن قد شهد المتخصصون الفاقهون في اللغة العربية في أزهى عصور التوفر عليها والتمهر فيها ، أنه كتاب فاق الكتب ، وكلام بزّ سائر الكلام وبلغ في سموه وتفوقه حدود الإعجاز ، من ناحية الفصاحة والبلاغة وما يحمل منهما من أسرار ! ثم نقل إلينا ذلك كله نقلاً متواتراً قاطعاً لا ظل فيه للشك والنكران . . . »[2] .

وأخيراً الإعجاز العلمي في القرآن : « إن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم ، وفتح عيونهم إلى الكون ، وما في الكون من سماء وأرض[3] وبر وبحر ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ، ونواميس وسنن . وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقاً كل التوفيق ، بل كان معجزاً أبهر الإعجاز ، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها ، على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أمي ، نشأ في أمة أمية لاصلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمام لها بكتبها

---

(١) مناهل العرفان (٨٣) .

(٢) مناهل العرفان (٨٤) .

(٣) نفس المرجع (٢٥) .

ومباحثها ، بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال ، فأنى يكون لرجل أمي كمحمد ﷺ ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم ؟ قال سبحانه مقرراً لهذا الإعجاز العلمي : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩) .

ولعل من الحكمة أن نسوق نموذجين من القرآن على سبيل التمثيل :

أولهما في سورة النور إذ يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (النور : ٤٣) .

قل لي بربك : ألا يملكك العجب حين تقرأ هذا النص الكريم الذي يتفق وأحدث النظريات العلمية في الظواهر الطبيعية من سحاب ومطر وبرق ؟!

النموذج الثاني : يقول تعالى مبيناً كمال اقتداره على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ (القيامة : ٣ ، ٤) .

أرجو أن تقف قليلاً عند تخصيصه «البنان» بالتسوية في هذا المقام.

ثم نستمع بعد ذلك إلى هذا العلم الوليد « علم تحقيق الشخصية » في عصرنا الأخير وهو يقرر أن أدق شيء وأبدعه في بناء جسم الإنسان هو تسوية البنان ، حتى إنه لايمكن أن تجد بناناً لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال ، وقد انتهوا من هذا القرار إلى أن حكموا البنان في كثير من القضايا والحوادث ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون : ١٤) .

والله وحده هو المحيط بأسرار كتابه ، ولايزال الكون وما يحدث في الكون من علوم وفنون وشؤون لايزال كل ذلك يشرح القرآن ويفسره ، ويميط اللثام عن نواح كثيرة من أسرارِه وإعجازه مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

ثم يعقد الشيخ الزرقاني فصلاً يجعله جواباً لشبهة أثارها أعداء الله حيث يقولون : « إن إعجاز القرآن لايدلّ على أن القرآن كلام الله ، بل هو كلام محمد ﷺ نسبه إلى ربه ليستمد قدسيّته من هذه النسبة . وإعجازه جاء من ناحية أن محمداً كان الفرد الكامل في بيانه بين قومه ، لذلك جاء قرآنه الفرد الكامل أيضاً بين ماجاء به قومه ، ولم يستطيعوا لهذا الاعتبار وحده أن يأتوا بمثله ، شأن الرجل الفذّ بين أقرانه في كل عصر ! »[1] .

هذه الشبهة وقد اخذ الشيخ يفندها ويجيب عليها فيقول :

« إن كلّ من أوتي حظاً من حسن البيان وذوق البلاغة ، يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي فرقاً كبيراً ، يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق ، وها هما القرآن الكريم والحديث الشريف لايزالان قائمين بيننا يناديان بهذا الفارق البعيد . . . ولو كان لهذه الشبهة شيء من الوجاهة ، لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم بها هم أولئك العرب الخلّص الذين شافههم القرآن لأنهم كانوا أحرص الناس على تعجيز النبي وإسكاته . . . ولكنهم ماقالوا هذا ، بل كانوا أكرم على أنفسهم من أن يقولوه . . . »[2] .

ثانياً : « إن القرآن قد جاء الناس من أوسع الأبواب ، ودخل عليهم من طريق العرب الخلّص ذوي اللسن والبيان ، وتحدّاهم من الناحية البيانية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام ، تلك الصناعة البيانية الفائقة التي وقفوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم حتى صارت موضع تنافسهم وسبقههم . . .

ومن هنا نعلم والتاريخ يشهد أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد ﷺ ـ كما يقول أولئك الملاحدة ـ لأمكن هؤلاء العرب البارزين في البيان أن يعرفوا أنه كلامه ، بما أوتوا من ملكة النقد ، وما وهبوا من نباهة

---

(١) مناهل العرفان (٨٤) .

(٢) نفس المرجع (٨٥) .

الحس والذوق ، ثم لأمكنهم مجاراته ولو شوطاً قريباً إن لم يمكنهم مجاراته شوطاً بعيداً . لاسيما وأن القرآن قد اكتفى منهم في معرض التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل أقصر سورة منه . . .

ومعلوم أن النابغة الفذّ في أيّ عصر من العصور يستطيع أقرانه بيسر وسهولة أن يحاكوه مجتمعين أو منفردين في الشيء القليل أو الكثير ، على فرض أنهم لايستطيعون معارضته في الجميع أو في الشيء الكثير . . »[1] .

ثالثاً : « إن القرآن لو كان مصدره نفس النبي ﷺ لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه ولأمكن أن يدعي به الألوهية فضلاً عن النبوة ، ولكان مقدساً في نظر الناس وهو إلٰه ، أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبي ، ولما كان في حاجة إذاً إلى أن يلتمس هذه القدسيّة الكاذبة بنسبته القرآن إلى غيره ، فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً » ؟ ![2]

رابعاً : « إن هؤلاء الملاحدة غاب[3] عنهم أنهم يتحدّثون عن أكرم شخصيّة عرفها التاريخ طُهراً ونبلاً ، وذَهِلوا عن أنهم يمسّون أسمى مقام اشتهر أمانة وصدقاً . . . والعقل المنصف قال ولايزال يقول : ماكان هذا الأمين الصدوق ليذرالكذب على الناس ثم يكذب على الله « ولكن المنافقين لايعملون » .

خامساً : « إن هذه الشبهة[4] وليدة الغفلة عن المضامين العلمية للقرآن الكريم وأنبائه الغيبيّة وهداياته الخارجة عن أفق العادة في كافة النواحي البشريّة ، فرديّة كانت أو اجتماعية ، لاسيما أن الآتي بهذا القرآن رجل أمي في أمة أمية كانت حياتها من أظلم عهود الجاهلية ، أضف إلى ذلك ما سجل القرآن على النبي ﷺ من أخطاء في بعض اجتهاداته ، ومن عتاب تحس تارة بلطفه وأخرى بعنفه ، ولو كان هذا التنزيل كلامه ماسمح أن يسجل على نفسه ذلك كله ، ولكن الملاحدة سفهوا أنفسهم وزعموا على الرغم من هذه البراهين اللائحة أن محمداً افترى القرآن على ربه . كذبوا

---

(١) مناهل العرفان (٨٦) .

(٢) المرجع السابق (٨٦) .

(٣) المرجع السابق (٨٧) .

(٤) المرجع السابق (٨٧) .

وضلّوا .

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١) .

أقول : ومااشتمل عليه هذا الكتاب العزيز من أخبار جاءت مصدقة ومؤكّدة لما جاء في كتب أهل الكتاب كالتوراة والإنجيل « ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب » ، ورب العزّة والجلال يقول : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ (الحاقة : ٤٤ـ٤٦) .

ترجمة الشيخ محمد صادق عرجون

تاريخ الميلاد ومكانه ١٩٠٣ م في أدفو - محافظة أسوان ، حفظ القرآن في أدفو ، ثم التحق بالأزهر على النظام القديم (ابتدائي وثانوي وعالٍ) ومدّة كل مرحلة ٤ سنوات .

نال في المرحلة الأخيرة العالمية النظامية ، وكان ذلك سنة ١٩٢٩ م ، ثم التحق بالتخصص وحصل على شهادة التخصص سنة ١٩٣٥ م ومدة ذلك التخصص ٣ سنوات .

ثم عين مدرساً بالمعاهد الأزهرية .

ثم شيخاً لمعهد دسوق ، ثم شيخاً لمعهد أسيوط ، ثم شيخاً لعلماء الإسكندرية ، ثم عين مدرساً في كلية اللغة ، ثم مدرساً بكلّية أصول الدين ، ثم عميداً لكلية أصول الدين سنة ١٩٦٤ م ، لمدة أربعة أعوام .

عمله في البلاد الإسلامية :

١ ـ اختير مديراً لمعهد الدراسات العليا بأم درمان .

٢ ـ أستاذاً بالجامعة الإسلامية بالكويت .

٣ ـ أستاذاً زائراً في بني غازي بليبيا .

٤ ـ أستاذاً للدراسات العليا للحديث بجامعة أم القرى .

من أساتذته :

١ ـ الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق .

٢ ـ الشيخ إبراهيم الجِبالي وكان آخر مناصبه عميداً لكلية اللغة العربية بالأزهر .

ومن الأقطار الإسلامية التي زارها أوعمل بها :

١ ـ أندونيسيا ، وقد طاف بها دارساً وباحثاً ومحاضراً واجتمع بالكثير من علمائها .

٢ ـ السودان ، وقد عمل فترة من حياته بمعهد الدراسات العليا بأم

درمان ،

٣ ـ الكويت ، وقد عمل بجامعتها .

٤ ـ ليبيا ، وكان أستاذاً زائراً في بني غازي .

٥ ـ السعودية ، وكان أستاذاً للحديث بجامعة أم القرى في الدراسات العليا .

مؤلفاته :

١ ـ خالد بن الوليد .

٢ ـ عثمان بن عفان .

٣ ـ القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين .

٤ ـ التصوف .

٥ ـ موسوعة في سماحة الإسلام في جزئين .

٦ ـ حجة الإسلام الغزالي (الفكر الثائر) .

٧ ـ الأمة الإسلامية كما يريدها القرآن .

٨ ـ من رياض القرآن .

٩ ـ سنن الله في المجتمع من خلال القرآن .

١٠ ـ محمد رسول الله من نبعته إلى بعثته .

١١ ـ حرية الفكر الإسلامي .

١٢ ـ الأدب بين القديم والحديث .

١٣ ـ الدين منبع الإصلاح الاجتماعي .

١٤ ـ الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام .

١٥ ـ محمد رسول الله منهج ورسالة . بحث وتحقيق أصدر بعد وفاته .

تاريخ الوفاة : ١ من المحرم ١٣٩٨ هـ ، ١٢ من نوفمبر ١٩٨٠ م .

الشيخ محمد الصادق عرجون وإعجاز القرآن في هدايته

والشيخ الصادق عرجون ممن يرى الإعجاز كامناً في الهداية وأن الهداية في القرآن إعجاز باهر لايمكن أن يكون لها مثيل في أي كتاب آخر .

وقد تحدث عن هذا بإسهاب ، بل عقد له فصلاً في كتابه القيم : « القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين » .

يقول : وهذا الضرب من الإعجاز في الهداية هو لباب هدايات القرآن ، وزبدة رسالته لأنه يحقق المعاني الآتية :

أولا : حجّية القرآن لنفسه بوجوب اعتقاد صحة وصدق جميع ماجاء به من ضروب الهداية علماً وعملاً ، فهو بهذه الحجّية شاهد نفسه لنفسه .

ثانياً : حجيته على صدق من أرسل به النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ ووجوب متابعته في جميع ماثبت عنه من قول أو فعل أو تقرير[1] .

ومن ثم كان لابد لثبوت حجّية القرآن لنفسه ، وحجّيته على صدق من أنزل عليه وبعث به أن يثبت إعجازه لجميع الأمم والشعوب وكافة الأجناس على اختلاف ألسنتهم في جميع الأزمنة والأمكنة أفراداً وجماعات[2] .

كما يرى الإعجاز في الأسلوب والتفوق البياني يقول :

« فالتحدّي بالبراعة في الأسلوب والتفوق البياني وبلوغ الذورة البلاغية حتى لايلحق به في درجته وعلو طبقته أسلوب ، ولايساميه في مرتبته كلام ، ولاينافسه في براعته وفصاحته بيان » .

هذا التحدي لون من ألوان الإعجاز التي اشتمل عليها القرآن .

ويرى الإعجاز بالهداية ، وما اشتمل عليه من معانٍ ومقاصد تهدف

---

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين لمحمد الصادق عرجون (١٣٣) ط ١٣٨٦ هـ .

(٢) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ـ لمحمد الصادق عرجون (١٣٣) ط ١٣٨٦ هـ .

إلى هداية البشرية وإصلاح شأنها .

« وهناك مرتبة من مراتب التحدي وهداية الإعجاز جاءت نصاً في مناط التحدي وبياناً للجهة التي منها أعجز القرآن ويعجز جميع الذين تحداهم ويتحداهم من أبناء البشر قاطبة في كل زمان ومكان من كل جنس وأمة على اية درجة من العلم والمعرفة . . .

هذه الجهة هي التي سما بها القرآن إلى ذروة الفضل والإحسان ، وبها سبق فلا يلحق ، وانفرد محلقاً في آفاقها فلا يدرك ، وهي الجهة التي تحقق رسالته وخلودها لأنها خالدة بخلوده ، عامة بعموم رسالته ، ولاسيما في عالمنا المعاصر الذي فتن بالعلوم التجريبيةّ والمعارف الماديّة ، وفتن بجولات العقل في ظواهر الطبيعة وبعض حقائق الكون في الكوكب الأرضي الصغير المحدود .

وقد أعمته ظواهر الحياة المادّية عن النظر في القيم الروحية وهداية السماء ، فضلّ الطريق حتى كاد يهوي إلى منحدر لايعرف له نهاية . وفي القرآن الحكيم دواؤه لو وجد المهرة من الأطباء ، تلك الجهة هي الهداية ، وهي أساس دعوة القرآن ، وأصل أصوله[1] . عنها تفرعت جميع آدابه وشرائعه وبها قامت أركان علومه ومعارفه ، وعلى دعائمها نهضت حكمه وأحكامه ، فبها نزل ، وإليها قصد ، وهي الحقّ الذي أنزله الله به ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الإسراء : ١٠٥ ، ١٠٦) ، وهداية القرآن دروس في التربية للأفراد والجماعات والأمم والشعوب ، ودروس التربية إنما تكون على حسب الاستعداد والتقبل ، فلا تكون جملة ولابدّ فيها من التفصيل والتدرج .

ثم يورد الأمثلة التي تكشف عن أهمية الإعجاز والتحدي بالهداية :
قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

---

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين لمحمد الصادق عرجون (١٤٨ ـ ١٤٩) ط ١٣٨٦ هـ .

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (القصص : ٤٨ ، ٤٩) .

والذي نريد أن نلفت إليه النظر هنا هو أن الآية الأولى من هاتين الآيتين وردت على المعهود من موقف المعاندين للرسالة الإلٰهية من التعنت بعدم النظر فيما بين أيديهم من الآيات العقلية المعجزة الدالة على صدق من أرسل إليهم اقتراح آيات مادية سمعوا أنها أنزلت على الرسل قبل محمد ﷺ فهنا لمّا جاءهم محمد بالحقّ من عند الله قالوا متعنتين : هلا أنزل عليه من الآيات مثل ما أنزل على موسى ، من قلب العصا حيّة ، وفلق الحجر والبحر ، فردّ الله عليهم بأنهم لم يكونوا صادقي العزيمة في هذا الطلب ولم يطلبوه بإخلاص وجد وإنما هو محض تعنّت وعنادٍ ، لأنهم لم يؤمنوا بالذي أنزل على موسى وكفروا به ، ولما رأوه متوافقاً مع القرآن في أصول الهداية أشاحوا بأعطافهم وأنغضوا رؤوسهم وقالوا : توراة موسى وكتاب محمد ﷺ سحران تعاونا على الموافقة ، ثم سجّلوا على أنفسهم الكفر بهما فقالوا : ﴿ إنّا بكلٍّ كافرون ﴾ .

وهنا تجيء الآية الثانية على سنة القرآن ومعهود أسلوبه البديع ردّاً لتعنُّتهم وكسراً لشوكة عنادهم ، صارخة في وجوههم ، متحدّية ، والتحدّي هنا بالهداية ، ولكنها هداية لاينفرد بها القرآن الكريم بل يدخل فيها معه توراة موسى عليه السلام ، وهذا من أدل الدلائل على أن القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولاشك في أن هذه الهداية المعجزة قد أخذت أساليب شتى من أجل التأثير في النفوس . . .

ومن هنا كان الإعجاز أيضاً في أسلوب القرآن المتمكن وفي دقة الأداء[1] وبراعة القول ، واحتواء الموقف ، ومن البيان مايسحرك وتعجز عن التعبير عنه . . .

---

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ـ لمحمد الصادق عرجون ـ (١٥٨) ـ طبعة ١٣٨٦ هـ .

« ولعل هذه القوة الكامنة في أسلوب هذا الكتاب هي السرّ في إعجازه البياني ، ذلك السرّ الفني الذي يملأ الإحساس به نواحي الشعور الإنساني دون أن يستطيع أبرع الناس بياناً وأبلغهم عبارة ، وأنصعهم مقالاً التعبير عنها بعبارة محدودة مضبوطة بقواعد العلم ، ومن هنا قال السكّاكي رحمه الله : « إن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه »[1] .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (الغاشية : ٨ ، ١٦) .

أسلوب هامس ناعم مطمع ، ولفظ رقيق لين حلو ، وفواصل ذات إيقاع صوتي ورنين مبهج ، فمن من الناس الذين نالوا حظاً من علم وأدب ، وتمرسوا بنصوص فصاحة العرب لايطمعه هذا الأسلوب في مباراته هذه السماحة المعبرة في أسلوب الآيات ، وهذه الرقة الباسمة في ألفاظها ، وهذه الحلاوة في رنين فواصلها ، تغري بالجري على سننها »[2] .

أيضاً من مظاهر إعجاز هذا الأسلوب مراعاته لمقتضى الحال ، ومراعاة مقتضى الحال هي مهمة علم المعاني وهو أحد علوم البلاغة ، مع التنويع في الموعظة والدعوة إلى التوحيد . . .

« ومن بدائع أسلوب القرآن أنه لايطيل الحديث في مقام واحد دون أن يجعل في البين حكمة بالغة أو موعظة حسنة ، لأن الإطالة على سنن واحد مدعاة ـ في الغالب ـ إلى الألفة والفترة ، والألفة ماحية لأثر الكلام في النفس ، والفتور خدور للعقل يعيقه عن متابعة المعاني واستيفاء الإحاطة بها .

تأمّل هذه الآيات التي وردت في وصف مايحيق بالظالمين من الفزع المرعب وأليم العذاب يوم القيامة : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ

---

(١) مفتاح العلوم ـ للسكاكي .

(٢) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ـ لمحمد الصادق عرجون ـ (١٧١) طبعة ١٣٨٦ هـ .

ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ (إبراهيم : ٤٢ ، ٥٠) .

فتأمّل كيف جاء بدء الآيات جامعاً بين الوعيد الصريح ، ووصف حال الظالمين بأوصاف لو وضع غيرها من ألفاظ التفظيع ماجاءت هذا المجيء ، ثم أخذت تذكر ندمهم على مافرط منهم ولات حين مندم ، كما تصف تمنيهم تحسراً لو أخرت آجالهم فيجيبوا داعي الله ويتبعوا الرسل . . .

بل سكنوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم وعرفوا بما عاينوا من آثارهم مانزل بهم من عذاب الله ، ولكنهم لم يعتبروا بهم . . . »[1] .

وواضح من تناول الشيخ عرجون لقضية الإعجاز أنه ركز على جانب الإعجاز بالهداية وإن كان لاينكر دور الأسلوب المعبر عن تلك الهداية .

يقول في الإعجاز بالهداية وإنه الوارث والسبيل الأمثل . . .[2]

« وكما يقتضي عموم دعوة القرآن وخلود رسالته أن بيان هدايته هو الغاية القصوى لتحقيق رسالته ، وهو الطريق الصالح لتبليغ رسالة الإسلام على مايستطيع من بلاغ يقتضي عموم الدعوة وخلود الرسالة إن التحدّي بالهداية ـ كما جاء بها القرآن ـ يجب أن يكون الطريق الأعم لبيان إعجاز القرآن كما تحدّى بها خالصة منفردة من دون التحدّي بروعة النظم وبراعة الأسلوب ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ

---

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ـ للصادق عرجون ـ (١٦٢) .

(٢) نفس المرجع (١٥٤) .

﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء : ٩) .

وأسلوب الهداية القرآنية في إشعار الفرد بتحمل مسؤولية عمله كاملة يقوم على ربط الجزاء بالعمل ، فلا جزاء على غير عمل ، ولا عمل بغير جزاء .

وفي تقرير ذلك يقول سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة : ٢٨٦) .

وقد تضمن هذا النص من البيان القرآني قضيتين :

القضية الأولى : تصوير السماحة كما في الهداية القرآنية وأنها لاتتعنت في تكاليف العباد بشرائعها وآدابها ، ولاتشتط في المطالبة بالعمل التكليفي ، ولكنها تنظر إلى طاقة الإنسان واستعداده الفطري والعقلي والروحي والبدني ، فتكلفه من العمل مايطيق في حدود هذا الاستعداد جبلّة وكسباً ، وهذه القضيّة هي مضمون قوله تعالى : ﴿ لايكلّف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ، وهي قضية تصوّر سماحة الشريعة ، ويسر تكاليفها تحقيقاً لما ألهمه المؤمنون في مناجاة الشكر لله ودعاء التعبد من رفع أثر التكاليف في حالتي النسيان والخطأ الذي لايتجه إلى القلب والضمير بعقد ونية ، ورفع الآصار والأثقال في مطلق التكاليف لتكون في حدود الطاقة والاستعداد .

كما حكى الله عنهم هذه المناجاة في قوله تعالى : ﴿ ربّنا لاتؤاخذْنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمِلْ علينا إصراً كما حَمَلْتهُ على الذين من قبلِنا ، ربّنا ولاتحمّلنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

والقضية الثانية : تبين أن كل نفس عاملة في الحياة إنما تنال جزاء عملها ، فلها جزاء ما كسبت من خير وبر وإصلاح ، وعليها جزاء مااكتسبت من شرّ وفجور وإفساد .

وهذا تقرير لقانون العدل الذي تقوم على أساسه مسؤولية الأفراد وروابطهم الاجتماعية ، فلا تظلم نفس شيئاً من جزاء عملها[1] ،

---

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه / لمحمد الصادق عرجون ـ ١٣٨٦ هـ ـ (١٠٣ ـ ١٠٤) ـ الناشر : مكتبة الكليات الأزهرية

ولاتتحمل نفس آثار عمل نفس أخرى لم تعمل ذلك العمل فتبوء بجزائها .

وفي إطار هذا القانون الذي تقرره الآية الكريمة في طرفيها ، من يسر التكاليف وعدالة الجزاء ساق البيان القرآني آيات الهداية التي تقصد إلى تربية الفرد تربية سلوكية في تحمل مسؤولية العمل تحملاً كاملاً يربطه بالجزاء كسباً واكتساباً .

كما ساق الشيخ عرجون نموذجاً آخر تتمثل فيه آيات الإبداع بالهداية ، قال تعالى : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (الأعراف : ١٨٩) .

بيد أن هذه الآية الكريمة ـ جرياً على سنة القرآن في عدم التكرار المحض ـ زادت قيداً أبانت فيه عن الحكمة الربانية في وشيجة الزوجية بين النفس الأصيلة في الإبداع ، وبين النفس المنشعبة منها .

تلك الحكمة هي سكون النفس الأصيلة من قلق الوحدة ووحشة الانفراد عن الملائم إلى أنس الزوجية وتلاطفها في نموذجها المنشعب منها .

ويلاحظ أن الحديث هنا جرى على النوع الإنساني في نموذجيه قبل أن ينبث منهما أفراده ، وقد كشف عود ضمير النفس الأصيلة خصيصة نوعها ، فكانت هي الرجل ، كما كشف عود ضمير النفس المنشعبة عن خصيصة نوعها ، فكانت هي المرأة .

وقد صور هذا المنهج في إبراز الفكرة الاتساق بين إعجاز الأسلوب وإعجاز الهداية في إيجاز البراعة البيانية بقول تعالى : ﴿ ليسكنَ إليها ﴾ وقضيّة سكون الزوج إلى زوجه والرجل إلى امرأته سيقت في آية أخرى مساق التوجيه للعقل الإنساني إلى التعرف على عظمة القدرة الإلهية ، وللامتنان على أفراد النوع الأول في وجود الإنسان وهم الرجال لبيان الحكمة في خلق نوع النساء ممثلاً في أفراده من ذات نفس الرجال ، بمعنى المنشأ أو البضعية أو إكمال المماثلة في الخصائص النوعية مما يحقق أكمل الانسجام والممازجة .

وزيد هنا قيود على مجرد السكون تتلاءم مع دائرة الأفراد المنبثين من النوعين في الامتنان عليهم بعد الامتنان على خصوص أصلهم في نموذجه الأول باعتباره المنبع الأصل لإبداع الإنسان وخلقه ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ

ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم : ٢١) .

هذه لوحة فنية في إطار من الذكر الحكيم ترمز إلى آفاق السعادة[1] الزوجية بين كل زوجين أراداها وسعيا إليها سعياً جاداً مستهدفاً .

فالتعبير بقوله تعالى : ﴿ خلقَ لكم من أنفسكم ﴾ إشعار بمكانة الزوجة من زوجها ، وتوجيه لما يجب أن تكون الزوجة من زوجها .

وفي قوله : ﴿ لكم ﴾ إغراء بالحرص على أن يفتح الزوج قلبه لحب زوجته لأنها له وحده روحاً وعقلاً وجسماً .

وفي قوله : ﴿ من أنفسِكُم ﴾ بيان لما يجب أن يكون من الانسجام والتمازج بين الزوجين لأنهما نفس من نفس ، فهو أبلغ في بثّ السكينة في قلب الزوج ، لأنه بطريق الإيحاء كأنما يسكن إلى نفسه .

وفي الآيتين السابقتين كان الأسلوب : ﴿ خلقكُمْ من نفس واحدةٍ وخَلَق منها زَوْجَها ﴾ ولذلك كان الحديث هناك مع الأفراد في نموذج النوع بطرفيه .

أما هنا فالحديث مع الأفراد المنبثين كل فرد من النوع الأول مقصود بالخطاب والمنة بالنعمة .

وفي هذه الآية لمحةُ لطيفة ونكتة ذوقيّة في الأسلوب القرآني .

ذلك أن الآية تجعل السكون مطلوباً من الرجال إلى نسائهم ، ولم تجعله مطلوباً من النساء إلى الرجال ، لأنه فيهن فطرة وطبيعة ، وفي الرجال عادة مكتسبة ومغالبة للفطرة .

ثم أخبرت الآية بشيء جديد كل الجدّة على الآيتين السابقتين وذلك قوله تعالى : ﴿ وجعلَ بينكم مودّةً ورحمةً ﴾ .

فالمودّة والرحمة شركة بين الزوجين يتساقيان عذب شرابهما ، ويتقاسمان حلاوتهما ، أما السكون فإنه مطلوب من الرجل ليغالب به طبيعته القَوّامة .

---

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ـ لمحمد صادق عرجون (٣٦ ـ ٣٨) .

وختاماً فإن لي وقفة وتعليقاً على كلام أورده الدكتور أحمد الحوفي في كتابه « مع القرآن الكريم » - يقول : « ذكر الباقلاني فيما ذكر من وجوه الإعجاز أن الله تعالى بعث النبي ﷺ وجعل معجزته الكبرى القرآن ليقع به الاهتداء ، ولايكون كذلك إلّا وهو حجة ، ولاتكون حجة إن لم تكن معجزة[1] .

قال تعالى : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم : ٩١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة : ٦) .

فلولا أن سماعه حجة عليه ، ماكانت حمايته حتى يسمعه ، ولايكون حجّة إلا وهو معجزة ، فهل هذا دليل على الإعجاز ؟

سؤال يطرحه الدكتور الحوفي ثم يجيب فيقول : لا . لأن الهداية إلى التوحيد ، ولأن بيان الرشد من الغي ، لأن التشريع الذي يفصل للناس ماعليهم من واجبات ، ومالهم من ثواب ، وماعليهم من عقاب ، كل هذا لاينهض دليلاً على أن القرآن معجز .

فقد نزل الزبور والتوراة والإنجيل هداية للناس ، ولكن بيانها لم يكن معجزاً لهم ، ولم يتحداهم المولى بها .

ولأن المذاهب الإصلاحية كثيرة ولا إعجاز في واحد منها ، إذ أن المذهب قد يبهر حيناً ، ثم لاتمضي فترة حتى يصوّب إليه النقد ، والمعارضة والتفنيد ، فيفتر نشاطه ويذهب سلطانه[2] .

وهكذا لايرى الدكتور الحوفي إعجازاً في الهداية القرآنية ، إنما يرى الإعجاز في أسلوبه وليس فيما خلا ذلك .

يقول : « وأريد بالأسلوب أو النظم الكلمة المفردة في موضعها من الجملة ، والجملة المنسوقة في تعبيرها عن معنى ، والمعنى الذي تضمنته الجملة ، ومايتصل بالأسلوب والمعنى من أفانين البلاغة والتصوير

---

(١) إعجاز القرآن - للباقلاني - الطبعة الثالثة (٩) .

(٢) مع القرآن الكريم - د . أحمد الحوفي - (٣٣) - دار نهضة مصر للطبع والنشر . .

والخيال ، أي أن الأسلوب أو النظم يشمل الألفاظ المعبرة عن المعاني ، والمعاني التي عبرت عنها الألفاظ ، لأنه امتزاج بين الصياغة ماتؤديه من مضمون »[1] .

وأرد على الدكتور الحوفي في دعواه هذه : « إن الإعجاز لايتأتّى بالهداية ، لأن الهداية هي دليل على أن القرآن من عند الله وليست طريق إعجاز وتعليله هذا أن الكتب السماوية جميعاً نزلت للهداية ، ولكن لا إعجاز وقع بها » .

أرد على الدكتور الحوفي بأن الهداية القرآنية معجزة قائمة بذاتها ، ومظهر من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العظيم .

ذلك أن في لفت الأنظار إلى مافي هذا الكتاب الكريم من مناهج ودساتير ترسم الحياة الصحيحة السليمة والمجتمع الصالح السليم ، سواء أكان ذلك من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية ، أو في القيم الأخلاقية ، والتعامل على نطاق الفرد والجماعة ، ومافيه من قوانين إصلاحية ونظم تحدّد قانون الأحوال الشخصية في التعامل والتكافل والزواج والطلاق والميراث . . . الخ .

مايدفعنا إلى الاعتراف بحقيقة هذا الإعجاز .

إعجاز شامل لتحقيق العدالة ، والهداية والمجتمع السليم ، مما لم يتحقق فيما عداه من كتب أخرى ومذاهب مهما كانت تدعو إلى الإصلاح .

وأقول : لربما لو سلمت الكتب السماوية من يد التحريف والتبديل لكانت الهداية مظهراً من مظاهر الإعجاز فيها ، وإن لم تكن بشمول هداية القرآن ، لأنه معجزة عالمية وليست خاصة بأمة من الأمم . . .

على أن كل شيء قد ورد في القرآن فهو عين الإعجاز .

---

(١) المرجع السابق (٣٧).

الباب الثاني

المنهج القرآني في الهداية والتوجيه

الفصل الأول :
عنصر الزمان في توجيهات القرآن
الفصل الثاني :
عنصر المكان في الهداية والتوجيه
الفصل الثالث :
الهداية القرآنية بين اسلوبي الترغيب والترهيب
الفصل الرابع :
الجانب الخلقي في أسلوب القرآن الكريم

الفصل الأول

عنصرُ الزمان في توجيهات القرآن

الزمن الماضي في توجيهات القرآن

نعم إن هذا الكتاب المعجز الخالد لم يكن سوى رسالة خلود لإنقاذ البشرية من مجاهل التخبط والعشوائية ، فهو كتاب هداية ودستور حياة .

ولقد فطن البشر الذين هم في أمس الحاجة إلى هذه الهداية فطنوا إلى روح هذه الهداية ، فكانت دعوتهم في فاتحة الكتاب : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة : ٦) .

وجاءهم الجواب في فاتحة سورة البقرة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة : ٢) .

ثم جاءهم هذا التأكيد من خلال آيات الذكر الحكيم جميعها .

وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى : ٥٢) .

وإن المتتبع لآي الذكر الحكيم يستشعر هذه الهداية في كل آية من آياته وفي كل جانب .

أجل . . . إن الهداية القرآنية كانت المرتكز في كتاب الله والقاسم المشترك بين آياته .

وقد اتخذت آيات القرآن من دائرة الزمان بأكمله ـ في ماضيه وحاضره ومستقبله ـ مجالاً للهداية والتوجيه .

ولقد حكى لنا القرآن الكريم العديد من الأحداث التي ذخر بها الزمن الماضي لنستملي منها مواطن العظة والعبرة ، قال تعالى : ﴿ لقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عبرةٌ لأولي الألبابِ ما كان حديثاً يُفْتَرَى ﴾ وفي إطار العظة والعبرة بتحقق الهدف المنشود من سياق هذاالقص وهو الهدي والرشاد : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١) .

ولنأخذ صوراً من هذا القصّ القرآني في الزمن الماضي ، قال تعالى :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (المائدة : ٢٧ ، ٣١) .

هذه صورة حية تحكي قصة الصراع الأبدي من الأزل على هذه المتع الزائلة ، حين يقدم الأخ على قتل أخيه في غيبة القيم الروحية ، والإقدام على مثل هذه الجريمة النكراء في تسلّط من النفس الأمارة بالسوء : ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ .

واضعاً بذلك حجر الأساس لجريمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصّد ، وتكتمل الصورة حينما يحاول إخفاء أثر جريمته بدفن أخيه ومواراة الجسد في التراب ، وكأن تأنيب الضمير يظلّ مرافقاً للجاني طالما هو يشاهد ضحيته[1] .

﴿ قالَ : ياويلتَى أعجزت أن أكون مثلَ هذا الغرابِ فأواريَ سوأة أخي . . . ﴾ .

من هنا قال رسول الله ﷺ : « لاتقتلُ نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم كفلٌ من دمها ، لأنه أول من سن القتل » .

إنها نتيجة حتمية لغياب الوازع الديني وتسلّط النفس الأمارة بالسوء .

---

(١) ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ : خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك والعطب ، وخسر أخاه ففقد الناصر والمعين ، وخسر دنياه فما تهنأ لقاتل حياة ، وخسر أخراه فباء بإثمه الأول والأخير .

ولا أدل على أنه أول قاتل على وجه البسيطة حيرته المتناهية في كيفية إخفاء الجثة حتى دله الغراب على العمل ﴿ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه ، قال : يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين ﴾ .

من هنا كان في مثل هذا القصص سياجاً لنا في كبح جماح النفس الأمارة بالسوء والاقتداء بمنهج الله .

وفي قصة قارون مايدعو إلى التدبر والتبصّر وعدم الاغترار بمظاهر هذه الحياة وزينتها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص : ٧٦ ، ٨٣) .

هذا نموذج لفئة من الناس أعماهم حب الدنيا والركون إلى ملذاتها الفانية ، فهذا قارون بن يصهر بن قاهث وهو ابن عم موسى بن عمران بن قاهث .

وكان عظيم الثراء كثير المال قيل : إن مفاتيح خزائنه كانت تحمل على أربعين[1] بغلاً ، فبماذ قابل هذه النعمة ؟ لقد قابلها بالجحود والإنكار ، وادعى بأن ماهو فيه من نعمة إنما هو نتيجة ذكاء وتفرد وعلم بوسائل الكسب مع عقلية تجارية فذّة ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ ، وغاب

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء الأول الطبعة (١١٥) .

* أما الكليم موسى عليه السلام فقد نجاه الله عز وجل ، وأثبت براءته كما قال تعالى : ﴿ فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيهاً ﴾ .

عن بال هذا الكفور بأن المولى عز وجل قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وغنىً ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثرَ جمعاً ﴾ ، ولم يزد إلا غطرسة وتبجحاً ، فخرج على قومه في زينته بالمراكب والثياب المعصفرة ، وضرب عليه صفائح الذهب حتى أن المولعين بالدنيا قالوا : ﴿ ياليت لنا مثل ماأوتي قارون ﴾ ، ولكن أولي العلم والعمل ردوا عليهم بأن هذه مظاهر فانية ، فالمال ظلّ زائل وعرض حائل ﴿ قالَ الذين أوتوا العلم ويلَكُم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ .

فلما طلب نبي الله موسى منه (الزكاة) استكثرها ، فأراد الكيد لنبي الله ، فاتفق مع امرأة بغي أن ترمي موسى عليه السلام بنفسها . وتنطقُ المرأة ببراءة الكليم أمام الملأ .

وهنا يدعو الكليم عليه السلام بالخسف على قارون ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين ﴾ .

وهذا من أعظم العبر في أن مجانبة المنهج الرباني عاقبته الوبال وسوء الخاتمة ﴿ تلك الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لايريدون علوّاً في الأرض ولافساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

وهكذا تظهر لنا جلياً العظة والعبرة في عدم الاغترار بهذه المظاهر الفانية ، وإلا فالخاتمة ما آل إليه قارون ، والعياذ بالله .

الزمن الحاضر في توجيهات القرآن

هذا وإذا كان القرآن قد حكى لنا قصصاً من الزمن الماضي لقصد الهداية والعظة والاعتبار ، إلا أنه لم يغفل الزمن الحاضر ودوره في الهداية .

ذلك أن القرآن الكريم هو الدستور الخالد والصالح لكل زمان ومكان ، يعيش مع الناس حياتهم خطوة بخطوة ، يبعث فيهم الأمل بالله فتنتعش نفوسهم ، ويربطهم بحبل الله المتين فتطمئن قلوبهم ﴿ ألا بذكرِ الله تطمئنُّ القلوبُ ﴾ .

وهكذا تواكب آيات الله حياتنا وتنظّم مسارنا ، وتحدّد اتجاهاتنا في المسار الصحيح ، ومن أمثلة الآيات التي تأخذ بأيدي الناس في حاضرهم الذي يعيشون فيه وتهديهم للتي هي أحسن قوله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام : ١٥١ ، ١٥٣) .

نعم ، إن أعظم نِعم الله علينا هي نعمة الإيمان بالله ووحدانيته التي إذا خالطت شغاف القلوب حصل التوازن بين نزعات النفس الإنسانية ، وتحركت في إطار منتظم حيث أشبعت غريزتها الفطرية وانتفت جوعتها الروحية ، وبذا تنتظم في إطار سديد .

ثم قرن المولى عزّ وجل الأمر بوحدانيّته ببرّ الوالدين ، فقال تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ تعظيماً لشأنهما .

وفي الوقت الذي اهتم فيه بالأصل لم يغفل أهمية الفرع ، فقال تعالى : ﴿ ولاتقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ ولتكتمل عمارة الكون ونعيش في مجتمع

متكامل سليم نظيف ، قال تعالى : ﴿ ولاتقربوا الفواحشَ ماظهرَ منها وما بطَنَ ﴾[1] .

ولما وصّاهم الله بالأسرة وصاهم بالقاعدة التي تقوم عليها ـ كما يقوم عليها المجتمع كله ، وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفّة ، فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها .

إنه لايمكن قيام أسرة ولااستقامة مجتمع في وحل الفواحش ، ماظهر منها ومابطن . . .

ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية شيطانيتين خبيثتين كان التعبير ﴿ ولاتقربوا ﴾ للنهي عن مجرد الاقتراب سدّاً للذرائع واتقاء

---

(١) ولعل ما ظهر من أمراض في هذا العصر (كالإيدز ، والهربس ، ونحوهما) نتيجة هذه الفواحش ظاهرة وباطنة تعليل صارخ على العواقب والكوارث التي تقع بكل من جانب شرع الله والمنهج الإيماني السليم .

يقول الإمام السيوطي رحمه الله : « ختمت الآية الأولى بقوله ﴿ تعقلون ﴾ ، والثانية بـ ﴿ تذكرون ﴾ ، والثالثة بـ ﴿ تتقون ﴾ ، لأن الوصايا التي في الآية الأولى إنما يحمل على تركها عدم العقل ، الغالب على الهوى ، لأن الإشراك لعدم استكمال العقل ، الدال على توحيده وعظمته ، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل ، لسبق إحسانهما إلى الولد بكل طريق ، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق ، مع وجود الرازق الحي الكريم .

وكذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل ، وكذلك قتل النفس لغيظ أو غضب في القاتل ، فحسن بعد ذلك ﴿ يعقلون ﴾ .

وأما الثانية : فتعلقها بالحقوق المالية ، والقولية ، فإن من علم أن له أيتاماً قد يخلفه عليهم غيره من بعده لا يليق به أن يعامل أيتام غيره ، إلا بما يجب أن يعامل به أيتامه إذا مات ، ومن يكيل أو يزين أو يشهد لغيره لو كان ذلك الأمر له لم يحب أن يكون فيه خيانة ، وكذا من وعد لو وعد لم يحب أن يخلف ، ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله ، فترك ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبره وتأمله ، فلذلك ناسب الختم بقوله ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .

أما الثالثة : فلأن ترك اتباع شرائع الله الدينية مؤد إلى غضبه وإلى عقابه ، فحسن ﴿ لعلّكم تتقون ﴾ أي : عقاب الله بسببه .

الإتقان في علوم القرآن ـ للإمام السيوطي ـ دار المعرفة بيروت ، الجزء الثاني (١٣٠) .

للجاذبية التي تضعف معها الإرادة ، لذلك حرمت النظرة الثانية .

وكان التبرج حتى بالتعطر في الطريق حراماً . وكانت الحركات المثيرة ، والضحكات المثيرة ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة .

فهذا الدين لايريد أن يعرض الناس للفتنة ، ثم يكلف أعصابهم عنتاً في المقاومة ، فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ، وربك أعلم بمن خلق .

كذلك نعلم ماالذي يريده بهذا الدين ، وبحياة المجتمع كله وبحياة الأسرة من يزينون للناس الشهوات ، ومن يطلقون الغرائز من معاقلها بالكلمة ، والصورة ، والقصة ، والفيلم ، وبالمعسكر المختلط ، وبسائر أدوات التوجيه والإعلام .

ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة : الشرك ، والزنا ، وقتل النفس ، ذلك أنها كلها جرائم قتل في الحقيقة ، الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة ، والثانية جريمة قتل للجماعة ، والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة[1] .

وفي وصية لقمان لابنه منهجاً ودستوراً هادياً لحياة كريمة ملؤها الحب والطمأنينه ، قال تعالى يحكي ماقاله لقمان وهو يوصي ابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (لقمان : ١٧ ، ١٩) .

يا بني أقم الصلاة إنها عمود الدين ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فإذا ما تحقق الغرض وأقيمت الصلاة تحققّت بقية الخلال المبنية على إقامة الصلاة ، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واصبر على ما أصابك لأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

واعلم أن الالتزام بهذه الخلال يعد من عظائم الأمور التي لايلتزم بها إلا أقوياء الإيمان وذوو الثبات على العقيدة .

﴿ ولاتصعّر خدك للناس ﴾ والصعر داء يصيب الإبل فيلوي

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة العاشرة (١٢٣٠) .

أعناقها ، والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر ، حركة الكبر والازورار وإمالة الخدّ للناس في تعال واستكبار .

والمشي في الأرض مرحاً هو المشي في تخايل وقلّة مبالاة بالناس ، وهي حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق ، وهي تعبير عن شعور مريض بالذات ﴿ إن الله لايحبّ كل مختال فخور ﴾ ، ومع النهي عن مشية المرح وبيان للمشية المعتدلة القاصدة : ﴿ واقصِدْ في مشيكَ ﴾ والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف وعدم إضاعة الوقت في التبختر والتثني والاختيال ، ومن القصد كذلك لأن المشية القاصدة إلى هدف لاتتلكأ ولا تتخايل ولاتتبختر ، إنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق .

والغض من الصوت في أدب، وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته ، ومايغلظ في الخطاب برفع صوته إلا سيّيء الأدب أو شاك في قيمة قوله أو قيمة شخصه ، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة .

والأسلوب القرآني يرفض هذا الفعل ، ويقبحه في صورة منفرة محتقرة بشعة حين يعقب تعالى بقوله : ﴿ إن أنكر الأصوت لصوت الحمير ﴾ .

فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية مع النفور والبشاعة[1] .

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة العاشرة ـ (٢٧٨٩ و ٢٧٩٠) .

الزمن المستقبل في توجيهات القرآن

هذا وإذا كنا قد تعرّضنا للزمن الماضي والحاضر واستعمالهما في مجال الهداية والتوجيه الماضي . . . من حيث الكشف عن حقيقة ماجرى للأمم الماضية عندما ضلت وحادت عن منهج الله والمصير الذي آلت إليه لنأخذ منها العظة والعبر .

وأما عن الحاضر ، فما ترشدنا إليه آيات الله الهاديات مما ينظم حياتنا ويرشدنا إلى المنهج السليم ،

ومع ذلك كله فإن الآيات لم تغفل دور الحديث عن المستقبل بما يشتمل عليه من الهداية والتوجيه ، وإذا بآيات الله الهاديات تأخذ طريقها إلى الحديث عن المستقبل لتكمل بذلك دائرة الزمن من الماضي والحاضر والمستقبل .

وها نحن أمام مشاهد عديدة تتحدث عن حسن الخاتمة أو سوء الختام ، وكل هذا المصير أو ذاك هو نتيجة حتمية للسير على هدى الله أو مجافاته .

وقد ذخرت آيات الكتاب العزيز بهذه الصور التي تتحدث عن المصير المحتوم حيث النعيم المقيم أو العذاب الأليم . . .

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ

سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾
(المؤمنون : ٩٩ ، ١١٥) .

يبدأ المشهد هنا بمنظر الاحتضار ، وإعلان التوبة لدى قدوم الموت ، وطلب الرجعة إلى الدنيا لتدارك مافات ، وكأنما نحن شخوص نشاهد المنظر ، فإذا الرد على هذا التمنّي لايوجه إلى صاحبه ، بل يوجه إلى النظّارة عامة ! « كلاّ إنها كلمة هو قائلُها » ، فهي كلمة لامعنى لها ولاتجوز العناية بقائلها هي كلمة الموقف الرهيب ، فلا ثمرة لها ولااستجابة ، وهو هناك حيث فارقته الروح ، ﴿ ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثون ﴾ .

ولايطول المكوث ، فقد نفخ في الصور ، فاستيقظوا وقد تقطّعت بينهم الروابط ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ﴾ ، وشملهم الهول بالصمت فهم ساكنون لايتحدثون ﴿ ولا يتساءلون ﴾ .

ثم يعرض السياق ميزان الحسنات والسيئات مجسماً ـ كما مر في مشهد آخر ـ لايقف طويلاً ، فهناك مشهد جديد .

لقد تمّت عملية الوزن هنا بسرعة وانتهت ، فلنتبع خطوات ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ هاهم أولاء ﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ ، وهذا العذاب الحسي في كفة ، وما يلقونه من الإحراج والتبكيت في كفة أخرى ، فلنستمع لهذا الحوار الطويل : ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذّبون ؟ ﴾ وهنا يخيّل إليهم أنهم مأذونون في الحديث ، مسموح لهم بالرجاء ، وأن الاعتراف قد يجدي في قبول الرجاء : ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالّين ﴾ ، وهو اعتراف تبدو فيه المرارة والشقوة ، ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ ، وكأنما قد تجاوزوا حدّهم وأساءوا أدبهم ، فلم يكن مأذوناً لهم إلا بالإجابة على قدر السؤال ، بل لعله سؤال لايطلب عليه جواب ، فهم يُزجرون زجراً قاسياً عنيفاً : ﴿ قال : اخسؤوا فيها ولاتكلّمون ﴾ اخرسوا ، واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين ، فإنكم لتستحقّون ما أنتم مقارفون ، ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا

وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ﴾ ، فلم يكن جرمكم أنكم قد كفرتم واقتصرتم على أنفسكم ، إنما بلغ بكم السفه أن تسخروا ممّن يؤمنون وممن يرجون رحمة الله من المؤمنين ، وتضحكوا عليهم فانظروا : ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ .

ومشهد ثان نراه في سورة الزمر ، قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الزمر : ٧١ ، ٧٥) .

وهكذا يتجلّى الموقف بتسجيل النتيجة الحتميّة لكل فريق :

وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، هكذا يساقون كالقطيع إلى دار الكآبة والحزن ، حتى إذا ماوقفوا على الباب كانت الأسئلة تلاحقهم والتبكيت يقرعهم : ﴿ ألم تأتكم رسُلٌ منكم ينذرونكم لقاءَ يومكم هذا ؟ ﴾ قالوا : بلى ولكن لم يكن لنا في السعادة نصيب ، قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، تفضلوا بالدخول ، فهنا الخلود وهنا الجزاء ، وهنا تصفية الحساب ، فبئس مثوى المتكبرين .

وسيق الذين اتّقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ـ زيادة في حسن التكريم وجلال الاستقبال ـ قال لهم الخزنة : ﴿ سلام عليكم ﴾ لاينقطع البتّة طبتم وطاب ممشاكم ، فادخلوا مكرّمين معزّزين خالدين إن شاء الله .

وفي حرية مطلقة يكون تبادل الخطاب ، قالوا : الحمد لله الذي

صَدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم الثواب والجزاء جزاء العاملين ﴿ لمثل هذا فلْيَعْمَلِ العامِلُونَ ﴾ ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ .

ثم يختم المشهد بما يُلقي في النفس والحس روعة ورهبة وجلالاً تتّسق مع المشهد كله ، وتختمه خير ختام : ﴿ وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربهم ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

فإذا ماانتهت السورة فكأنما سدل الستار على المشهد وفي العين منه بقية ، والخيال يستعرضه ويتملاّه ، والحس مستغرق في طيوفه ورؤاه[1] .

وهكذا تتعدد[2] المشاهد ، وهي تحكي لنا صوراً عما سيحدث في المستقبل ، كل هذا في إطار تصوير النتائج المترتبة على الأعمال وأن كلّ امرىءٍ مجزيٌّ بعمله : إن خيراً فخيرٌ وإن شرّاً فشرّ . . .

وهكذا كان للعنصر الزماني دوره في توجيهات القرآن الكريم الذي بلغ الذروة في الهداية والإرشاد .

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة السابعة (١٧١) .

(٢) والعجيب حقاً أن تعدد هذه المشاهد ـ وأساسها واحد ـ لم ينشىء نوعاً من التكرار ، فكل مشهد يختلف عن سابقه في كلّياته أو جزئيّاته ، وذلك لون من الإعجاز شبيه بالإعجاز في خلق الملايين من الناس ، كلهم ناس ، ولكن لكلٍّ سحنة وسمة في هذا الخلق الإلٰهي العجيب !!!
مشاهد القيامة في القرآن (١٠) الطبعة السابعة .

الفصل الثاني

عنصرُ المكان في الهِداية والتوجيه

الكعبة ودورها في الهداية والتوجيه

وكما تحدثنا عن دور الزمان في توجيهات القرآن ، فإن عنصر المكان هو الآخر لم يكن أقل أهمية في إبراز دور الهداية القرآنية ، حيث تحدث القرآن عن دور المكان ومايشغله من حيز في الهداية والتوجيه والارتباط بالتشريع الكريم .

والحديث عن الأماكن في القرآن الكريم ودورها في الهداية والتوجيه متنوع ومتعدد . . .

ومن أشرف الأمكنة التي تحدّث القرآن عنها بيت الله الحرام ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٦ ، ٩٧) .

وقال تعالى ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة : ٩٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة : ١٢٥ ، ١٢٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟

نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (الحج : ٢٦ ، ٣٠) .

إذن فالغرض الرئيسي من هذه المعالم هو ارتباط المخلوق بالخالق في أقدس البقاع وأحبّها إلى الله : ﴿ وإذ يرفعُ إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ .

وهكذا نجد أن المغزى من حرص إبراهيم على رفع القواعد من البيت هو توثيق الصلة بين المولى وعباده في هذا المعلم الخالد الذي ترتبط به أفئدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وليكون القبلة والحبل الوثيق بين الخالق وعباده في أروع مظاهر التقديس وأسماها ، ثم الحرص على أن يكون مصدر الطمأنينة والثقة بين الخالق والمخلوق ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ ، ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ .

وهكذا فالأمان المتحصّل في الدنيا لمن دخل هذا البيت هو صورة للأمان الأخروي لمن استشرفت نفسه لهذه البقاع وحرصت روحه على التعلق بها ، ثم هو ميدان الطّهر والذكر ﴿ وطهّر بيتي للطائفين ﴾ ﴿ ليذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾ .

وهكذا نستجلي منابع الهداية في هذا المكان العظيم والمعلم الخالد بيت الله العتيق ، مهوى أفئدة المسلمين ومنطلق تجمعهم واعتصامهم بحبل الله ، والسير على نهجه وهداه ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ في أعظم تجمع إيماني ومؤتمر روحي ﴿ وليُوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام ، وترفّ إلى رؤيته والطواف به ، وستظل كذلك إلى الأبد .

ويقدم الحجيج من كلّ فجّ ومن كل قطر ، يتجمّع كله في البلد الحرام في موسم واحد ، فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ، وسوق عالمية تقام في كل عام .

موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام ، وهي ترفّ حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه

وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد .

والحج بعد ذلك مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة . مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمان منذ أبيهم إبراهيم الخليل وآدم عليهما السلام ، ﴿ ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل ﴾ ، ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعاً إليه : هذه القبلة التي يتوجّهون إليها جميعاً ويلتقون عليها جميعاً . . . ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان ، ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حيناً ، قوّة التجمع والتوحّد والترابط الذي يضم الملايين ، الملايين التي لايقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لاتتعدّد . . . راية العقيدة والتوحيد .

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى ، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام في ظلّ الله بالقرب من بيت الله وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة في أنسب مكان وأنسب جو وأنسب زمان[1] .

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ المجلد الرابع (٢٤١٨) الطبعة العاشرة .

بل لاأدل على أهمية المكان ودوره في مجريات أحداث الحياة أن الخالق عز وجل قد فضل بعض الأمكنة على بعض لما تقوم به من دور هام في ارتباط القلوب وجمع الشمل .

فمكة المكرمة وفيها بيت الله العتيق قد شملها التكريم الإلٓهي ، فها هو المولى عز وجل يقسم بها تكريماً لشأنها : ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ (التين : ٣) ، ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ (البلد : ١ ، ٢) ، وحظر على غير المسلمين الاقتراب منها لما تحمله من طابع مقدّس ، ففيها الحرم ، وإليها تصبو الأفئدة والقلوب تعلقاً بخالقها حيث القبلة المشرفة والمشاعر المقدسة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٢٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ (التين : ١ ، ٣)[(١)] .

فأقسم المولى عز وجل بهذه الأماكن الثلاثة ، أقسم « بالتين والزيتون » ، وهي إشارة إلى بيت المقدس مسقط رأس المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، « طور سنين » وهو الجبل الذي كلّم عليه المولى عز وجل نبيه موسى عليه السلام .

كما أقسم « بهذا البلد الأمين » ، وهي مكة المكرمة بلد سيد المرسلين وإمام المتقين سيدنا رسول الله ﷺ .

---

(١) جاء في التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة ، جاء الله من طور سيناء يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ـ وأشرق من ساعير ـ يعني جبل المقدس الذي بعث الله منه عيسى بن مريم ـ واستعلن من جبال فاران ـ يعني جبال مكةالتي أرسل الله منها محمداً ﷺ فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي حسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهما .

تفسير ابن كثير الجزء الرابع (٥٢٦) .

وقد أقسم المولى عز وجل بهذه الأمكنة تشريفاً لقدرها وتكريماً لها لارتباطها بهؤلاء السادة من أولي العزم من الرسل عليهم السلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر : ٩) .

﴿ والذين تبوؤوا الدار ﴾ ، أي : دار الهجرة مدينة الرسول ﷺ وهو تعبير ذو ظلال ، وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان ، وكأنه منزل لهم ودار .

لقد كان دارهم ومنزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم وتسكن إليه أرواحهم .

﴿ يحبّون من هاجر إليهم ولايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين ، بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخي ، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء ، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة ، لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين .

﴿ ولايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا ، وقد بلغ الأنصار في كرم النفس مبلغاً لم تشهد البشرية له نظيراً في ماضيها ولا حاضرها ولامستقبلها ﴿ ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ بذل في المال ، وبذل في الروح ، وبذل في المهج ، وبذل في العاطفة ، وهذا هو الفلاح في حقيقته ومعناه .

إنها صورة باهرة تمثل حقيقة قائمة ، كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين تقرن مثلاً إلى صورة الحقد الذميم ، والهدم اللئيم التي تمثلها وتبشّر بها

الشيوعية في إنجيل كارل ماركس صورة الحقد الذي ينغل في الصدور ، وينخر في الضمير على الطبقات وعلى أجيال البشرية السابقة ، وعلى أممها الحاضرة التي لاتعتنق سوى الحقد الطبقي الذميم ، ونظائرها في تحريفات اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل .

صورتان لا التقاء بينهما في لمحة أو سمة أو لمسة ، ولا ظلال : صورة ترفع البشرية إلى أعلى مراقيها ، وصورة تهبط بها إلى أدنى دَرَكاتها .

صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنةً مترابطة متكافلة متوادّة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله بريئة الصدر من الغل طاهرة القلوب من الحقد .

وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقى بعضهم بعضاً بالحقد والدغل والغش والخداع والالتواء حتى وهم في المعبد يقيمون الصلاة ، فالصلاة ليست سوى أحبولة ، والدين كله ليس إلا فخّاً ينصبه أصحاب رأس المال للكاد حين ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر : ١٠) .

هذه هي قافلة الإيمان ، وهذا هو دعاء الإيمان ، وإنها لقافلة كريمة وإنه لدعاء كريم[١] .

---

(١) في ظلال القرآن ـ لسيد قطب ـ الطبعة العاشرة (٣٥٢٦) .

المساجد ودورها في الهداية والتوجيه

ولعل الحديث عن بيوت الله ، وقد وجد فيه القرآن الكريم منبرَ هدايةٍ وإشعاعَ أمانٍ حتى استفاض في الحديث عن هذه المحافل النورانيّة القدسيّة ، والتي يتواصل فيها لقاء الأرض بالسماء حتى قال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (النور : ٣٦ ، ٣٨) .

تلك البيوت ﴿ أذن الله أن ترفع ﴾ ـ وإذن الله هو أمر للنفاذ ـ فهي مرفوعة قائمة ، وهي مطهّرة رفيعة يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السموات والأرض ، وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السني الوضيء ، وتتهيأ بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله ﴿ ويُذكرَ فيها اسمُهُ ﴾ ، وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة المسبّحة الواجفة المصلية الواهية قلوب الرجال الذين ﴿ لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ والتجارة والبيع لتحصيل الكسب والثراء ، ولكنهم مع شغلهم بهما لايغفلون عن أداء حق الله في الصلاة وأداء حق العباد في الزكاة ﴿ يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار ﴾ ، تتقلب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب ، وهم يخافون ذلك اليوم فلا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله ، وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله ﴿ ليجزيهمُ الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾[1] .

وأما ثالث المساجد التي نص الشارع على الاهتمام بها حتى قرن شدّ الرحال إليها بشدّ الرحال إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي ، ذلك هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين المسجد الأقصى مسرى النبي ﷺ قال

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة العاشرة (٢٥٢٠) .

تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء : ١) .

نعم ذلكم هو المسجد الأقصى في بيت المقدس الذي لازالت وللأسف الشديد تمتد إليه يد العدوان الصهيوني البغيض محاولة تدنيس مقدسات المسلمين ، والتعرّض لها بالإساءة إلى المصلين ، ومحاولة إحراق المسجد بحجة البحث عن هيكل سليمان عليه السلام ، وهذا ليس غريباً من اليهود الذين مافتئوا يسيئون إلى كل شيء مقدس ، فافتراءاتهم على ربهم وأنبيائهم[١] قديمة عتيقة . وأخيراً دخولهم إلى هذه الأرض وادعاؤهم أنها الأرض الموعودة ، والله يعلم إنهم لكاذبون يحاولون تشويه الحقائق واغتصاب الأرض وطرد السكان الأصليين وترويع المؤمنين والاستهتار بالقيم والمعتقدات ، وإننا لنرجو من الله أن يعيد الحقّ إلى نصابه وأن يسترد المسلمون حقهم المغتصب وأن ينصر الله المؤمنين ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء . . .

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ : تبدأ السورة بتسبيح الله أليق حركة نفسية تتّسق مع جو الإسراء اللطيف ، وأليق صلة بين العبد والرب في ذلك الأفق الوضيء .

وتذكر صفة العبودية ﴿ أسرى بعبده ﴾ لتقريرها وتوكيدها في مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات التي لم يبلغها بشر ، وذلك كي لاتنسى هذه الصفة ، ولايلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية كما التبسا في العقائد المسيحية بعد عيسى عليه السلام بسبب ما لابس مولده ووفاته ، وبسبب الآيات التي أعطيت له فاتخذها بعضهم سبباً للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية ، وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتنزيهها

---

(١) جاءوا يوماً إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فقالوا له : يا روح الله ، ماذا تقول في هذه الدنانير التي يأخذها منا ملوك الروم ؟ وهم يريدون بهذا أن يوقعوا بينه وبين ملوك الروم ليقتلوه إذا قال : إنها إتاوة فلا تدفعوها لهم . فقال المسيح عليه السلام : « أدوا ما لقيصر لقيصر ، وأدوا ما لله لله » هذه صورة من صور المكر اليهودي البغيض ! وعلى من ؟ على نبي كريم !!

للذات الإلَهية عن كل شبهة أو شرك من قريب أو من بعيد .

والإسراء : من السُّرى ، وهو السير ليلاً ، فكلمة « أسرى » تحمل معها زمانها ، ولاتحتاج إلى ذكره ، ولكن السياق ينص على الليل ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ للتظليل والتصوير على طريقة القرآن الكريم ، فيلقى ظلّ الليل الساكن ، ويخيّم جوّه الساجي على النفس وهي تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها .

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين ﷺ ، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً ، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الخاتم عليه السلام لمقدسات الرسل قبله عليهم السلام ، واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعاً ، فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان .

والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في البرهة الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش رسول الله ﷺ آية من آيات الله تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود[1] .

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة العاشرة (٢٢١٢) .

والعجيب في أمر الإسراء أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يتخذها حجّة على نبوّته على الرغم من حرص القوم على الأدلة الماديّة ، فلم يكن جهر رسول الله بها ناشئاً عن اعتماده عليها في شيء من رسالته ، وإنما كان جهراً بالحقيقة المستيقنة .

وبالرغم من غرابة هذه الحادثة إلا أن أبا بكر حينما بلغه الخبر بواسطة أبي جهل قال له : إن كان قالها رسول الله ﷺ فقد صدق : من هنا سميّ أبو بكر الصديق .

أما المطعم بن عدي فقال : كان أمرك قبل اليوم أمراً يسيراً ، فإذا بك اليوم تعجب وتغرب ! نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس ، نصعد شهراً ، وننحدر شهراً ، وأنت تزعم أنك أتيته في ليلة واحدة ، واللات والعزى لا أصدقك أشهد أنك كاذب .

ولعل الحادثة كانت اختباراً حقيقياً للنفوس محّص الله بها النفوس الخيرة من الشريرة ، فأما من لا خير فيه فلعلّ من الخير أن يخرج من صفوف المسلمين إذ لا نفع لهم في مذبذبٍ مضطرب .

الجبال

والجبال من الأماكن التي لفت الله الأنظار إليها . . . هداية وعبرة لأولي البصائر والأبصار ، وهنا أيضاً تتعدّد الآيات التي تتحدث عن الجبال .

قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر : ٢١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء : ٧٩) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] (الأعراف : ١٤٣) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

في كل هذه الآيات نجد أن الجماد وهو الجبل يتفاعل في حركة حيّة فهو يحس وهو يستشعر مدى المسؤولية وخطر المهة ، فهو في مراقبة مستمرة لربه عز وجل خاشعاً متضرعاً مسبحاً . . . ﴿ ولكنْ لاتفْقَهون تسبيحَهُمْ ﴾ ، وهو يعلم خطر الأمانة وعظم المسؤولية لذلك أشفق من تحملها وتبرأ منها .

---

(١) ﴿ فلماتجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ تراباً ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ مغشياً عليه ، وقيل : بل انقعر الجبل فدخل تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة . وفي الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ « لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » .

راجع تفسير ابن كثير الجزء الثاني (٣٤٥) ط ١٣٨٨ هـ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

وهذه صورة من صور الهداية القرآنية التي اتضحت جلياً في هذا الطود من مخلوقات الله سبحانه ، والتي تحكي مدى تأثر هذه الكائنات وإحساسها بعظم الحدث وفداحة المسؤولية ، فهي خاضعة خاشعة مشفقة ترجو الثواب وتخشى العقاب .

وفي نفس الوقت تخاطب النفوس البشرية بجلال الموقف وأن النجاة إنما هي في السير على منهج الله والاهتداء بهداه ﴿ وتلكَ الأمثالَ نضربُها للناس لعلهم يتفكّرون ﴾ .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ (الحج : ١٨) .

البحر

والبحر : أيضاً شهد من الآيات العظام والأحداث الجسام ماجعله مجالاً خصباً للاعتبار .

قال تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء : ٦٠ ، ٦٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ (طه : ٧٧ ، ٧٩) .

نعم لقد أفصح النهار لذي عينين وتبين بنو إسرائيل الغي من الرشاد ، وأن ماجاء به موسى هوالحقّ فانحازوا إليه يلتمسون منه الرحمة والهداية ، وهم الذين عانوا سوء الخسف وسيموا سوء العذاب .

وسار موسى بقومه أول الليل إلى الأرض المقدسة ، وقد سهل الله لهم الطريق إليها فساروا سيراً حثيثاً ، فلما قطعوا رقعة اليابسة إذا بهم أمام بحر لجّي يقف حائلاً وفرعون من ورائهم ، فأيقنوا بالهلاك فتقدّم موسى فضرب البحر بعصاه فانفلق ، فكان كل فرق كالطود[1] العظيم ، وصار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط[2] طريق ، فقال كل سبط : هلك أصحابنا ، فأمر الله الماء فصار كالشباك ، فكان كل سبط يرى من عن يمينه وعن شماله حتى خرجوا .

ودنا فرعون وأصحابه من البحر ، فرأى الماء على هيئته والطرق فيه ، فقال لأصحابه : ألا ترون البحر قد فَرِق مني وانفتح لي حتى أدرك أعدائي ، فلما وقف فرعون على الطريق لم تقتحمه خيله ، فنزل جبريل على

---

(١) الطود : الجبل .

(٢) السبط : الفريق من اليهود .

فرس أنثى وديق[1] فشمّت الحصن رائحتها ، فاقتحمت على أثرها حتى إذا همّ أولهم أن يخرج ودخل آخرهم ، انطبق عليهم فأغرقهم أجمعين فصاروا مثلاً للآخرين .

وفي هذا الوقت العصيب الذي تتراءى فيه الحقائق للعيان وحين لاينفع نفس إيمانها قال فرعون : ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس : ٩٠) ، ولكن هيهات ولات ساعةَ مندم ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس : ٩١) .

وهنا عادت غريزة تأصلت في نفوس بني إسرائيل وباطل تمكن من قلوبهم فإذا بهم يقولون : إن فرعون لم يمت ، فدعا موسى ربه (فأخرج الله فرعون غريقاً ، فأخذه بنو إسرائيل يتمثلون به) . ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (يونس : ٩٢) .

---

(١) أنثى وديق : « يقال لذات الحافر إذا اشتهت الفحل أنثى وديق » .
الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ الطبعة الثانية ـ المجلد الأول (١٠٦) .
يقول جبريل عليه السلام : لو رأيتني وأنا أدس من حمأة البحر في فم فرعون ، مخافة أن يقول كلمة يرحمه الله بها .

القرى

كما حكى القرآن لنا حال القرى وما حل بأهلها ، وكيف أن الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن فله جزاء الحسنى ، ومن أساء كان له سوء الخاتمة ، وهكذا ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم : ٣٩) .

حكى لنا المولى عز وجل حال تلك القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان ، فكفرت بأنعم الله عليها وجحدت اليد التي امتدت إليها بالإحسان ، وقابلت الشكر بالكفر ، قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (النحل : ١١٢ ، ١١٣) .

وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (الشعراء : ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (هود : ١٠٢ ، ١٠٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود : ١١٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (القصص : ٥٨ ، ٥٩) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٧ ، ٩٩) .

وهكذا يستبين لنا مما تقدم من آيات أن الجزاء من جنس العمل وأن من عمل شيئاً فهو مجزيٌّ به ، وأن القرى عندما كفرت بأنعم الله أذاقها لباس الجوع والخوف ، من هذه القرى مكة المكرمة ، فقد كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً تجيء إليها ثمرات كلّ شيء في هناءة ورغد ، فكفرت بأنعم الله ، ومن أعظم هذه النعم نعمة الإسلام وبعثة سيد الأنام .

ولكنهم قابلوا هذه النعم بالجحود والكفران ، قال تعالى : ﴿ ألَمْ ترَ إلى الذين بدّلوا نعمةَ الله كفراً وأحلّوا قومَهُم دارَ البوارِ جهنّمَ يصلَوْنَها وبئس القرارُ ﴾ .

فماذا كانت النتيجة ؟ الجوع الخوف ، الجوع حيث دعا عليهم رسول الله بسبع كسبع يوسف سنين عجافاً أكلت الأخضر واليابس .

والخوف فكانوا يخافون رسول الله ﷺ بعد الهجرة ، وظلّت حالهم أسوأ حال ، ذلك بكفرهم وعنادهم وجحدهم للنعم .

وعلى النقيض كان حال المؤمنين ، فقد أبدل الله خوفهم آمناً ورزقهم بعد العَيلة ، وجعلهم أمراء وحكاماً ، وهكذا فالجزاء من جنسِ العمل .

وكما قال تعالى : ﴿ وماكان ربُّكَ ليُهلكَ القرى بظلمٍ وأهلُها مصلحون ﴾ . ﴿ وماكُنا مهلكي القرى إلا وأهلُها ظالمون ﴾ .

وأما المؤمنون فلهم الجزاء الأوفى كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٦) .

وكما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس : ٩٨) .

فإن قوم يونس عليه السلام في قرية نينوى من أرض العراق خرج لهم يونس بن متّى نبياً ، فدعاهم إلى الله عز وجل ولكنهم لم يجيبوه إلا بمكابرة

الغوغاء المتعنتين وردوا دعوته وكفروا بها ، فلما لم يجد لدعوته أذناً صاغية لم يطق صبراً حتى خرج مغاضباً لقومه ، وهنا وافتهم نذر العذاب واقتربت منهم طلائع الهلاك فاغبرّ الجو من حولهم واربدّ ثم تغيرت ألوانهم ، وهنا داخلهم الفزع والخوف وعلموا أن دعوة يونس حقاً وقوله صدقاً ، فبحثوا عنه فلم يجدوه ووقع في أنفسهم أن يخرجوا إلى شعاف الجبال وبطون الأودية باكين مستغفرين ، وفرقوا بين الأمهات وأطفالها ، والإبل وفصلانها ، والبقر وأولادها ، والغنم وحملانها ، ثم أعول الجميع فصاحت الأمهات ورغت الإبل وخارت البقر وثغت الغنم ، وكانت ساعة بسط الله عليهم فيها رحمته ورفع عنهم سحائب نقمته ، وتقبل منهم التوبة والإنابة إذ كانوا صادقين في إيمانهم ، فرجعوا إلى دورهم آمنين مؤمنين وتمنّوا لو كان يونس عليه السلام بينهم .

أما يونس فقد ركب البحر ، وفي لجة البحر تضاربت الأمواج وأرغى البحر وأزبد ، فقال ربان السفينة : إن في السفينة رجلاً عاصياً ، وعملت القرعة فخرجت على الرجل الصالح يونس بن متى ، فتردّد القوم وهم يكررون القرعة وهي تصيبه ، حينئذ أدرك يونس غلطته في العجلة ومغادرة القوم ، وهنا يقذف في البحر فيلتقمه الحوت ، ويظلّ راكعاً في جوفه ساجداً مسبحاً حتى عفى الله عنه وأمر الحوت بقذفه على اليابسة ، قال تعالى : ﴿ فلولا أنه كان المسبّحين للَبثَ في بطنِهِ إلى يومِ يُبعثون ﴾ .

وهنا أنبت الله عليه شجرةً من يقطين ، وبعد أن تمّت له العافية عاد إلى قومه فوجدهم في انتظاره ، وماراعه إلا أنه خلفهم وليس فيهم إلا من هو عاكف على الأصنام ، وعاد إليهم ومافيهم إلا ألسنة تلهج بذكر الرحمن .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟

﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] (الصافات : ١٣٩ ، ١٤٨) .

وهكذا فالجزاء من جنس العمل . . .

أيضاً وجدنا أن القرآن الكريم حينما تحدّث عن عنصر المكان بمختلف جهاته في البر والبحر ، في السهل والوعر ، في الجبل والوادي ، في السماء والأرض ، في القرية والمسجد ، اتخذ من كل هذه الأمكنة شاهداً ودليلاً على أن الجزاء من جنس العمل ، وأن كل هذه الأمكنة جاءت تحمل في طياتها الهداية والعظة والاعتبار .

---

(١) « فآمَنوا فمتعناهم إلى حين » : يذكر أن شخصاً أقسم أن لا يقرب زوجه حيناً من الزمان ، فأتى رسول الله ﷺ يسأله فوجده نائماً ، فذهب إلى دار الصدّيق فقال له : لا تقربها العمر كله ، فأتى الفاروق فقال له : لا تقربها أربعين عاماً ، فذهب إلى ذي النورين ، فقال له : لا تقربها عاماً كاملاً ، فأتى أبا الحسنين فقال له : لا تقربها يوماً وليلة . .فأتى رسول الله ﷺ علّه يجد عنده رخصة أيسر من يوم وليلة ، فأخبره القصة ، فقال له الرسول : ادع أصحابي ، فدعاهم ، فقال له : من أين يا أبا بكر هذا الجواب ؟ قال من قوله تعالى : ﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ أي : إلى حين انقضاء آجالهم ، وأنت يا عمر ؟ قال: من قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهرِ لم يكنْ شيئاً مذكوراً ﴾ ، وآدم مكث طينة على باب الجنة أربعين عاماً . وأنت يا عثمان ؟ قال : من قوله تعالى : ﴿ تؤتي أكُلَها كلَّ حين بإذن ربِّها ﴾ ، والنخلة تطرح في العام مرّة واحدة فقلت له : لا تقربها عاماً كاملاً ، وأنت يا عليّ ؟ قال : من قوله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وعشياً وحين تظهرون وله الحمد في السماوات والأرض . . ﴾ .

فقال سيدنا رسول الله ﷺ ﴿ خذ برأي علي فهو أيسر لك ﴾ ثم قال ﷺ : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . .

الجنة والنار

فإذا ماانتقلنا إلى مشاهد القيامة والدار الآخرة ، وجدنا ماتحمله هذه الصور من ظلال محبّبة للنفوس في ذكر الجنة وما أعد الله للمتقين من ثواب .

قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (الغاشية : ٨ ، ١٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (ق : ٣١ ، ٣٥) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ (الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨) .

وقال تعالى : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ (ص : ٤٩ ، ٥٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الزمر : ٧٣ ، ٧٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ

مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ (الواقعة : ١٠ ، ٤٠) .

على سرر موضونة : مشبّكة بالمعادن الثمينة ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ في راحة وخلو بالٍ واطمئنان ﴿ يطوفُ عليهم ولدان مخلدون ﴾ لايفعل فيهم الزمن ، ولاتؤثر في شبابهم السن ، ﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾ من خمر صافية سائغة ، ﴿ لايصدّعون عنها ولاينزفون ﴾ لاهم يفرّقون عنها ، ولا هي تنقطع أو تنفد ، ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ واللؤلؤ المكنون : هو اللؤلؤ المخبؤ الذي لم يعرض بعد للأنظار ، ولم تخدشه عين ولم تثقبه يد ، وفي هذا كناية عن معانٍ حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور العين ، ذلك كله ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فهو استحقاق ومكافأة ، وهم مع ذلك في هدوء وسكون بعيدون عن كل لغو في الحديث وكل جدل وكل مؤاخذة[1] ، ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ (الواقعة : ٢٥ ، ٢٦) .

وفي المقابل يأتي ما أعدّه الله من عذاب أليم لمن حاد عن طريق الهدى واتبع الهوى والشهوات ، فإن الجحيم هي المأوى هي المستقر وبئس دار الإقامة هي .

﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝٢٢ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ۝٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ (ق : ١٩ ، ٢٦) .

لقد جاءت النفس الإنسانية ومعها هذان الحارسان ، وهذا هو الخطاب يتوجه بالتبكيت والتأنيب : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة السابعة (١٢٨).

عنك غطاءك فبصرُك اليوم حديد ﴾ نافذ يبصر ماكان محجوباً بالغفلة والتكذيب ، ثم يتقدم القرين ـ ونفهم من السور الأخرى في القرآن أنه شيطان يرافق الضالّ ويملي له في الضلال وإن كان يوم القيامة يتبرأ منه ويشهد عليه ـ .

يتقدم هذا القرين ليقول : إن ماعنده من أخبار هذا المخلوق مهيّأ حاضر ﴿ وقال قرينه : هذا مالديّ عتيد ﴾ عندئذ يصدر الأمر الذي لايردّ : ﴿ ألقيا في جهنمّ كل كفار عنيد منّاع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلَها آخر فألقياه في العذاب الشديد ﴾ .

وتعرض جهنم مشخصة مخلوقة حية تشترك هي الأخرى في الحوار وتدل على هولها بلفظها ، ليتم التناسق بين جزئيات المشهد وأفراده في طريقة الاستعراض : ﴿ يَوْمَ نقولُ لِجهَنَّمَ هل امْتَلأتِ ﴾؟!

وبهذا السؤال ينفتح المجال للخيال لتصور المشهد من وراء الحوار وتخيل الصورة من وراء الظلال ، هذه هي الأجسام تقذف إلى جهنم وقد فتحت فاها حتى إذا توالى القذف وتكدس الوقود قيل لها : هل امتلأت ؟ وإنها لتتحرّق وتتلمظ إلى وقود جديد ، وتقول : هل من مزيد .

إنه لمشهد مؤثر في الوجدان مثير للمشاعر والخيال يؤدي غرضه الديني من هداية ورشاد في يسر وسهولة ، ثم ينطلق إلى عالم الفن الطليق ، فلغة الجمال الفني تستطيع أن تخاطب الوجدان الديني مادامت صادقة فاللهجة الصادقة دائماً هي الهادية إلى الحق والرضوان . . .[(١)] .

وهكذا نجد النقلات القرآنية ، فلا يرد ذكر النار إلا ويعقبها ذكر الجنة في معظم آي القرآن ، كربط بين الوعد والوعيد والزجر والترغيب .

في صورة من التمازج والتساوق بين الخوف والرجاء ، وبذا يكون المرء دائماً في مراقبة لله عز وجل في كل عمل ، في كل خفقة ، في كل شعور ، ومن ثَمّ تتحقّق له الهداية المرجوّة .

والاندماج قلباً وقالباً في رحاب الله ، وهذا ماتسعى له آيات الكتاب الحكيم في كل صورة ، في كل آية ، في كل أمر ، في كل نهي ، في كل وعد ،

---

(١) بتصرف من مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ـ طبعة سابعة (٩٠).

وفي كل وعيد . . .

وهكذا نجد الارتباط الوثيق بين كل معاني آي الذكر الحكيم ، سواء أكان ذلك من الناحية الزمانية أو المكانية أو التشريعيّة . . . إلخ .

كما نجد أن القرآن يساير شعور النفس الإنسانية ، فلا يرد ذكر النار إلا وهو مرتبط بهدف كالتحذير أو الأمر أو النهي أو الزجر .

كما قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء : ١٢٣ ، ١٣٥) .

ففي ظلال الأمر بعبادة الله وطاعة رسوله هود عليه السلام ، جاء الزجر في سياق الأمر والوعيد في إطار الوعد ، فمن أطاع الله ورسوله الذي أنعم عليه بمختلف النعم كانت له النجاة والفوز ، وإلا فالخوف من عذاب يوم عظيم وارد ومتحصّل .

وفي ذلك ماوراءه من فتح أبواب الهداية على مصاريعها للناس أجمعين .

الفصل الثالث

الهداية القرآنية بين أسلوبي الترغيب والترهيب

تقديم

إن القرآن الكريم المعجز ببيانه وبلاغته، وقوة تأثيره في النفوس والقلوب، ليبرز الجمال الفنّي المحض في تضاعيفه، حتى ليستملي الإنسان هذا الجمال مستقلاً بجوهره فيغنيه، ثم ينظر في ملاءمته مع الأغراض الدينية، فإذا به يزداد جمالاً وإبهاراً، وكيف لا ؟ وقد استحوذ على العرب من قبل، واجتمع على الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون على السواء !! يسمعه الذين تهيّؤوا للإيمان، فيسارعون إليه خاشعين، ويسمعه الذين يستكبرون عن الإذعان، فيقولون : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة : ١١٠)، أو يقولون : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت : ٢٦)، فيقرّون بالإعجاب الغلاّب من حيث لايشعرون، أو يشعرون ![١] .

إنها ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها، وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب[٢] .

إن الجمال الفني يكمن في هذا البيان المعجز، ومنه الأسلوب الذي تتعدّد أفنانه، وتكثر ألوانه، والذي نحاول في هذا الفصل جاهدين الوقوف فيه على روعة الإبداع وجمال التصوير في أسلوبي الترغيب والترهيب .

والمعروف أن الترغيب إنما يكون بكل مايشوق إلى الاستجابة وقبول الحقّ والالتزام به والثبات عليه .

كما أن الترهيب يكون بكل مايخيف ويحذر من عدم الاستجابة أو رفض هذا الحقّ او عدم الالتزام به أو الثبات عليه .

---

(١) التصوير الفني في القرآن ـ لسيد قطب ـ الطبعة السابعة (٩) .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ لمصطفى صادق الرافعي ـ الطبعة الثامنة (٣٠) .

والملاحظ أن كتاب الله تعالى مليء بما يرغب الناس في قبول دعوة الحق ، وإلى مافيه خيرهم وسعادتهم دنيا وآخرة .

كما أنه مليء كذلك بكل ماينفر الناس من الضلال والكفر ومن اتباع طريق الهوى والشيطان ، طريق الشرور والآثام .

ولئن دلت هذه الكثرة من آيات الترغيب والترهيب في كتاب الله الحكيم على شيء فإنما تدل على أهمية هذا الأسلوب ومنزلته على طريق الهداية والتوجيه .

والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضا الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة .

وأن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه الأليم في الآخرة ، وكان هذا هو نهج القرآن الكريم في كل من الترغيب والترهيب .

وبين مجالي الترغيب والترهيب نجد كتاب الله الحكيم قد أبعد وأعجز في اتخاذ هذا الأسلوب القوي المحكم ، بل الأسلوب السهل الممتنع الذي يلذ الأسماع ، ويلمس شغاف القلوب ، هذا الأسلوب الذي يميز لغة الضاد ، والذي استطاع أن يفتح القلوب حين فتح المسلمون الأمصار ، فإذا أهلوها مبهوتون مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم التي درجوا عليها منذ نعومة أظفارهم إلى لغته الصافية الشفافة ، ولم لا ؟ وأسلوب القرآن دائماً مطرد في جودة الأفهام وروعته مع سهولة لفظه ومتانته وسلامته من التكلف .

وهاهو القرآن الكريم في ملاطفاته يتحدّث عن رحمة الله ومغفرته ، ويبشر بما أعد الله للمؤمنين في الآخرة من نعيم مقيم يأخذ بالمجامع فتتيه فرحاً وطرباً ، في أسلوب ترغيبي رائع ، يترك الضالين في همّ ، لأنهم لم يظفروا بمثل ذلك .

قال تعالى : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (فاطر : ٣٣ ، ٣٥) .

هذا مشهد يصور مالأصحاب الجنة فيها من نعيم مقيم ، وقد تكشف المشهد عن نعيم مادي ملموس ونعيم نفسي محسوس ، فهم يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير ، وذلك بعض المتاع المادي الذي يلبي رغبة الترف في كثير من النفوس ، وبجانبه ذلك الرضى ، وذلك الأمن ، وذلك الاطمئنان ﴿ الحمدُ لله الذي أذهبَ عنا الحَزَن ﴾ .

والدنيا بما فيها من قلق على المصير ومعاناة للأمور تعدّ حزناً بالقياس لهذا النعيم المقيم ، والقلق يوم الحشر على المصير مصدر حزن كبير ﴿ إن ربّنا لغفور شكور ﴾ غفر لنا وشكر لنا أعمالنا بما جازانا عليه من فضله ﴿ الذي أحلّنا دار المقامة ﴾ للإقامة والاستقرار ﴿ من فضله ﴾ فما لنا عليه من حقّ ، وإنما هو التفضل والإنعام ﴿ لايمسّنا فيها نصَبٌ ولا يمسُّنا فيها لُغُوب ﴾ ، بل تجمع لنا فيها النعيم والراحة والسعادة والاطمئنان .

فالجو كلّه يسرٌ وكلّه ملاطفة ، والألفاظ كلها مختارة للنسق بجرسها وإيقاعها مع الجو الحاني الرحيم حتى (الحزن) لايتكأ عليه بالسكون الجازم ، بل يقال : (الحزن) بالتسهيل والتخفيف .

كل هذا في جو روحاني بديع ، وتجلّيات ربانية مشرقة فيها الرضا وفيها الجلال .

فإذا مانظرنا إلى الجانب الآخر رأينا مشهداً مغايراً تمام المغايرة ، ففيه نذير ووعيد بما ينتظر الكافرين : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر : ٣٦ ، ٣٧) .

إنه مشهد يصور التوتر والقلق الذي يعيشه هؤلاء الكافرون ﴿ الذين كفروا لهم نار جهنم ﴾ لقد أصبحت ملكاً لهم لاينازعهم فيها منازع ﴿ لايُقْضَى عليهم فيمُوتُوا ولا يُخفَّفُ عنهم من عذَابها ﴾ منتهى اليأس والقنوط وضيق الحال ، لا راحة تؤاتيهم بموت ولاعذاب يصرف فتعقبه راحة .

نعم إن الموت قد ذبح بين الجنة والنار ، والخلود حاصل لأهل الجنة وأصحاب النار ، وكفى بالمرء داء أن يرى الموت شافياً .

وهنا يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء متناوح من شتى الأرجاء إنه صوت المنبوذين في جهنم ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُون فيها ﴾ .

وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعها فلنتبين ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول ؟ : ﴿ ربَّنا أخرِجنا نعْمَلْ صالحاً غيرَ الذي كنا نَعْمَلُ ﴾ ، إنه الاعتراف بعد فوات الأوان ، ولات ساعة مندم .

وهنا يأتي الرد : ﴿ أولم نعمّركم مايتذكر فيه من تذكّر ﴾ ؟؟

لقد عشتم أمداً فيه معذر ، ولكنكم أضعتم الفرصة سدىً ، ولم تهتبلوا ساعات العمر بالطاعة ، ولم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر وهي كافية للتذكر والذكرى .

« وجاءكم النذير » زيادة في التنبيه والتحذير ولكنكم لم تزدادوا سوى غطرسة وكبرياء .

﴿ فذوقُوا فما للظالمين من نصير ﴾ نعم تجرّعوا غصص ما قدمتم من عناد وكفر وبغي إن حاسة الذوق إنما تكون في الأشياء المستطعمة ، ولكنها هنا مبالغة في التبكيت جاءت في استطعام الألم والحسرة .

إنهما صورتان متقابلتان صورة الأمن والراحة ، تقابلها صورة القلق والاضطراب ، ونغمة الشكر والدعاء ، تقابلها صيحة الاصطراخ والنداء ، ومظهر العناية والتكريم ، يقابله مظهر الإهمال والتحقير ، والجرس الليّن والإيقاع الرتيب ، يقابلهما الجرس الغليظ والإيقاع العنيف .

وهكذا يتم التقابل والتكافؤ ، ويتم التناسق في الجزئيات والكلّيات على حدّ سواء ، وتلك عدالة الله عز وجل .

وهذه صورة أخرى ترغيبية ، يتجلّى فيها فوز المؤمنين بما وعد الرحمن وأي وعد !!

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن

كَانَ تَقِيًّا﴾ (مريم : ٦١ ، ٦٣) .

صورة للجنة هادئة ساكنة رتيبة ﴿ لايسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ﴾ ، فلا فضول في الحديث ، ولافسوق ولا جدال ، إنما هي أصوات تتناسب وهذا الجو الراضي الكريم ، إنه صوت السلام .

أما الرزق فهو مضمون مكفول لا عناء ولاتجشمة في نيله ولا كدّ في إحرازه .

هذا هو الفوز ، وهذا الرضا هو ميراث مكفول لمن كان تقياً .

إنها الدار التي أعدها الله لأبي البشر آدم يتوارثها أبناؤه عنه من كان تقياً ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ .

وننتقل إلى الجانب الآخر لنرى مشهداً لخزي الكافرين الذين ينكرون البعث والجزاء ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم : ٦٨ ، ٧٢) .

إنه منظر يثير السخط والاشمئزاز أن يكون الكفور المحشور مع الشيطان وهم جاثون على الركب حول النار إنهم في انتظار زجهم إلى هذا السجن المهول ﴿ ثم لننزعنّ من كل شيعة أيهم أشد، على الرحمن عتياً ﴾ .

وتتعدّد المشاهد في ذلك اليوم العظيم الأهوال . . .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٤٢ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (الدخان : ٤٠ ، ٥٠) .

نعم لقد تحدد ميقات الحساب والجزاء إنه يوم الفصل ﴿ يوم لايغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ﴾ ، يقضى فيه بين الناس بالعدل .

﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ وما هي ؟ إنها كالمهل :

الرصاص المذاب ، أو الزيت الحار ﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ الماء الشديد الغليان ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ﴾ خذوا هذا الباغي أيها الزبانية ، شدّوه بقوة واسحبوه إلى وسط جهنم ، وهناك صبوا فوق رأسه من الماء الحار الذي يشوي الوجوه ، قمة الإهانة والإيلام والتشويه ﴿ ذُقْ إنّك أنت العزيزُ الكريم ﴾ في أسلوب يحمل كل معالم الترهيب والتخويف .

وفي المقابل صورة المتقين : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (الدخان : ٥١ ، ٥٧) .

هذا هو الثواب : نعيم مقيم ﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴾ إنه مقام آمن لاكدّ فيه ولا نكد ، إنهم منعمون يرفلون في أنواع الحرير ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . قمة التنعم والتلذذ وصبوة العيش أن يلتقي الأحبة في أهنأ عيش وأرغده متقابلين مستأنسين ، كذلك وزوّجناهم بحور عين .

وكذلك تكتمل عناصر السعادة في الجنات الوارفة ، والأنهار الجارية ، والأزواج المطهرة من الحور العين .

﴿ لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ ، هذا فيه مافيه من طمأنة الخاطر فإذا ما أحس الإنسان بالخلود ازداد بهجة ونعيماً .

﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ فهم في وقاية وحصانة منه إنه أسلوب الترغيب والتبشير .

وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف : ٢٩) .

إنها النار تحيط بأعداء الله في هيئة السرادق ، فإن استغاثوا من الحرّ والظمأ كان الغوث ماء كالزيت المغلي يشوي الوجوه والجلود ، بله الحلوق والأمعاء . ﴿ بئس الشرابُ وساءت مرتفقاً ﴾ نعم إنها أسوأ مكان للإقامة

والارتفاق .

وفي المقابل نرى مشهداً آخر هو مشهد المؤمنين في الجنة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف : ٣١) .

هذا هو الجزاء جنات وارفة الظلال تجري بالري واعتدال النسيم . . . نعم الثواب وحسنت مرتفقاً . . . أكرم به من ثواب وأكرم به من نعيم وأحسن بها من صحبة ورفقة ﴿ نعمَ الثوابُ وحسُنَت مرتفقاً ﴾ .

وهذه صورة أخرى أيضاً توضح ما للمتقين عند ربهم من نزل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (يس : ٥٥ ، ٥٨) .

إن أصحاب الجنة مشغولون ملتذّون متفكهون ، وإنهم لفي ظلال مستطابة يستروحون نسيمها وعلى الأرائك متكئون في راحة ونعيم .

وعلاوة على تلك اللذائذ الحسية يأتي التكريم المعنوي ، ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ .

ويتساءل الجاحظ : وهل لهم فراغ أبداً حتى يتشاغلوا ؟؟

ثم يجيب : إنه شغل بأكل فواكه الجنة ، وافتضاض الأبكار ، وزيارة الإخوان على نجائب الياقوت . . .[1] .

وأما المشهد الآخر فهو مشهد الكافرين وهم يتلقون الزجر والتحقير والتأنيب ، وهذا الأمر يصدر إليهم ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ

---

(١) أثر القرآن في تطوير النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري - د . محمد زغلول سلام - الطبعة الثانية (٨٦) .

استفدت في هذا المبحث بكتاب سيد قطب « مشاهد القيامة في القرآن » .

تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ (يس : ٥٩ ، ٦٧) .

وإنه لمشهد عجيب يثير الخيال ويحرك الوجدان حيث تتقلب الأحوال[١] وحيث يواجه الإنسان هذا الحادث الفذ يخذل بعضه فيه بعضاً ، وتشهد جارحة على جارحة ، وتتفكك الشخصية الإنسانية إلى أجزاء وآحاد ، وبينما نحن في دهش لهذا المشهد الفريد العجيب ، إذ هو يحرك خيالنا ليستعرض مشهداً آخر يفرضه جدلاً ، ولكنه يتمثل للخيال واقعاً ، مشهد هؤلاء القوم وقد طمست أعينهم وأطلقوا يستبقون الصراط فهم لايتلمسون ولايتحسسون بل يستبقون ويتخبطون ﴿ فأنى يبصرون ﴾ ؟!

وبينما الخيال مستغرق في تملي هذا المشهد وتتبع حركاتهم فيه وهم عميان مطموسون يتسابقون ويتخبطون ، إذا بحركة جديدة تقف هذه الحركات فجأة ، فهؤلاء هم قد جمدوا في مكانهم واستحالوا تماثيل لايمضون ولايرجعون بعد أن كانوا منذ لحظة عمياناًيستبقون ويضطربون ﴿ ولو نشاءُ لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولايرجعون ﴾ .

وفي قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾ (الهمزة : ٤ ، ٩) .

نعم لقد اكتملت عناصر الصورة بتوالي الصفات وزادها وضوحاً مايسمى في علم المعاني بالاعتراض والتذييل ، وما إليها من الأساليب التكميلية مما يتمم الصورة ويجعلها أشد تأثيراً في نفس السامع[٢] .

إنها النار تحطم العظام وتأكل اللحوم ، حتى تهجم على القلوب ،

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة السابعة (١١٠) .

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري ـ لمحمد زغلول سلام ـ الطبعة الثانية (٣٧٢) .

هذه هي نار الله الموقدة ، إنها مستعرة لاتخمد أبداً ، وفي الحديث : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة »[١] .

﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها.

﴿ إنها عليهم مؤصدةٌ ﴾ : مطبقة مغلقة ، ﴿ في عمَدٍ ممدَّدة ﴾ ، وفي هذا إيذان بالخلود[٢] إلى غير نهاية .

وتحس بالهول والخوف يثيره الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴾ (الحاقة : ١ ، ٣) .

وفهم التهويل من الاستفهام لأنك توحي إلى المخاطب بأن ماذكر لايليق[٣] أن يمر به المرء مرّ الكرام بل من الواجب التريث والتمهّل وفهم حقيقته ومدلوله .

إن الألفاظ بجرسها ومعانيها ، وباجتماعها في التركيب وبدلالة التركيب كله ، تشترك في خلق هذا الجوّ وتصويره فهو يبدأ فيلقيها كلمة مفردة لا خبر لها في الظاهر ﴿ الحاقّة ﴾ ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم ﴿ ما الحاقّة ﴾ ، ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل وإخراج المسألة عن حدود الإدراك ﴿ وما أدراك ما الحاقّة ﴾ ؟

ثم يدعك فلا يجيب على هذا السؤال ، يدعك واقفاً أمام هذا الأمر المستعظم المستهول الذي لاتدريه ، ولايمكن أن تدريه يدعك لحظة مفعم الحسّ بالاستهوال والاستعظام ليدور بك هنيهة حول الموضوع ، مادامت مواجهته غير مستطاعة ![٤] .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٤ ، ٢٥) .

---

(١) الحديث عزاه صاحب صفوة التفاسير إلى الترمذي عن أبي هريرة . .
(٢) صفوة التفاسير ـ للصابوني ـ الجزء العشرون ـ تفسير جزء عم .
(٣) من بلاغة القرآن ـ أحمد بدوي ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر (١٦٤) .
(٤) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة السابعة (٢١١) .

لقد جاءت ألفاظ القيامة والعذاب مروّعة بجرسها ﴿ تظنُّ أنْ يُفْعَل بها فاقِرَة ﴾ ، والفاقرة : الداهية ، والقرآن يثير بهذه الألفاظ استدعاءات وجدانية تروع الناس وتخوّفهم لأنهم اعتادوا أن يقرنوا بين هذه الألفاظ وبين مدلولاتها من الدواهي ، وجاءت في القرآن تؤدي دورها في إثارة معاني الفزع والخوف وتعويد النفوس رهبة القيامة لتبتعد عن المعاصي وتترك الذنوب[1] .

وأرى بأن أختم هذا الفصل بصورة محببة للنفوس صورة الجنة وقد تجلت كالعروس ليلة عرسها ، قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ (الزمر : ٧٣) .

والمعنى : سيقت مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان ، لأنه لايذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بالوافدين على الملوك .

﴿ حتّى إذا جاءوها وفُتحت أبوابها ﴾ ، والحكمة في زيادة الواو هنا ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم ، فتفتح لهم ثم تغلق عليهم ، بخلاف أبواب السرور والفرح ، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها ، فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها[2] .

﴿ وقالَ لهم خزنتها : سلامٌ عليكم طبتُمْ فادخُلُوها خالِدينَ ﴾ ، وقال لهم حراس الجنّة : سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار فادخلوا الجنة دار الخلود . . . خالدين . . .

وجواب إذا محذوف للدلالة على أن لهم من الكرامة والتعظيم مالا يحيط به الوصف[3] والبيان ، وتقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسُرُّوا وفرحوا بقدر مايكون لهم من النعيم .

كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذي لايشوبه التنغيص والتكدير

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي نقلاً عن كتاب معاني القرآن للفراء (٦١) .

(٢) صفوة التفاسير ـ للصابوني ـ نقلا عن تفسير الصاوي .

(٣) صفوة التفاسير ـ للصابوني ـ نقلاً عن تفسير البيضاوي .

وإنما صار[1] الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر ، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر عن الوجه الذي تضمنه البيان .

والطرافة في الآية : في ظهور النكتة بعد الفهم لشرح الجملة ، وإحضار المعنى في أقل مايمكن من العبارة[2] .

وهكذا تشترك مشاهد الأرض والسماء ، ومشاهد النعيم والعذاب ، مع مايقع فيهما من الأحداث ، مع الأحاسيس الفطرية التي تلجىء الإنسان إلى القوة الكبرى عند الشدة . . . تشترك في مخاطبة الحس والعقل ، ولمس البصيرة والوجدان لتركيز عقيدة التوحيد في النفوس ، والثبات عليها ، وتلك هداية القرآن[3] .

وهكذا جاءت آيات الترغيب في القرآن الكريم كلها حث على فعل الخير وأداء الطاعات والاستقامة على أمر الله .

كما جاءت آيات الترهيب في كتاب الله كفاً عن ولوج أبواب الشر والرذيلة وتخويفاً مما يعقبها من آلام ومنغصات ، مما يجعل النفوس حريصة على الاندفاع نحو الخير والفضيلة خوفاً من مغبة التراخي والتفريط .

وهكذا تؤكد آيات الله المحكمات في أسلوبي الترغيب والترهيب أنه كما تقاد النفس عن طريق الرغبة ، فإنها تقاد كذلك عن طريق الرهبة ، ومن هنا تبدو أهمية أسلوب الترغيب والترهيب في الهداية والإرشاد والتقويم .

---

(١) صفوة التفاسير ـ للصابوني ـ نقلا عن مختصر تفسير ابن كثير .

(٢) النكت في إعجاز القرآن ـ للإمام أبي الحسن الرماني ـ ضمن ثلاثة رسائل في الإعجاز ـ تحقيق محمد خلف الله ، ود . محمد زغلول سلام ـ الطبعة الثالثة (٧٧)

(٣) بتصرف من كتاب سيد قطب التصوير الفني في القرآن الطبعة الثامنة (٢٣٢) .

الفصل الرابع

الجانب الخلقي في أسلوب القرآن الكريم

تقديم

هذا الكتاب العظيم الذي أنزله الله دستوراً ومنهج حياة ، نزل على أمّة أميّة لاتجيد القراءة ولا الكتابة منعزلة في جزيرتها ، يغير بعضها على بعض لأتفه الأسباب ، ويستبدّ فيها القوي بالضعيف ، شأنها في هذا شأن الجاهليات البشرية في كل زمان ومكان .

في الوقت الذي عرفت فيه الدنيا اثنتين من القوى الكبرى يومئذ هما الفرس والروم ، ومن العجيب أن ترى هذه الأمة الأمية وهي تحمل لواء المدنية والحضارة والتقدم إلى كلّ أمم الأرض .

فما السّر في هذا التغير المفاجىء الذي هزّ الدنيا وغيّر صفحات التاريخ ؟!

والسر في هذا من الوضوح بمكان يتجلّى في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران : ١٦٤) .

ثم لماذا حملت هذه الأمة هذه الرسالة وهناك من الأمم من هم أقدم حضارة منها ؟!

ولاغرابة في الأمر فقد توافرت في هذه الأمة من المزايا والسمات ماجعلها جديرة بحمل رسالة السماء ، هذه المزايا والخلال هي التي قال فيها رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق » .

إذن فقد وجدت أخلاق ، وقد جاء الرسول ﷺ لإتمامها .

والسؤال : ماهذه الأخلاق التي جعلت ربّ العزة والجلال يصطفي ـ وهو أعلم حيث يجعل رسالته ـ أزكى وأعز رسول منها ومن أكرمها بيتاً ؟! ؟

في الواقع أن هذه الخلال لاتخفى على أي متتبع لتاريخ العرب في جزيرتهم الشماء البكر . . .

إنها خلال يتطلّع إليها كل إنسان ويعتز بها كل منصف ، ويود أن

ينتسب إليها كل من يحترم حقائق الأشياء ، ويجنح إلى العدالة والإنصاف .

من هذه الخلال : الغيرة ، الشجاعة ، الشهامة ، النجدة ، المروءة ، الكرم ، الإيثار ، الوفاء ، حفظ العهد صدق الوعد . . . إلى غير تلك المزايا النبيلة والصفات الجليلة .

أليس بعد هذا كلّه يحقّ لأمة هذه خلالها وتلك مفاخرها أن تعتز بما أسند إليها من هدف نبيل ومغزى جليل هو هداية الإنسانية وإرشادها إلى المنهج القويم والصراط المستقيم ؟

والقرآن الكريم يحث على المكارم ويدعو إلى التحلّي بها ، ولاعجب فهو إنما جاء لتثبيتها وتدعيمها في النفوس ، وآيات الكتاب العزيز جاءت تذخر بهذه الأخلاق ، وتضيف إليها أنبل الصفات وأجلها .

ولامكان للأخلاق بدون عقيدة .

فالعقيدة هي المحرك الذي ترتكز عليه الأخلاق ، فإذا استشعر المسلم بأن هناك رقابة إلهية تشدّه نحو التحلّي بالخلق الكريم وترشده إلى فضل هذا الخلق وعظم ثوابه حينئذ سوف يكون هناك وازع يحضه على التحلي به .

وما الخلق إلا سلوك الإنسان سلوكاً يميز فيه بين الخير والشر ، فيحب الخير ويختاره ، ويمقت الشرّ ويعافه .

سلوك تتضافر فيه جميع قوى الإنسان نحو تحقيق الخير والحرص عليه ، ولن يتأتّى هذا إلا إذا أصبحت الأخلاق هي ذلك النشاط الذي يربط بين تعاليم القرآن وبين الإنسان فرداً وجماعة ، بحيث تتحول هذه التعاليم إلى حياة يومية يعيشها المسلم ويحيا لها وبها . . .

والأخلاق منها ماهو فطري ، ومنها ماهو مكتسب .

هناك مايأتّى على هيئة غريزة تولد مع الإنسان وتنمو بنموه .

وهناك ماهو كسبي يكتسبه الإنسان في حياته ، ومحاولة التحلّي بالأخلاق الكريمة وتعويد النفس عليها والتمثّل بأنبلها وهو مادعا إليه القرآن الكريم ، وحرص عليه الدعاة والمرشدون قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس : ٧ ، ١٠) .

فالنفس البشرية قابلة للتقويم والتعديل ، فمن استنار قلبه بهدي الله انطبع ذلك كلّه على سلوكه ، فكان الإنسان المفلح ﴿ قد أفلح من زكّاها ﴾ ، ومن اتبع داعي الهوى فقد ضلّ وخاب ﴿ وقد خاب من دسّاها ﴾ .

ودليل ذلك هو قوله تعالى : ﴿ فمَن اتَّبعَ هدايّ فَلاَ يضلُّ ولا يشقَى ، ومن أعرض عن ذكري . . . ﴾ .

وأول الطريق في تحقيق الأهداف الخلقية ، إنما هو ضبط النفس بمعيار العبودية لله ، فلا يظهر خلق من أخلاقها إلا في الحدود التي حدّها الله عزّ وجل . ومن أجل ذلك كان منهج التربية الخلقية في القرآن الكريم .

من الجوانب الخلقية في توجيهات القرآن الكريم

القرآن الكريم دستور شامل لمرافق الحياة المختلفة ، فقد ذخرت آياته بالعديد من الجوانب الخلقية التي تشمل الحياة الأسرية ، والاجتماعية ، والدينية ، والدولية ، والفردية .

فمن الناحية الخلقية الأسرية نجد أن ركني ، أو زاويتي الأسرة هما الأب والأم ، وارتباطهما ببعض إنما كان بالعلاقة الزوجيّة المقدّسة .

وهذا الرباط المقدس يعتمد على ركائز لتحقيقه ، هذه الركائز تتمثل في العقد ، وإذن الوليّ والصداق ، وهذا ما أشار إليه القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، فأشار إلى الرباط المقدّس وهو النكاح .

ثم تسترسل الآية : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ إشارة إلى الولي وإذنه ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ إشارة إلى الصداق ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (النساء : ٢٥) .

وفي نفس الوقت يوضّح القرآن أهمية هذه العلاقة وقدسيتها فهي الأساس نحو مجتمع إسلامي خلقي متكامل .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

ثم ماالغاية من هذه العلاقة ؟ إنها علاقة سلام ومودّة ورحمة قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم : ٢١) .

أمر ثان هو انتشار النوع وتكاثر النسل لعمارة الكون ، وخلافة الأرض وتحقيق الغاية من هذا الخلق وهو عبادة الله سبحانه . . .

فإذا ماقامت الأسرة فهناك واجبات وحقوق لكلا الطرفين من

الآخر ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (البقرة : ٢٢٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ (الطلاق : ٦) ، على أن تكون المعاشرة بالمعروف حتى في حال الكراهية .

قال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ١٩) .

فإذا ماتفاقم الخلافُ وزادت حدّته بين الطرفين ، هناك التربية الخلقية التي تقوم على الهجر في المضاجع ، والضرب غير المبرح قال تعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ (النساء : ٣٤) .

فإن لم ينجح ذلك كله فهناك محاولة التحكيم كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (النساء : ٣٥) .

فإذا لم تنجح كل هذه المحاولات ، فإذن لاسبيل إلى استمرار هذه العلاقة مادام قد تسرب التصدع إلى جدار هذا البيت .

وهنا يأتي الأمر الحاسم لإنهاء هذا الرباط حيث لافائدة من استمراره فيأتي الطلاق : « وأبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وهكذا نجد القرآن الكريم يحمي كيان الأسرة من الانهيار في الوقت الذي يعطينا الملامح التي يجب اتباعها في سبيل بناء مجتمع أسري سعيد غايته إرضاء الله ، وسعادته في تطبيق شريعة الله وتنفيذ هذه الغاية ، وهذه هي أخلاق القرآن .

من الجوانب الاجتماعية في توجيهات القرآن الكريم

ومن هذا الجانب نجد التوجيه السليم لبناء متماسك قوامه الترابط والتكافل والشعور المتبادل في المساواة والمحافظة على الحقوق وأداء الواجبات .

وفي هذا الإطار هناك المناهي ، وأيضاً هناك الأوامر .

فمن المأمورات الحفاظ على الأمانة كخلق إسلامي إنساني رفيع .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء : ٥٨) .

وقد كان رسول الله ﷺ وهو أشرف الخلق يوصف « بالصادق الأمين » .

وقد كان ألدُّ أعدائه وهم كفار قريش يشهدون له بذلك ، والحقّ ماشهدت به الأعداء .

وقد امتدح الخالق عز وجل أقرب خلقه إليه بهذه السمة وهم الأنبياء والملائكة .

قال تعالى في شأن نوح عليه السلام : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (الشعراء : ١٠٥ ، ١٠٧) .

وقال تعالى في شأن جبريل عليه السلام في حمله القرآن إلى أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا رسول الله ﷺ : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٥) .

وحسبك بخلق تحلّى به أشراف الخلق وهداة البشرية وحاملو مشاعل الإيمان . . .

والتسامح والصفح والعفو عند المقدرة وأخلاق أحبّها الإسلام وحثّ على التحلّي بها لما فيها من إشاعة الحبّ والمودة في صفوف المسلمين من هنا قال تعالى مخاطباً خير خلقه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف : ١٩٩) .

ولذا لما نزلت هذه الآية سأل رسول الله ﷺ جبريل عنها فقال له : « إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعَك ، وتُعطيَ من حرمك ، وتعفو عمن ظلمَكَ »[1] .

والإيثار خلق إسلامي رفيع لما فيه من تنازل المسلم عن حقه لمسلم آخر عن طيب نفس وسلامة خاطر ودماثة خلق ، من هنا وصف المولى عزّ وجل أهل المدينة المنورة عندما آثروا المهاجرين على أنفسهم ، فقال تعالى فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر : ٩) .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ : والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا في مكارم الأخلاق ، وقد بلغ الأنصار بما لم تشهد له البشرية نظيراً ، وكانوا كذلك في كل حال وفي كل أمر بصورة نادرة في مألوف البشر قديماً وحديثاً ، فرضوان الله عليهم أجمعين .

وهكذا نجد القرآن يرشدنا إلى كل هذه المعاني الخلقية الرفيعة ، والتي لاتدع جانباً من جوانب حياتنا إلا خاضته وأرشدتنا إلى الأحسن منه . . .

وفي الوقت الذي يرشدنا كتاب الله إلى مافيه صلاحنا من مأمورات ، يتعرض لبعض المنهيات والتي في البعد عنها سدادنا في الدنيا والآخرة .

لنأخذ من هذه الصور الظلم ، فقد نهى تعالى عن الظلم ، يقول تعالى : ﴿ إنّه لايُحبّ الظّالمينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان : ١٩) .

وفي حديث قدسي طويل يقول الله سبحانه: «يا عبادي ، إني

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ـ المجلد الرابع الناشر المكتب الإسلامي بيروت . (١٤٨) .

وهو هكذا بنصه : عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله فابتدأته فأخذت بيده ، فقلت : يا رسول الله ، أخبرني بفواضل الأعمال ، فقال : يا عقبة ، صِلْ من قطعَك وأعطِ من حرمك وأعرض عمن ظلمك .

حرمتُ الظلمَ على نفسي ، وجعلته بينكم محرّماً فَلا تَظَالموا »[1] .

فناهيك بخلُق حرمه جبّار السموات والأرض على نفسه ، وهو الذي لا آمر له ولا ناهي يكفيه بشاعة ومقتاً ، أن حرمه الله سبحانه على نفسه ثم أصدر سبحانه الأمر بتحريمه على عباده في صورة النهي قائلاً سبحانه « فلا تَظَالموا » .

كل هذا التشديد والوعيد على النهي عن الظلم لما فيه من خطورة واستبداد واضطهاد وقمع يؤدي إلى شياع الحقوق وتدهور المجتمعات وتفشي الضرر في المجتمع حيث تشيع التعاسة والشعور بالإحباط ويقوض بنيان المجتمع ويؤدي إلى تصدّع جدرانه .

وما أصدق ماقاله الشاعر في هذا :

لاتظلِمنّ إذا ماكنتَ مقتدراً فالظُلْمُ آخرُهُ يأتيكَ بالندمِ
تنامُ عيناكَ والمظلومُ منتبهٌ يدعُو عليك وعينُ الله لم تَنَمِ

والغيبة والنميمة خلقان ذميمان نهى الإسلام عنهما ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الحجرات : ١٢) .

فقوله تعالى : ﴿ ولايَغْتَبْ بعضُكم بعضاً ﴾ مشهد تتأذى له أشد النفوس كثافة ، وأقل الأرواح حساسية ، مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتاً . . . !

ثم يبادر القرآن فيعلن أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب !

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة ، فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب ويتشدّد فيه

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه تحت كتاب « البرّ والصلة والآداب » ، باب تحريم الظلم ـ الطبعة الأولى ـ الجزء الرابع ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (١٩٩٤) ـ دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه .

والإمام مسلم هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري . (٢٠٦ـ٢٦١) هـ .

رسول الله ﷺ متمشياً مع أسلوب القرآن الكريم في إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض .

ففي حديث عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الغيبة فقال ﷺ : « ذكرُك أخاكَ بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال ﷺ : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ماتقول فقد بهتّه »[1] .

وروى أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عُرج بي إلى السماء ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم . قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم »[2] .

ولما اعترف ماعز بالزنا ، وكذلك الغامدية رجمهما رسول الله ﷺ بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه في تطهيرهما ، سمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الحمار !

ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال : « أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » قالا : غفر الله لك يارسول الله ! وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : « فما نلتما من أخيكما آنفاً أشدّ أكلاً منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها » .

والله سبحانه يحذر من هذا الخلق في أكثر من آية ، لما فيه من سوء المغبة والخاتمة والعياذ بالله .

وما أصدق ما قاله الشاعر وأحسنه حيث يقول :

احـذرْ لسـانَـك أيهـا الإنسـان لايَلْـدَغَنَّـك إنـه ثُعْبـانُ
كـم في المقـابـرِ مـن قتيـلِ لسـانِـه كـانَـتْ تهـابُ لسـانـهُ الشجعـانُ

هذا وقد ربط الإسلام الفرد بوشائج وعلاقات منها ما يتصل بالفرد

---

(١) الحديث في سنن الدارمي ـ الجزء الثاني ـ باب ما جاء في الغيبة (٢٩٩) ـ الناشر : دار إحياء السنة النبوية .

(٢) الحديث في سنن أبي داود ـ الجزء الخامس ـ الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ (١٩٤) تحت باب الأدب .

وربه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء : ٢٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (النساء : ٣٦) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ (الرعد : ٣٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الحج : ٢٦) .

ومنها مايتصل بأسرته ، وهذه العلاقة تتحدد مساراتها في عدة اتجاهات منها مايتعلق بعلاقة الفرد بأبويه ، وقد حدد الإسلام المسار نحو علاقة قدسية ثابتة في تعامل الفرد مع أبويه ، فإن للأبوين شأناً وأي شأن ، فلم يقرن المولى عز وجل بعبادته غير بر الوالدين .

قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (الإسراء : ٢٣ ، ٢٤) .

فعلى كلا الطرفين من الرجل والمرأة طاعة الأبوين والبر بهما وصلة الرحم التي لاتوصل إلا بهما ، وكما تدين تدان ، كما جاء في الآثار : « بِرّوا آباءكم تبرّكم أبناؤكم وعفّوا عن نساء الناس تعفَّ نساؤكم »[1] .

كيف وقد قرن الفوز برضاء الله ودخول الجنة برضاهما ، كما قال ﷺ : « رغم أنفه ، رغم أنفه ، رغم أنفه ، قيل : من يارسول الله ؟ قال : من أدرك والدَيه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة »[2] .

---

(١) الحديث رواه الطبراني.

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ـ باب رغم أنف من أدرك أبويه ـ الجزء الرابع ـ الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ ص (١٩٧٨ .

بل لقد حث المولى على الإحسان إليهما حتى في حال كفرهما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت : ٨) .

بل لقد قرن ﷺ عقوق الوالدين بالكبائر وأكبرها ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ؟ قلنا : بلى يارسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكرّرها حتى قلنا : ليته ـ يعني سكت »[١]

ومنها مايتصل بالفرد في إطار مجتمعه من هنا وسع نطاق التراحم الأسري من خلال الواجبات المنوطة بالرجل والمرأة على حد سواء حتى يفيد المجتمع من أخلاق الأسرة ووحدتها وترابط أعضائها وتعارفهم على الرحمة والمودة ، فيكثر المتحابّون ويزيد عددهم ، وتصلح البيئة للوصال والتعاون على البر والتقوى وتتهيّا للمحبة واللقاء على الخير ونبذ الضغائن والأحقاد ، فإنه لايصح لأحد في المجتمع المسلم الذي تهيأت له هذه البيئة أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، كما أشار إلى ذلك ﷺ بقوله : « لايحلّ لمسلم أن يهجرَ أخاه فوق ثلاثِ ليالٍ ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الحجرات : ١١) .

نعم إن دعائم المجتمع الفاضل هي التوازن في المعاملة ومراعاة واحترام مشاعر الآخرين ﴿ يأيها الذين آمنوا لايسخَرْ قومٌ من قومٍ ﴾ توجيه

(١) الحديث رواه البخاري تحت باب عقوق الوالدين من الكبائر من كتاب الأدب ـ الجزء الرابع ـ الطبعة ١٣٧٢ هـ (٣٥) ملتزم الطبع والنشر مصطفى البابي الحلبي بمصر .

(٢) الحديث في سنن أبي داود ـ كتاب الأدب ـ باب فيمن يهجر أخاه المسلم ـ (٢١٤) ـ الجزء الخامس ـ الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ .

سليم سديد نحو الخلق الفاضل .

وانظر إلى النداء الرباني الجميل العطوف : ﴿ يأيها الذين آمنُوا ﴾ بهذا النداء الحبيب ينهي القرآن أن يسخر قوم من قوم ، وفي التعبير إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الجنسان الرجال والنساء في أنفسهم ، والتي يزن العباد بعضهم بعضاً بها ، كأن يسخر الغني من الفقير ، والقوي من الضعيف ، وفي النساء تسخر الحسناء من القبيحة ، والشابة من العجوز ، هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس ، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين ، إن ميزانه تعالى (هو التقوى) .

ثم تأمل كلمة ﴿ ولا تلمِزُوا ﴾ « واللمز : العيب » لفظة ذات جرس أخاذ ، فكأنما هي وخزة حسية « لا عيبة معنوية » .

والآية بعد الإيحاء بالقيم الحقيقية في ميزان الله ، وبعد استجاشة شعور الأخوة ، شعور الاندماج في نفس واحدة ، تستثمر معنى الإيمان وتحذّر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم والانحراف عنه بالسخرية واللمز والتنابز ، شيء يشبه الارتداد عن الإيمان .

ثم في نداء حبيب متكرر يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾ (الحجرات : ١٢) ، سياج آخر لحماية المسلم ، فلا ينبغي أن تترك النفوس نهباً لكل هاجس حول الآخرين وباجتناب الإنسان لهذه الظنون يكون قد طهّر ضميره من داخله أن يتلوث بالظن السيّيء فيقع في الإثم ، وإنما الضمير النظيف هو الذي يكنّ الخير للآخرين فلا يخدشه ظن سوء ولا تلوثّه ريبة أو شك ، وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون ! .

ولكن الأمر لايقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب ، بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل ، فلا يصبح الظن أساساً لمحاكمتهم ، كما قال ﷺ : « إذا ظننتَ فلا تحقّق » .

ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء مصونة حقوقهم وحرياتهم حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا مايؤاخذون عليه ، فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم .

﴿ ولاتجَسَّسُوا ﴾ مقاومة إسلامية لهذا العمل الدنيء من الناحية الخلقية ، ففي المجتمع الإسلامي الرفيع يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على بيوتهم ، آمنين على عوراتهم .

حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لاتصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس ، فالناس في ظواهرهم وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم .

ثم يعرض القرآن مشهداً تتأذى له كل الناس مؤمنين وكافرين، مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتاً ، ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب .

ثم يعقب على كل مانهاهم عنه في الآية من ظنٍ وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى والتلويح لمن اقترف من هذا شيئاً أن يبادر بالتوبة تطلعاً للرحمة ﴿ واتَّقُوا الله إنَّ الله تَوّابٌ رحيمٌ ﴾ .

وبذلك توضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم ، ويمثل هذا العلاج الثابت تظهر المجتمعات الإسلامية وترتفع[١] .

---

(١) استفدت من كلام الشهيد سيد قطب في هذا كثيرا على ضوء كتابه القيم « تفسير الظلال . . » .

بين الراعي والرعية في توجيهات القرآن الكريم

وكما حدد الإسلام العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بي الراعي والرعية في إطار بناء كيان إيماني رفيع.

ففي علاقة الراعي مع الرعية ينبغي عليه ألا يغفل المشورة وما لها من دور بناء، كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩). فإذا تم تبادل وجهات النظر في جوٍّ حرّ خالٍ من الدكتاتورية وعن اقتناع من مجموع الأمة، بدأ التنفيذ وإمضاء القرار ﴿ فإذا عزَمْتَ فتوكّل على الله إن الله يحبّ المتوكّلين ﴾.

كما ينبغي على الحاكم أن يتحرّى العدل ومراقبة الخالق في كل صغيرة وكبيرة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء: ٥٨).

أيضاً على الحاكم المحافظة على أموال المسلمين وعدم تبديدها فيما لايعود عليهم بالنفع والفائدة ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦١).

أيضاً للأقليات داخل المجتمع المسلم حقها في الحرية طالما أنها ملتزمة بتعاليم المجتمع المسلم.

قال تعالى: ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة: ٤٢).

هذا مايتعلق بالراعي...

أما الرعية فيجب عليها المحافظة على النظام الإسلامي لتمضي عجلة الحياة في مسارها الطبيعي نحو حياة إسلامية سعيدة في إطار مجتمع إسلامي سعيد.

قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الحشر : ٧) .

والاتحاد والتلاحم بين الراعي والرعية طبقاً لأمر الله : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ (آل عمران : ١٠٣) .

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم : ٣١ ، ٣٢) .

وإذا كان الحاكم مطالباً بمشاورة الرعية ، كذلك على الرعيّة التشاور فيما بينها في إطار الصالح العام ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى : ٣٨) .

مع تجنب الفساد : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف : ٥٦) .

توجيهات قرآنية في معاملة غير المسلمين

برزت توجيهات القرآن واضحة في معاملة غير المسلمين في منهجها ـ وفي أسلوبها ـ وقد أخذت هذه التوجيهات أشكالاً متعدّدة .

فعن إعداد القوة للذود عن حياض الإسلام قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

مع تجنب موالاة العدو أوالتعامل معه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (الممتحنة : ١) .

الحقوق المطالب بها المجتمع المسلم في حالة السلم والحرب

في حالة السلم :

وقد طولب المجتمع المسلم ببعض الحقوق التي تظهر عدالته وحبه للخير في حال السلم والحرب ، فمنها في حال السلم :

الموعظة : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (النحل : ١٢٥) .

دون إكراه : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

ولا إثارة للكراهية : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام : ١٠٨) .

مع ترك الاستعلاء والظلم والفساد : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص : ٨٣) .

مع حسن الجوار والعدالة والبر : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة : ٨) .

وفي حالة الحرب :

عدم مبادرة الشر : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (المائدة : ٢).

عدم القتال في الأماكن المحرمة المقدسة : ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة : ١٩١) .

كما أن للحرب شروطاً ومواصفات تلتزم في حالة الدفاع عن النفس : ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ (النساء ٩١) .

مساعدة المستضعفين : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء : ٧٥) .

قتال المتقاتلين وحدهم : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٠) .

ولا هروب من ملاقاة المعتدين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ (الأنفال : ١٥) .

الثبات والوحدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال : ٤٥ ، ٤٦) .

الصبر والمصابرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) .

لا استسلام : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد : ٣٥) .

الوفاء بالمعاهدات المبرمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ (المائدة : ١) .

مواجهة الخيانة بحزم : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (الأنفال : ٥٨) .

وهكذا نجد أن الجوانب الخلقية في توجيهات القرآن قد تعددت مظاهرها وهي في كل منحى تعطينا سمات حقيقية في التعامل الفريد الذي يقودنا إلى حياة فاضلة كريمة تضمن لنا السعادة نحو مجتمع إسلامي جدير بأن يحمل بهذه التوجيهات الإلهية . . . اسم الإسلام . . . [١] .

---

(١) استفدت في هذا المبحث بكتاب دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز .

توجيهات خلقية فريدة تنفرد بها سورة الحجرات

وإذا أردنا أن نتمثل الجانب الخلقي في القرآن وفي كيفية تعامل المسلم مع ربه ومع نبيه ﷺ ومع مجتمعه ، فإن سورة الحجرات تعتبر منهجاً مستقلاً في هذا الجانب الخلقي حيث تبرز فيها صور وضيئة من صور الأدب في التعامل ، وصور من التوجيه القويم .

ففي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الآيات (٢ ، ٣) .

إن هذه السورة لاتتجاوز ثماني عشرة آية ، سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية ، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقاً عالية وآماداً بعيدة ، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهذيب ، ومبادىء التشريع والتوجيه مايتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات . وهذا هو الفارق بين آيات الله وأقاويل البشر .

وأول مايبرز للنظر عند مطالعة السورة هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة ، لعالم رفيع كريم نظيف سليم ، متضمنة القواعد والأصول والمبادىء والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم ، والتي تكفل قيامه أولاً ، وصيانته أخيراً . . . عالم يصدر عن الله ويتجه إلى الله ويليق أن ينتسب إلى الله عالم نقي القلب نظيف المشاعر عف اللسان ، عف السريرة ، عالم له أدب مع الله ، وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره ، أدب في هواجس ضميره ، وفي حركات جوارحه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ آية (١) .

أدب يتمثل في الإذعان والتسليم لأوامر الله ، فلا إرادة للعبد مع

إرادة الله ، تقوى منه وخشية وحياء منه وأدباً .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الآيات (٢ ، ٣) .

هذا هو أدب المخاطبة مع سيدنا رسول الله ﷺ لزوم الاحتشام وغض الصوت والتزام السكينة والوقار مع سيد الخلق ﷺ ، إن التزام هذا السلوك تجاه حبيب الله دليل على الحب والإكبار والتعظيم ، وهذا ماينبغي أن يتحلى به المسلم مع الحبيب الأعظم .

كيف وقد أحبه ربه وأكبره وبره ، فقال يخاطب حبيبه في لهجة كلها تعاطف ورقة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

ومن كان هذا شأنه مع مولاه .

فمابالك بأمته معه ؟ أليس أقل مايجب علينا تجاه حبيبنا ورسولنا هو أن نخفض الصوت ونلزم الأدب معه .

حينئذاك تكون القلوب قد أثبتت حبّها وبرها واعترافها بالجميل للرحمة المهداة ، وتفوز بالرضا والغفران ﴿ أولئكَ الذين امتحنَ الله قلوبَهمْ للتقوى لهم مغفرةٌ وأجر عظيم ﴾ وإلا والعياذ بالله كانت الخسارة والنكران ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ﴾ .

وقد عرف علماء هذه الأمة الأدب مع رسول الله وقالوا : إنه يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته ﷺ احتراماً له على كل حال .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ الآية (٦) .

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى

ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٞ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الآيات (٩ ، ١٠) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٞ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرٗا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرٗا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتٗا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ الآيات (١١ ، ١٣) .

وتتوالى التوجيهات في ثنايا هذه السورة الكريمة وهي ترسم العديد من الحلول لكثير من الملابسات والظروف التي تعترض مسيرة الحياة وماينبغي أن يتخذ حيالها من معالجات .

ومن هذا المنطلق تأتي الدعوة إلى التثبت في الأمور والتؤدة في علاج الأحداث فقد يتسرع الشخص في مواجهة موضوع « ما » ثم يتبين له أنه قد جانب الحكمة في تسرعه هذا .

ولعل أكبر شاهد قصة الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين تقوّل على بني المصطلق ، وقد بعثه رسول الله ﷺ لأخذ الزكاة منهم فوقع في نفسه فرق وهو في الطريق وظن بأن القوم سيوقعون به فعاد إلى رسول الله ﷺ مدعياً بأن القوم منعوا الزكاة وأرادوا قتله ، فبعث لهم رسول الله ﷺ بعثاً بقيادة خالد بن الوليد ، وإذ بالأمر محض افتراء ، من هنا نزلت الآية التي تشنع على الوليد فعلته وتدعو المجتمع المسلم إلى التريث في اتخاذ القرار ، فإن بعض الظن إثم .

على أنه يبدو أنه كان هناك اندفاع من بعض المسلمين عند سماع الخبر الذي نقله الوليد ، وذلك حمية من هذا الفريق لدين الله وغضباً لمنع الزكاة ، وهو حماس مشكور بيد أن نتائجه كادت تكون وخيمة .

بيد أن عناية الله التي تظل هذا المجتمع تأبى عليه أن يقع ضحية هذا

الافتراء المكذوب فانكشفت هذه الكذبة واتضح الحقّ في الوقت المناسب .

وكيف يتسنّى لمثل هذه الكذبة أن تنطلي في الوقت الذي يعيش فيه المجتمع صلة الأرض بالسماء ﴿ واعلَمُوا أن فيكم رسول الله . . . ﴾ .

فلاد تكاد تصدر قولة أو تقع فعلة أو تسري خالجة حتى يطلع علام الغيوب عليها رسوله الكريم ﷺ فما كان ينبغي أن يغيب عن الوليد أو غيره هذا حتى يتجرأ ويجانب الجادة . . .

وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك تحت النزوات والاندفاعات .

وهذه القاعدة تأتي تعقيباً على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة قبل التثبت والاستيقان .

وبهذا يشيع روح الأمن والاستقرار والحب في هذا المجتمع المسلم ، ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلُوا فأصلحوا بينهما فإن بغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . . . ﴾ .

إن روح الإسلام هي العدل والإخاء ، وهذا لايتأتى إلا بالإنصاف ، ومن هنا حين يحصل خلاف بين أفراد هذا المجتمع فينبغي أن يعالج بالحكمة والروية والإنصاف في إطار العدل والإصلاح .

فإن عدل أحد هذه الجماعات عن العدل وآثر البغي والإسراف في اللجاجة والعِناد ، فحينئذ ينبغي الضرب على يد الظالم تحت قاعدة قويمة هي : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . أي : بالأخذ على يد الظالم ، فإن فاءت هذه الفئة فالصلح بالعدل والقسطاس والصلح خير .

تلك هي النتيجة الحتمية لروح هذا المجتمع الذي تسوده علائق المودة والمحبة والإخاء .

إنه مجتمع مكين قوامه الحب والإيثار ، وشعاره التفاني في حب الله ورسوله وإعلاء كلمته ، وهدفه إشاعة روح العدل والوفاء .

إنها صور حية تستجيش المشاعر المؤمنة ، وتستثير مكامن الترابط والألفة بين جماعات المجتمع المسلم ﴿ إنما المؤمنون إخوةٌ ﴾ ،

وهل يتقاتل الإخوة ؟ إنها إذن معركة خاسرة ، لأن الدماء واحدة ،

والروح واحدة ، والفئة واحدة ، والرحم واحدة .

فكيف يستساغ مثل هذا العمل المشين إنها جريمة لاتغتفر فلا عذر ، إن مايترتب على هذه الأخوة هو الحبّ والسلام والدفء والاطمئنان والأمن والأمان ، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الآية (١٠) .

ويستمر النداء الحبيب ﴿ يأيها الذين آمنو ﴾ ليستجيش النفس كي تلتفت لتلقي مايأتي بعد هذا النداء ﴿ لايسخَرْ قومٌ من قومٍ ﴾ .

نعم لاينبغي أن نلجأ لهذا الأسلوب المنحط غير المسؤول إن المجتمع الإسلامي مجتمع ذو أدب رفيع ، ومثل هذه التصرفات لاتليق به ، على أن ماينبغي أن يلفت النظر إليه أن السخرية والتلامز تصرفات مشينة ، وهي نابعة عن ضعف في الاعتقاد وإلاّ فما يدريك أن من تسخر منه لضعف أو سوء حال أو مرض . . . هو في ميزان الله خير منك أيها الساخر الشامت ﴿ عسى أن يكن خيراً منهم ، ولانساءٌ من نساءٍ عسى أن يكونّ خيراً منهن ﴾ .

﴿ ولاتلمِزوا أنفسكم ﴾ لفتة كريمة وإيحاء دقيق بأن هذه النفس التي لمزت وعيبت ماهي إلا نفسك أيها المؤمن ، لأن المؤمنين إخوة وجسد واحد ، وكيف يجرؤ الإنسان على الإساء إلى نفسه والحط من قيمتها ؟ من هنا فينبغي أن نصون كرامتنا ، ونحفظ لأنفسنا عزتها ووحدتها بالابتعاد عن هذه المهاترات والتصرفات القبيحة ﴿ ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابزوا بالألقاب ﴾ ومن هنا قال الشاعر :

أُكْنِيْـهِ حينَ أُنـاديـهِ لأُكْـرِمَـهُ وَلاَ أَلقِّبُـهُ والسَّـوأةُ اللقـبُ

وقد حرص سيد الخَلْق ﷺ على تغيير كثير من هذه التسميات ، فغيرّ ما رآه من أسماء قد تُزري بأصحابها وتصفُهم بوصف ذميم .

إنه حسّ مرهف ونفس شفافة لاترضى بالأذى ولاتقر الشَّين إنها نفس تدعو إلى الكمال في كل تصرفّاتها وصدق الله القائل : ﴿ وإنّكَ لعَلى خُلُقٍ عظيم ﴾ . ﴿ يأيها الذين آمنوا اجتَنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظنّ إثمٌ ولاتجسَّسوا ولايَغْتَبْ بعضُكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكلَ لحم أخيه ميتاً

فكرهتموه ؟ واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ آية (١٢) .

هذا هو المجتمع الفاضل إنه مجتمع يقدر كرامات أفراده ويحرص على مشاعرهم وحرياتهم .

من هنا فلا ينبغي أن يدع نفسه نهباً للتخرّصات والظنون فيشك في هذا ويظن في ذاك أن البراءة الأصلية هي شعاره وحسن الظن بالناس المؤمنين هو ديدنه وهاجسه .

إنه مجتمع يحرص على طهارة الضمير والوجدان أن تتلوث بالظن السيّىء ، إنه مجتمع نقي بريء من الهواجس والشكوك يكنّ لإخوانه المودّة التي لايخدشها ظنّ سيىء وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون !

﴿ يأيّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظن إثم ﴾ .

﴿ ولاتجسّسوا ﴾ وما التجسّس إلا داء وبيل، لأنه كشْف لعورات الناس وتتبُّع لأسرارهم ، وهو عمل منبوذ من الناحية الخلقية ترفضه كل نفس أبيّة مؤمنة .

فالإسلام دين الستر ودين الإقالة ، وما هو بالذي يحرص على انتهاك الحرمات أو هتك العورات ، وهذا العمل مرفوض من جانبه .

إنه دين يكفل حرية الفرد والجماعة في إطار الحفاظ على نفسه وبيته وسرّه وعورته ، ورسولنا الكريم هو الذي يقول : « من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موؤودة من قبرها »[1] .

ويروى أنه أتي ابن مسعود فقيل له : « هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال عبد الله : إنّا نهينا عن التجسّس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به » .

إنه سياج يضرب لحماية أمن هذا المجتمع ، فلا دخيلة ولاحفيظة ولاتجسّس ولاارتياب مجتمع نقي راشد .

ثم يأتي بعد ذلك النهي عن الغيبة في تعبير عجيب يُبدعه القرآن إبداعاً ﴿ ولايغتب بعضكم بعضاً ﴾ ، وما الغيبة ؟ هي : أن تذكر أخاك بما يكره .

---

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده ـ المجلد الرابع ـ الناشر : المكتب الإسلامي ـ بيروت (١٤٧).

ثم يعرض القرآن مشهداً تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية مشهد الأخ يأكل لحم أخيه . . . ميتاً . ؟!

ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب (فكرهتموه) .

﴿ واتقوا الله إن الله توّاب رحيم ﴾ .

هكذا التقوى هي السياج ، واتقوا الله فسارعوا بالتوبة إن الله تواب رحيم ، إنها دعوة إلى نقاء السريرة وصفاء النية وسلامة الطوية حتى تنعكس هذه السمات على الجوارح فتتمثل عظمة الخالق ، فتظل في مراقبة مستمرة له في كل تصرّف وكل اتجاه .

احفظْ لسانَك أيّها الإنسان لايلدّغنّكَ إنه ثعبانُ

« وهـل يكـب النـاس على وجـوههـم في النـار إلا حصـائـد ألسنتهم »[1] .

وهكذا يهتف بنا القرآن في هذا الأسلوب البديع في دعوى صريحة إلى إزالة الضغائن وإزالة الفوارق وموارات أسباب الخلاف والنزاع ، لترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس ويتحاكم إليها البشر . . .

إنها دعوة إلى محاربة العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها لإقامة نظام إنساني عالمي في ظل راية واحدة هي راية الإيمان ، وفي ظلّ إلّه واحد هو ربّ العزة والجلال ، وفي ظل نبي كريم واحد هو سيد الأنبياء والمرسلين ، وفي ظلّ دين واحد هو الإسلام .

﴿ يأيها الناسِ إناخلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ آدم أبونا وأمنا حواء ، ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا ﴾ إنكم من أصل واحد فلا تختلفوا ، ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبيرٌ ﴾ .

وهكذا فالميزان الذي توزن به الكرامة وتكون به الرفعة هو ميزان التقوى ، والله عليم خبير بأعمالكم وأفعالكم وأخباركم وأشراركم ، إنه ميزان تذوب في كفّته الأجناس والأعراق والألوان والعصبيات ، هو ميزان

---

(١) الحديث رواه ابن ماجة في سننه ـ في كتاب الفتن ـ الجزء الثاني ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ ص (١٣١٤) .

العمل الصالح .

فلا راية لوطنية ، ولا لقومية ، ولا لعرقية . . .

وكما قال ﷺ : « دعوها فإنها منتنة »[1] .

وقال ﷺ : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهينّ قومٌ يفتخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعل »[2] .

هذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع المسلم ، قاعدة ثابتة ومتينة ، إنها شريعة الله ، شريعة الله حاكمة .

ورحّبَ الناسُ بالإسلامِ حينَ رَأَوا أنّ الإخـاءَ وأن العـدلَ مغـزاهُ

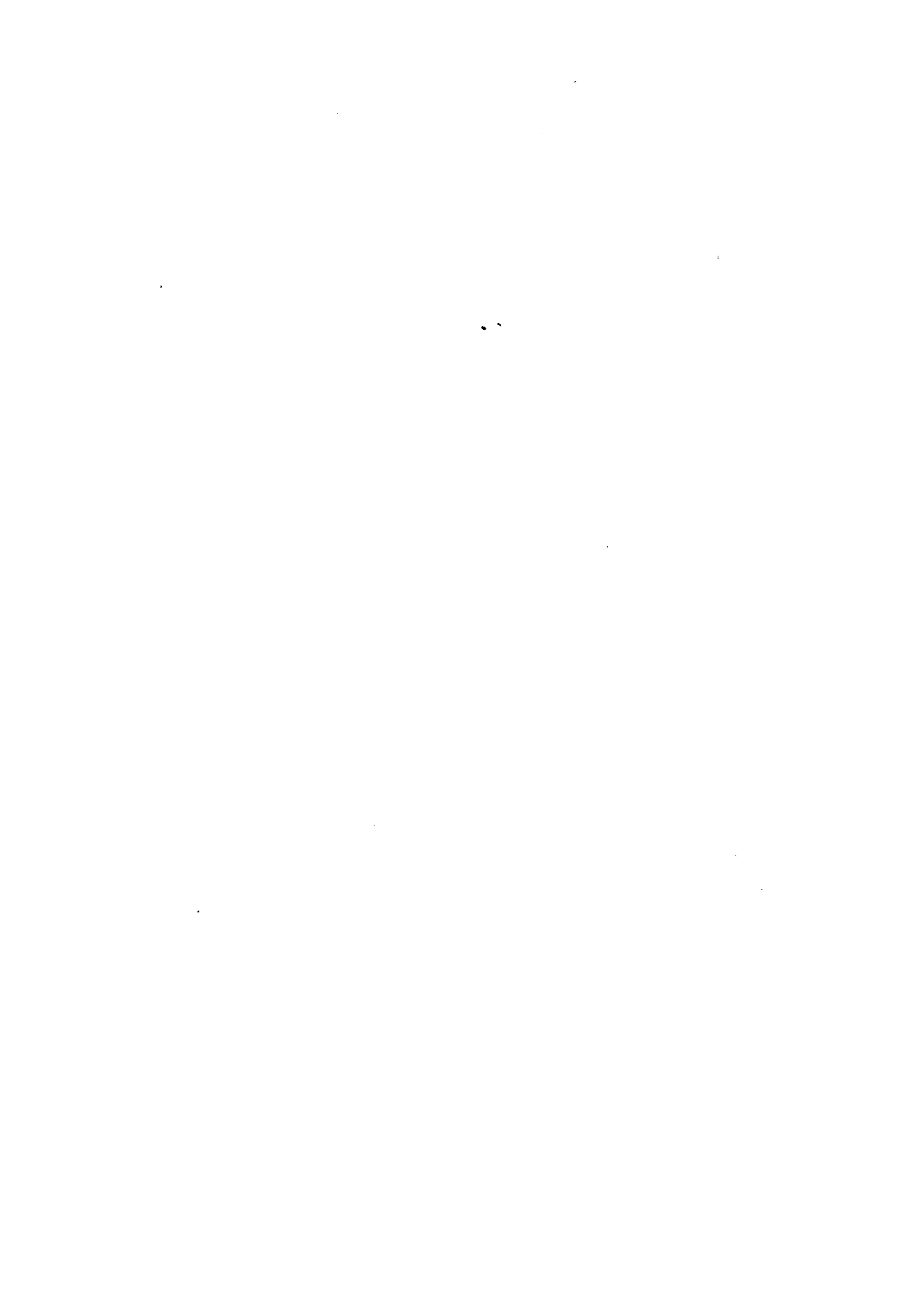
---

(١) الحديث بتمامه رواه مسلم في صحيحه تحت باب « نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً » ، كتاب البرّ والصلة والآداب ، الجزء الرابع ـ الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ صفحة (١٩٩٨) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) الحديث رواه الترمذي في السنن في المناقب :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم ، أو ليكونُنّ أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرءَ بأنفه ، إن الله قد أذهب عنكم عبيّة الجاهلية ، إنما هو مؤمن تقي ، وفاجر شقي . الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب » . الطبعة الثانية ـ الجزء الخامس (٧٣٤) .

استفدت في هذا المبحث من تفسير سيد قطب العظيم « في ظلال القرآن » . سورة الحجرات الى آية (١٣) .



الباب الثالث

الإعجاز البياني في أسلوب القرآن الكريم

الفصل الأول :

أسلوب الجدل والحوار

الفصل الثاني :

القسم في أسلوب القرآن

الفصل الثالث :

الأمثال في الأسلوب القرآني

الفصل الرابع :

أسلوب القصة في القرآن الكريم

الفصل الخامس :

الصور البيانية في أسلوب القرآن الكريم
التشبيه ، الاستعارة ، الكناية

الفصل الأول

أسلوب الجدل والحوار

تقديم

خاطب القرآن الكريم الناس جميعاً على اختلاف عقولهم ومشاربهم ، وقبل أن نتحدث عن أسلوب الجدل القرآني كان لابدّ أن نشير إلى أصناف الناس ، حيث الطبائع تختلف والنزعات تتفاوت ، فمن الناس من يصدق بالبرهان ولا يرضيه إلا قياس تام أو ما يجري مجراه وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية ، وهؤلاء هم الذين أمر الله نبيّه بمخاطبتهم بالحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل : ١٢٥) .

وهناك من الناس من غلب عليه مذهب ديني أو غير ديني قد استأثر بلبه فسد عليه مسالك الإدراك إذ استولت عليه نحلة مذهبية فتعصب لها ، والتعصب يعمي ويصم ويجعل النفس لاتستسيغ الحق إلا بمعالجات عسيرة ، وهؤلاء لابدّ لهم من طريق جدليّة تزيل ما ألبس عليهم .

ولعل هذا الصنف هو الذي أمرنا الله سبحانه أن نجادلهم بالتي هي أحسن ، كما قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

أما الجمهور الأعظم من الناس فليسوا من هؤلاء ولا أولئك بل هم في تفكيرهم أقرب إلى الفطرة فيهم سلامتها وفيهم سذاجتها وفيهم إخلاصها وبراءتها .

نعم هؤلاء يخاطبون بما يغذي الفطرة وبما يثيرها ويوجهها إلى السبيل الأقوم ، وكذلك سلك القرآن الكريم ، فالمتدبر لآياته والمفكر في مناهجه يجد فيها مايعلّم الجاهل وينبّه الغافل ويرضي نهمة العالم ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (الأنبياء : ٣٠) أليس في هذا إقناع للعقول المتدبّرة على عظيم صنع الله تدركه بأسهل بيان وأبلغه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون : ١٢ ، ١٦) .

ثم تدبر هذه الآيات البيّنات تجد أن الأمي يستفيد منها علماً غزيراً فوق أن يعرف منها أن الله سبحانه سيبعث الناس يوم القيامة فيزداد إيماناً ، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الإنسان فيرى فيها دقّة العلم والتكوين حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء في أوروبا فاعتقد أن النبي ﷺ أعظم طبيب رأته الأجيال السابقة ، فلما علم أنه كان أمياً لايقرأ ولا يكتب آمن بأن هذا من علم الله سبحانه .

أسلوب الجدل في القرآن الكريم

تعريف الجدل :

الجدل : هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم .

أصله من : جدلت الحبل : أي أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه ، وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف : ٥٤) . أي : خصومة ومنازعة .

وأمر الباريء سبحانه رسوله ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم ، قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : ١٢٥) .

كل هذه المناظرات التي تهدف إلى إظهار الحق وإقامة البرهان على صحته ، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين ، بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة[1] .

هذا وإذا كان القرآن الكريم قد دعا إلى المحاجة والجدال بالتي هي أحسن إلا أنه يورد ذلك كله دون اللجوء إلى طرق الجدليين ، وإنما يسوق الحجج والبراهين بأسلوب منطقي ميسور .

ولعل السبب في هذا كما ذكره الإمام الزركشي هو كما يقول : « اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلّة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقليّة والسمعيّة إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قاله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم : ٤) .

---

(١) مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان الطبعة الثامنة (٢٩٩) .

الثاني : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لايعرفه إلا الأقلون ، ولم يكن ملغزاً ، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجّة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها مايقنعهم ويلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها مايوفي على ماأدركه فهم الخطباء »[1] .

ولقد تجلت في كتاب الله تعالى مظاهر عديدة في الإقناع بالدليل ، وكان فيها كلها يسلك سبيل الحوار والجدل المقنع ، وهو في هذا يسير متلوناً بأسلوبه مخاطباً كلّ مجادل على حسب مستواه العقلي ، ليسوقه إلى الاعتراف والإذعان عن اقتناع وصدق . . . ومن ثم تتكشف أمام الجميع معالم الحقّ وهي تهدي بنورها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ومن أمثلة تدرّج القرآن في الإقناع في أسلوب جدليّ متقن ما جاء في سورة الحج . . .

قال تعالى : ﴿ يأيها الناسُ اتّقُوا ربّكُم إنّ زلزلةَ الساعةِ شيءُ عظيمٌ ﴾ ، هذه مقدمة ترتبت عليها نتيجة ، هذه النتيجة هي ما أشارت إليها الآية الكريمة التالية : ﴿ ذلكَ بأنَّ الله هو الحقَّ ﴾ .

فما دام أن الأمر قد وصل إلينا عن طريق الحقّ فهو أمر مقطوع بصحته لاشك في وقوعه .

وقوله تعالى : ﴿ يومَ ترونهَا تذهَلُ كلُّ مرضعة عمّا أرضعت وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملها وترى الناسَ سُكارى وما هُمْ بسكارى ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ ﴾ ، هذه مقدمة لنتيجة هي قوله تعالى : ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ ، وعلق النتيجة على هذه المقدمة ذلك أنه أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر . . . ولن تتأتى هذه الأهوال في ذلك اليوم إلا بإحياء الموتى ﴿ فهو يحيى الموتى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الحج : ٣) .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ للإمام الزركشي ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الثانية (٢٤) .

نتيجة هذه المقدمة قوله تعالى : ﴿ وأنه على كلّ شيء قدير ﴾ ، لأن الذي أخبر بأن من يتبع الشيطان ويجادل في الله بغير علم فإن مصيره عذاب السعير ﴿ على كل شيء قدير ﴾ فهو القادر على ذلك . . .

ثم قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ .

هذه مقدمة لنتيجة هي أن القادر على خلق الإنسان عبر أطواره المذكورة بالتالي هو قادر على البعث ، والنتيجة ﴿ إنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (الحج : ٥) .

وهذه المقدمة نتيجة حتمية للبعث فإن إحياء الأرض بعد موتها فإذا هي تنبت وتزهر ، نتيجة أكيدة بأن الله باعث من في القبور ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (الحج : ٧) .

وفي موضع آخر يشير القرآن إلى قضية الموت ، وأنه لا محالة قضاء سيخضع له الجميع وأمر وارد لا مفرّ منه ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (الرحمن : ٢٦) .

هذا خطاب موجه إلى من على الأرض ، وهم سكان هذا الكوكب الأرضي من إنس وجان ، فلما سمعت الملائكة هذا الخطاب قالت : إن الموت لايشملنا ، فنحن لانعيش على هذه البسيطة ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (العنكبوت : ٥٧) ، فالموت مصير كل حي يتنفس .

قالت الملائكة وقد ازدادت فرحاً وابتهاجاً : ولكننا أجسام نورانية ولسنا أنفساً ، قال تعالى فاصلاً الخطاب في المسألة ومجيباً على هذا الجدل الطويل وتلك التساؤلات : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (القصص : ٨٨) ، فهو الملك المتفرّد بالعظمة قاهر العباد بالموت ، وكل شيء عداه

عرضة للموت والفناء . . . ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (غافر : ١٦) .

وفي موضع ثالث حين أراد المولى عز وجل إثبات قضية البعث والنشور جاء بضروب الأقيسة على المعاد الجسماني ، وأنه أمر مقدور عليه وهو سهل للغاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . . ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٩) .

فقاس الإعادة على الابتداء ، فالذي خلق الأشياء من العدم قادر على إيجادها بعد الموت وإعادتها للبعث والجزاء .

ثم تدرج المولى عز وجل في تقريب المسألة للأذهان وأن الخروج من القبور لن يكون أعظم من خلق السموات والأرض ، فالقادر على خلق هذه الأجرام العظيمة التي تفوق خلق الإنسان ببلايين المرات قادر على بعث هذه الأجساد بعد البلى وهي خلق يسير .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس : ٨١ ، ٨٣) .

وإذا كنتم في شك واضطراب ولم يحصل الاقتناع بعد ، فهناك مسألة محسوسة ربما تقرّب الأمر إلى أذهانكم بصورة أوضح ، وهي إحياء الأرض الموات بالمطر ، فتنبت بعد يبس ، وتتحرك بعد دروس ، ثم تنبت من كل زوج بهيج .

قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (الحج : ٥ ، ٧) . فقاس الإعادة بإحياء الأرض الموات .

وزيادة في الإيضاح والتدرج الجدلي المنطقي قاس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ

مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس : ٧٧ ، ٨٠) .

فما استبعدتموه من البعث والنشور ليس هو أغرب من عملية إخراج النار المحرقة من العود الرطب الندي .

نعم لانقداح النار من العودين الأخضرين أعجب من إحياء الموات . . .[١] .

ومواصلة في تتبع هذا الأسلوب المتدرج في الجدل والحوار نرى قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ (النحل : ٣٨ ، ٣٩)[٢] .

فالآية تشير إلى أن الله الحق لايقول إلا الحق . . . وكان المتوقع من الخلق أن يدركوا تلك الحقيقة ، ولكن قتل الإنسان ما أكفره .

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبّني ابن آدم ، ولم يكن ينبغي له أن يسبّني ، وكذّبني ولم يكن ينبغي له أن يكذّبني ، أما تكذيبه إياي فقال : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت . وقلت : ﴿ بلى وعداً عليه حقاً ﴾ ، وأما سبه إياي فقال : إن الله ثالث ثلاثة ، وقلت : ﴿ هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد﴾ .

هذا ومن أنواع الجدل في القرآن : السبر أو التقسيم[٣] كما في قوله

---

(١) أرأيت لو أن إنساناً صنع كرسياً ، ثم أعاد فكه وأعاد تركيبه مرة أخرى ، قل لي بربك : هل الأولى أصعب أم الثانية ؟ ولله المثل الأعلى . .

(٢) وقيل في سبب نزول الآية : أنه جاء رجل مسلم إلى مشرك يتقاضاه ديناً ، فكان فيما تكلّم به المسلم : والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا ، فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت ، فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت ، فنزلت الآية ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى ﴾ .

(٣) السبر والتقسيم باب من أبواب الجدل . . وهو من أنواع الاستدلال الكاشف للحقيقة الهادي إليها ، وهو أيضاً من أبواب الجدل يتّخذه المجادل سبيلاً لإبطال =

تعالى : ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (الأنعام : ١٤٣ ، ١٤٥) .

ففي هذه الآيات سبر المولى عز وجل أنواع الأنعام وهو يزري على أولئك الذي يحرمون بعضها ويحلون لحم بعض فقال تعالى : ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ فما الذي حرّمه المولى ؟ أهما الذكران أم الأنثيان ؟ فإن لم يكن هذا ولاذاك ، فما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، وهي إما أن تشتمل على ذكر أوأنثى ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالأمر افتراء على الله .

وهكذا يبكت المولى هؤلاء الكفار الذين يحلّون ويحرّمون تبعاً لأهوائهم ، لأن التحريم إما أن يكون لعلة ، فما علّة تحريم هذه الذكور أو تلك الإناث ، أو ما اشتمل عليه الرحم منهما .

وإما أن لاتكون هناك علّة ، وهذا النوع هو التعبدي وهو لايكون إلا بأمر إلّهي ، والأخذ عن الحق عزّ وجل إما أن يكون بوحي أو إرسال رسول ، أو سماع عن الله سبحانه ، وهو قوله تعالى : ﴿ أم كنتُم شهداءَ إذ وصاكُم الله بهذا ﴾ .

فما دام لم يرد التحريم عن الله بهذه الطرق جميعاً تعينّ بطلان ما تدعونه، وأن جميع ما قيل هو تقوّل وافتراء على الله سبحانه ، وهكذا سلك القرآن هذا المسلك الجدلي القائم على السبر والتقسيم للوصول إلى نتيجة

= دعوى من يجادله بأن يذكر أقسام الموضوع الذي يجادل فيه ، ويبين أنه ليس في أحد هذه الأقسام خاصة تسوغ قبول الدعوى فيه فيبطل دعوى الخصم .

عامة ، وهي بطلان دعوى هؤلاء الكفار في التحريم لهذه الأنواع .

التسليم الجدلي :

وأما النوع الآخر فهو التسليم الجدلي ، وهو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع ليكون المشروط ممتنعَ الوقوع لامتناع وقوع شرطه ، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً ويدلّ على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه ، كقوله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون : ٩١) .

والمعنى : ليس مع الله إلٰه ، ولو سلّم أنه معه سبحانه وتعالى إلٰه للزم من ذلك التسليم ذهاب كلّ إلٰه من الاثنين بما خلق ، ومحاولة استعلاء كلّ منهما على الآخر ، وهذا سيؤدي حتماً للاضطراب ، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا ينتظم حال ، وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته ، فإمّا أن تنفذ إرادتهما ، وهذا يؤدّي إلى التناقض لاستحالة تجزيء الفعل إن فرض الاتفاق ، أو امتناع اجتماع الضدّين إن فرض الاختلاف . وإما أن لاتنفذ إرادتهما فيؤدّي إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدّي إلى عجزه والإلٰه لايكون عاجزاً ، فلزم أن يكون الإلٰه واحداً لأن افتراض إلٰهين فصاعداً محال لما يترتب على ذلك من نتائج ، والمبني على المحال محال . . .

وعلى هذا قس قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر : ١٣ ، ١٤) .

والمعنى : إن الذين تدعون من دون الله من الأصنام والأوثان وغيرها مايملكون قشرة النواة ، والدليل على ذلك أنكم إن دعوتموهم لايسمعون دعاءكم ، وكيف يسمع من لايملك السمع ، ففاقد الشيء لايعطيه ؟ ولو

سلّمنا جدلاً[1] أنهم سمعوا دعاءكم فإنهم لايستجيبون لكم ، لأن الذي يجيب الدعاء هو الخالق المتفرّد بالأمر ، وحيث انتفى عدم سماعهم لكونهم لايملكون الأداة السامعة انتفى كونهم آلهة ، وحيث انتفت ألوهيتهم ثبتت الألوهية للإله المدبّر النافع الضارّ ، ولاينبئك بمثل هذه الأمور وصدقها مثل خبير بها عالم بأغوارها وهو رب العزة والجلال . . .

أيضاً من أنواع الجدل القرآني مجاراة الخصم ليعثر بأن يسلّم بعض مقدماته حيث يراد تبكيته وإلزامه كما قال تعالى : ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (إبراهيم : ١٠ ، ١٢) .

فالرسل في مواجهة القوم الذين يخاطبونهم فيقولون : ﴿ إن أنتم إلاّ بشر مثلُنا تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ هنا كان رد الرسل : نعم نحن كما ذكرتم بشر ، وهذا قد يفهم منه أن الرسل قد تراجعوا في دعوتهم ، والواقع أن الأمر ليس كذلك ، ولكنه من قبيل المجاراة لتبكيت الخصم وإلزامه بالتسليم عن طريق هذه المقدمات ، وكأنهم يقولون : نعم نحن لاننكر كوننا بشراً ، ولكن هذا لايدفع ولايمنع أن يمن الله علينا بالرسالة فهذا فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ونحن نرى من هذا النص السامي أن الرسل سلموا بالمقدمة التي بنى عليها الأقوام رفضهم ، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم : ﴿ ولكنّ الله يمن على من يشاء ﴾ فكأنّهم قالوا لهم ماقلتموه من أننا بشر حق ، ولكن

---

(١) التسليم الجدلي : هو التسليم للمخاطب في أمر « ما » مع اقتناعك ببطلان ما يقول لتصل من خلال مجاراتك له إلى الصواب عن طريق الإقناع ، فالأمر على ما هو عليه لم يتغيّر .

ماتريدون أن تبنوا عليه من إثبات أننا لسنا أنبياء باطل ، لأن الله يمنّ على من يشاء من عباده ، وهو قد من علينا ، وقدمنا لكن السلطان ، أي الدليل ، ولا سلطان لنا إلا ما يأذن به الله تعالى سبحانه .

كما أخبر المولى أن الرسول لايكون إلا بشراً ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام : ٨ ، ٩) .

وفي هذا النوع من الجدل استدراج للخصم واستجلاب لإصغائه ، وربما كان من الممكن بهذه الوسيلة ثنيه عن الإنكار .

ومن هذا اللون قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ۝١١٣ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون : ١١٢ ، ١١٤) .

فالخطاب موجه إلى هؤلاء الكفرة : ﴿ كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ ﴾ أجابوا : ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ هنا كان رد المولى عزّ وجل : ﴿ إن لبثتم إلا قليلا ﴾ ، ثم يأتي التبكيت عقب ذلك : ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ .

فبعد مجاراتهم في هذا المكث اليسير جاء التقريع عقب هذه المقدمات وهو أن المفروض أن تضعوا نصب أعينكم أن المهلة يسيرة والمدة وجيزة ، فتقلعوا عن الكفر والعناد وتتجهوا إلى الإيمان والرشاد ، وزيادة في التقريع قال تعالى عقب ذلك : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون ﴾ أي : ليس الأمر كذلك فالهمزة للتوبيخ والتقرير .

ومن أنواع الجدل القرآني :

المناقضة : وهي تعليق أمر على مستحيل إشارة إلى استحالة وقوعه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف : ٤٠) .

فقد علق المولى عزّ وجل دخول الكفار الجنة على دخول الجمل في ثقب الإبرة ، وهذا أمر مستحيل ، وماترتب على المستحيل مستحيل ، ومن هنا

تعذّر دخول الكافرين الجنة وهذا أبلغ في التعبير عن الاستحالة .

وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٦) .

فالكفار لو أن لهم ما في الأرض جميعاً لافتدوا به وهذا أمر مستحيل ترتب على هذه الاستحالة افتداؤهم من العذاب ، من هنا تعذر قبول فدائهم ولهم عذاب أليم .

أيضاً من ألوان الجدل القرآني :

الاستدلال برد المسائل إلى أمور بدهيّة معروفة كما أشرنا ، أو حقائق مشهورة مألوفة يخر المجادل أمامها صاغراً ، كما ترى من إبطال قول من زعم أن لله ـ سبحانه وتعالى ـ ولداً إذ يقول سبحانه : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام : ١٠١ ، ١٠٣) .

ألا ترى أن الاستدلال القرآني اتجه إلى بطلان مدعاهم إلى أمر معروف مشهور مألوف لايماري فيه أحد ، وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبة ، ولم يدّع أحد أن لله تعالى صاحبة ، فبطل أن يكون له ولد .

فنفي التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد ، وأن التولد إنما يكون من اثنين ، وهو سبحانه لاصاحبة له ، تعالى ثناؤه عمّا يقولون علوّاً كبيراً . وأيضاً فإنه خلق كل شيء ، وخلقه لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته ، فلا يجوز إضافة الولد إليه[1] .

أيضاً من ألوان الجدل :

الإسجال : بأن يثبت على لسان الخصم حقيقة كان ينكرها كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم

---

(١) الرد على المنطقيين لشيخ الاسلام ابن تيمية .

﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف : ٤٤) .

وفي مثل هذا اللون من التسجيل الإثارة لوجدان المتشككين والمنكرين ، وإثارة الخوف في أنفسهم حين يسمعون اعتراف من على شاكلتهم ، ويدفعهم الخوف إلى التأمل عساهم يهتدون .

أيضاً من أنواع الجدل حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه كقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ ، يريدون أنه ﷺ سماع لكل شيء ، مصدق لكل قول ، ولكن الآية لم تترك الأذن مطلقة بل نسبتها إلى الخير ولهذا كان تمام الآية ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة : ٦١) .

أي أنه يصدق بالله ، ويسلم للمؤمنين ، لا لكم ، لعدم تصديقه إياكم ، ثم هو مع ذلك رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، حيث قبلهم ولم يكشف حقيقتهم .

ومن الجدل تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره ، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق في مثل قوله تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الطور : ٣٥ ، ٤٣) .

ومنه الاستدلال بالمبدأ على المعاد كقوله تعالى : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (ق : ١٥) .

وقوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ (القيامة : ٣٦ ، ٤٠) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ (الطارق : ٥ ، ٨) .

أيضاً من ألوان الجدل القرآني : ماكان مبناه على الحذف والإيجاز كما في قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى ابن الله لأنه خلق من غير أب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (آل عمران : ٥٩ ، ٦٠) .

فقد حذفت المقدمة هنا وأوضح المقايسة بين خلق آدم وخلق عيسى عليهما السلام ، وأنه إذا كان الخلق من غير أب مبرراً لاتخاذ عيسى إلٰها فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مبرراً ، وعيسى خلق من غير أب ، فلو كان عيسى إلها لكان آدم أولى ، لكن آدم ليس ابناً ولا إلٰهاً باعترافكم فعيسى أيضاً ليس ابناً ولا إلٰها ، وقد أكسب الحذف الكلام طلاوة ورونقاً وأعطى الكلام حجة في الرد على النصارى .

ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعاً ينتهون إليه ، وهو إنما خلق من تراب .

هذا ويلاحظ أن القرآن الكريم في الجدل الذي يسوقه إنما يلزم الخصوم ويفحمهم ، يجيء إلى الإفحام من أقرب الطرق وأقواها إلزاماً ، وبذا لايلبث أن يأخذ بيد المعاند إلى الحقيقة يبينها واضحة جلية لاريب فيها ، كما ترى في قوله تعالى راداً على المشركين طلبهم في أن يكون الرسول ملكاً ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام : ٨ ، ٩) .

فإنك ترى أن في ذلك إفحاماً لهم من ناحيتين : الناحية الأولى : أنهم لو أجيبوا إلى مايطلبون لقضى عليهم ماهددهم الله تعالى به ، ولاينظرون .

والناحية الثانية : أنه لايزول اللبس الذي يلبسون به الحق بالباطل ، لأنه لو جعله الله تعالى ملكاً لجعله في صورة رجل وبذلك يجيء الالتباس الذي لبس به عليهم .

ومن ألوان الحوار في القرآن الكريم كذلك تلك المحاورة التي جرت بين موسى عليه السلام وفرعون ، ففي أثناء الحوار بينهما قال فرعون يخاطب الكليم عليه السلام : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وَليداً ولَبِثْتَ فينا مِنْ عُمُركَ سنين ﴾ ؟[1] .

استفهام تقريري ، وكأن فرعون قد أراد أن يصل من وراء هذا إلى إلزام الكليم بأمر وهو أنك لاتعدو أن تكون شخصاً قد تربّى في بلاطي صغيراً[2] ، فمتى كبرت لتخاطبني ؟ كما أراد الامتنان عليه بهذه التربية ثم يقول بعد ذلك : ﴿ وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فعلتَ وأنت من الكافرين ﴾ .

فبعد أن عدّد إنعامه على موسى ، بدأ يعدّد ذنوبه فيقول : فكان جزائي منك أن قتلت رجلاً من أصحابي مقابل إنعامي عليك ؟!

فبماذا ردّ الكليم : ﴿ قالَ فعلتُها إذاً وأنا من الضّالين ﴾ أي : قتلي للقبطي إنما كان من غير قصد ولا إرادة ، كما أشارت الآية : ﴿ فَوكَزَهُ

---

(١) الآيات من سورة الشعراء (من آية ١٨ - إلى ٥١) .

(٢) عن لبث الكليم في بلاط فرعون اختلفت الروايات ، فقيل : ثمانية عشرة عاماً ، وقيل : بل ثلاثين ، وقيل : بل أربعين سنة . والراجح الذي أميل إليه أنه لبث ثلاثين عاماً ، إذ من مدة فراره بعد قتله القبطي وغربته في مدين هي عشر سنوات ﴿ فإن أتْمَمْتَ عشراً فمن عندِك ﴾ وقد سئل رسول الله ﷺ عن المدة التي مكثها موسى في مدين : ثمان أم عشر ؟ فقال : أبرهما وأكملهما ، وعاد بعدها ليتشرف بحمل الرسالة والنبوة ، فيكون في الأربعين وهو سن الرشد ، فيكون قد شرف بها كسيدنا رسول الله ﷺ وهو في الأربعين من العمر ، ولا سيما أن التشابه بين سيدنا رسول الله ﷺ وسيدنا موسى عليه السلام قريب جداً حتى في رعي الغنم ، وكلاهما من ذوي العزم .

﴿ فوكَزَهُ موسى فقضَى عليه ﴾ : هنا يتبادر سؤال : كيف يقتل موسى عليه السلام القبطي مع كونه نبياً ألا يتنافى هذا وعصمة الأنبياء .

والجواب : إنه لا يغض قتل القبطي من نبوة موسى ، ولا يتصادم مع العصمة حيث إنه حينما قتله لم ينبأ بعد ، كذلك قتله لم يكن مقصوداً فضلاً عن كون المقتول كافراً .

موسى فَقَضَى عليه ﴾ أي : ضربه بمجمع الكفّ فكانت الضربة القاضية ، فلم أكن كافراً بالنعمة ولكن الصحيح أني كنت ضالاً فهداني ربي وأكرمني بالنبوّة ، وها أنا أردها لك يداً بيضاء فأنا أريد هدايتك إلى الطريق القويم والصراط المستقيم . . .

﴿ فَفَرَرْتُ منكـمُ لَمَّا خفتُكَمْ فوهَبَ لي ربيّ حكماً وجعلَني من المرسلين * وتلكَ نعمةٌ تمنُّها عليّ أن عبَّدْتَ بني إسرائيل ﴾ .

فبماذا تمتن علي يافرعون ؟! بأن قتلت واستعبدت قومي مقابل أنانية متأصلة فيك ، فلولا أنك قد علمت بأن هناك من سيزلزل ملكك من بني إسرائيل مافعلت الذي فعلت .

ولـولا أن زوجـك راجعتـك في وقـالـت : ﴿ قـرةُ عينٍ لي ولَـك لاتَقْتُلوهُ ﴾ لأجهزت علي .

وبعد هذه المحاورة العابرة والتي فيها الكثير من مراجعة الحسابات قال فرعون وفي نبرة حادة جازمة : ﴿ وَمَا ربُّ العالمين ؟ ﴾ أي ماكنهُ إلٰهك هذا ؟

قـال مـوسـى : ﴿ربُّ السمـواتِ والأرض ومـا بينهمـا إن كنتـم موقنين ﴾ هو أعظم وأجل من أن يوصف وإن ما في مخلوقاته من سموات وأرض ومابينهما دليل على عظمة الخالق عز وجل .

حينئذ لجأ فرعون إلى المغالطة وتعويم الموقف قائلاً لمن حوله : ﴿ ألا تستَمِعُون ﴾ ألا تسمعون لهذا الهراء على حد مزاعم الكفور .

قال موسى قاطعاً على فرعون الاسترسال في الإبهام ، والتغليط ﴿ قالَ ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين ﴾ فالشواهد تتلاحق ، وأنت يافرعون عبد ولست برب ، فالرب هو الله سبحانه .

فلما أفحم فرعون ، وخشي أن يخرج الأمر من يده ، أضرب عن هذه المناقشة والتفت إلى قومه في لهجة تنمّ عن الاستهزاء على سبيل عدم الاكتراث والمغالطة التي جبل عليها فرعون ﴿ قالَ إنّ رسولَكُم الذي أُرسِلَ إليكم لَمَجنونٌ ﴾ ، فلا داعي إلى الاستماع إلى كلام مجنون . هنا قال موسى عليه السلام : ﴿ قالَ ربُّ المشرق والمغربِ ومابينَهُما إن كنتم تَعْقِلون ﴾ ،

لا ، لن أدع لك الفرصة لدحض حجتي ، أو محاولة تزييف حقيقة ماجئت به ، فالذي أدعو إليه هو رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ، حينئذ سوف تستطيعون التمييز بين كلام العقلاء والمجانين .

هنا لجأ فرعون إلى طريق القمع والاستعلاء ، فقال لموسى : ﴿ لئِن اتخَذْتَ إلٰهاً غيري لأجعلنَّكَ منَ المسجُونينَ ﴾ وسجن فرعون لايقلّ فظاعة عن قتله الأبرياء فقد ملأه بألوان الاضطهاد والتعذيب فلا يخرج منه السجين إلا ميتاً حقيقة أو حكماً .

فلما أحسّ موسى أن فرعون يتهرّب من الاستجابة أراد أن يستعمل معه طريق المحسوسات حتى يكون ذلك أقرب للقوم يلمسونه ويشاهدونه ﴿ قالَ أولَوْ جئتُكَ بشيءٍ مُبينٍ ﴾ ، يبينّ عن صدق دعواي ، فماذا ترى يافرعون في هذا ؟ ولعل فيه مايؤكّد صحة قولي ، وقد أحسّ اللعين الحرج ولكن خشية أن تضطرب الأمور عليه ﴿ قالَ فأتِ بهِ إن كُنْتَ من الصادقين ﴾ وهنا ألقى موسى عصاه ﴿ فألقَى عصاهُ فإذا هي ثعبان مبين ونَزع يدَهُ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ ، هنا حاول فرعون المراوغة بعد أن شاهد إحساسه بالضعف واضمحلال دعواه ، من ثم التفت للملأ من حوله ، وما كان ليفعلها وهو الذي يرى بأنه إله وأنّ له الحقّ في التعالي والسخرية من كل منهم ، لكن الآن الموقف لايسمح بهذا ، فماذا قال : ﴿ قال إنّ هذا لساحرٌ عليمْ * يريدُ أن يخرِجَكُم من أرضكم بسحْرِه فماذا تأمُرونَ ﴾ منتهى التنازل والأدب والتواضع من فرعون المتغطرس الجبار « فماذا تأمرون » ؟ ﴿ قالُوا أرجِهْ وأخاه وابعَثْ في المدائنِ حاشرين * يأتُوكَ بكلّ سحَّارٍ عليمْ ﴾ ، وفي منتهى الضعف والاستكانة من قومه الذين ألفوا الذلّة والمهانة قالوا : أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ﴿ يأتوكَ بكلِّ سحّارٍ عليم ﴾ وكأنهم رأوا أيضاً أن كلامه ودعواه في اتهام موسى بالسحر أمر مفروغ منه .

﴿ فجُمعَ السحرةُ لميقاتِ يوم معلومٍ * وقيلَ للناسِ هل أنتم مُجتمِعونَ * لَعَلّنا نَتّبعُ السَّحرةَ إن كانوا هُم الغالِبين ﴾ .

وهنا تبرز الآيات ، السحرة في مواجهة فرعون ﴿ فلمّا جاء السَّحرةُ

قالُوا لفِرعونَ أئنَّ لنَا لأجراً إنْ كُنَّا نحنُ الغالبينَ ﴾ ويصادف هذا الكلام هوى في نفس فرعون فهو يريد أن يستعيد مكانته المهزوزة ويدحض حجة موسى بأي الطرق ﴿ قالَ نَعَمْ وإنكم إذا لَمِنَ المقرّبين ﴾ علاوة على هذا الأجر فإن لكم التقريب والإعزاز .

وينتقل المشهد إلى جانب آخر يبدو فيه موسى في مواجهة السحَرة ، فصلته سورة طه ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴾ (الآية : ٦٥ ، ٦٦) .

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ (٤٣) فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ .

حصروا الغلبة في أنفسهم وقرنوها بعزة فرعون ، وكأنهم أرادوا أن يستميلوه في صفهم ويعززوا من موقفه ﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴾ .

فما كان جواب السحرة إلا أن خرُّوا ساجدين ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ ، فهو الإله المستحقُ للعبادة لا أنت يافرعون .

ومن فرط المفاجأة وهول الذهول بدا فرعون وهو يحاول أن يتلافى ما يمكن تلافيه من موقف متدهور فإذا به يصيح في السحرة ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ ؟ ﴾ عجيب حقاً هذا التساؤل الفرعوني ، ولكنها المغالطة .

ثم يقول : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ حيلة الضعيف المهزوم اللجوء إلى التهديد والوعيد . وإلا فكيف يكون موسى كبيرهم ومعلمهم وهو ماشاهدهم إلا منذ ساعات !!؟

ولكن السحرة وقد استبان لهم طريق الهدى والرشاد هيهات أن يحفلوا بمثل هذه التهديدات ﴿ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الشعراء : ١٨ ، ٥١)[1] .

---

(١) عجباً لأمر السحرة فبعد أن كانوا في أول النهار سحرة فجرة ، إذا بهم يغدون في آخر النهار شهداء بررة ، وهكذا تغيّرت هذه النفوس المحبة للمال التواقة للحصول عليه المستجيبة لأوامر فرعون ، بعد أن رأوا عظمة معجزة موسى عليه السلام ، حتى إنهم لم يؤثر فيهم التهديد الفرعوني ، ومن ثم نراهم لم يأبهوا بهذا التهديد =

وهكذا نجد القرآن وهو يخاطب المجادل ويحاوره إلى أن يسوقه إلى الاعتراف بما يفحمه من أدلة وشواهد تقوده إلى الاقتناع والتسليم ؟

هذا النمروذ في مواجهة الخليل عليه السلام: قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال النمروذ : أنا أحيي وأميت ؟! وكيف يتأتى هذا؟! أحضر النمروذ سجيناً حكم عليه بالإعدام فأمر بإطلاق سراحه ، وآخر برئت ساحته فأمر بقتله .

هذا هو إحياء الموتى وإماتة الأحياء في نظر النمروذ .

حينئذ سلك الخليل مع مجادله أسلوباً آخر في إقامة الحجة وإيقاع الخصم في الاعتراف بما ينكر بطريق غير مباشر ، فما دام أنك قد سلكت أسلوب المغالطة وقلب الحقائق ، فأنا سوف أجبرك على الاعتراف بما تنكر ، وأظهر ضعفك أمام الجميع ، وفي هذا مافيه من إفحام الخصم وتبكيته ، قال إبراهيم : فإنّ ربّي يأتي بالشمسِ من المشرقِ فَأتِ بها من المغرب!!

نعم هذا مظهر من مظاهر قدرة الله في آياته الكونية ، ومثل هذا لايتسنى إيجاده إلا للإلٰه القادر ، فإن كنت صادقاً في دعواك الألوهية فقم بمخالفة سنة من سنن الله في الكون ، وأت بالشمس من المغرب بدلاً من ظهورها من المشرق .

وإذا بالخصم العنيد المكابر تعتريه الكآبة ، ويصاب بالذهول أمام هذا التحدي السافر ، وهنا يغص بريقه فلا يحير جواباً ﴿ فَبُهِتَ الذي كفَر والله لايهدي القومَ الظالمينَ ﴾[1] .

= بل قالوا : ﴿ لا ضير ﴾ أي : لا ضرر يلحقنا وصلبك يا فرعون لنا لأننا سنلقى ربنا عز وجل فيغفر لنا ما وقعنا فيه من ظلم ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ، إنا نطمعُ أن يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا أن كنّا أولَ المؤمنين ﴾ الشعراء (٥٠ ـ ٥١) .

(١) قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . الآية من سورة البقرة (٢٥٨) .

صورة أخرى من هذا الحوار القرآني ماجرى بين السيدة العذراء مريم وجبريل عليه السلام .

فحينما جاءها الملك في صورة البشر حتى لاتنزعج فترى شيئاً غير مألوف ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ (مريم : ١٦ ، ١٨) .

فربطت كلامها بتقواه لأنها تظن أنه بشر ، وعلى ذلك تم شيء من الاستئناس .

وهنا يدور الحوار بينهما ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ .

ما هذا الطلب إنه طلب فيه ما فيه من هتك للعرض وضياع للشرف ، ومقت للفضيلة ، من ثم كان لابد أن يصارحها بأنه ملك من عند الله جاء ليهب لها غلاماً زكياً ، فحينذاك تحولت بشريته فأصبح ملكاً بمرأى عينها وقلبها ، ولكن العجب يحيط بها ، فكيف يهب لها غلامًا ولم يمسسها بشر ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ .

ومن ثم فما أحوجها إلى اقتناع من هذا الملك ، بأن ذاك شيء في الإمكان وليس مستحيلاً ، معللاً ذلك بقوله : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ .

وعلى هذا إذا تمّ الحمل ، ونفذ أمر الله ، لاتعيش مريم في دهشتها التي كانت متوقّعة ، فلا تحسّ بحيرة واضطراب لأنها علمت أن الأمر من الله ، وأن الحكم حكم الله ﴿ فحملتْهُ فانتبذَتْ به مكاناً قصياً ﴾ .

وهي وإن كانت آمنت بحكم الله ، وصدّقت رسول الله وأيقنت بقضاء الله وقدره ، ولكنها تحسب حساب مجتمعها ، فتخاف سطوة لسانه ، وتخشى من تهكّمه وإيذائه حتى قالت : ﴿ ياليتني متُّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً منسياً ﴾ .

ولكن صاحب الأمر ﴿ كن فيكون ﴾ لابد أن يخفف عنها هذا العناء ، ويقلل من هذا السلاح الاجتماعي الرهيب حتى كلّمها طفلها فهدّأ

من نفسها ، وأزال شيئاً من خوفها قائلاً ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (مريم : ١٦ ، ٢٤) .

هكذا يتجلّى لنا من خلال هذا العرض كيف يجنح القرآن في كل نموذج من نماذجه سواء في الجدل أو الحوار إلى العرض المقنع من خلال الشواهد والأدلة التي تقفل على المجادل خط الرجعة ، فلا يجد بدّاً من التسليم والاقتناع بصدق الشاهد القرآني ، كيف لا . . . وقد فتح هذا الأسلوب للمجادلين الجاحدين باباً واسعاً من أبواب رحمة الله . . . وهو باب الهداية والرشاد ، وكل ذلك في صور حيّة متحركة تموج بالحياة وتعبر عن خلجاتها وأحاسيسها دون مواربة في صدق وإقناع ، وتلك قمة الإعجاز البياني المؤدي إلى الهداية التي تغلق أمامها كل أبواب الزيغ والضلال ، على أنه مما لاشك فيه أن المتتبع لآيات الجدل في القرآن الكريم يجد أنها جمعت كسائر الآيات في كتاب الله الخالد المعجز بين ظاهرتي الإعجاز البياني والإعجاز في الهداية والتوجيه عن طريق الأسلوب الجدلي الذي يدعو إلى الإيمان بالله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة كما يعطي هذا الأسلوب الجدلي الفرصة السانحة للخصم لأن يوعد من جديد إلى ساحة الهداية والرشاد . . . مذعناً عن طريق الإقتناع والتسليم . . .

الفصل الثاني

القسَم في أسلوب القرآن

تقديم

لعل من أجلّ مباحث علوم القرآن التي كانت محلَ عناية العلماء قديماً وحديثاً المباحث التي تدور حول القسم في القرآن الكريم ، والتي أصبحت تحتلّ مكانةً خاصة على مائدة القرآن الكريم .

فأُفردت فيها المؤلّفات التي تتحدّث عن هذا الجانب ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر : « التبيان في أقسام القرآن » للإمام ابن قيّم الجوزيّة .

وهناك من أفرد له فصلاً خاصاً في كتابه كالإمام الزركشي ، أما في المُحْدَثين فقد كان الاهتمام به واضحاً حيث لايكاد يخلو كتاب من كتبهم التي تتحدّث عن القرآن إلا ويثار فيه جانب القسم وتشمله الدراسة والبحث .

يقول الدكتور محمد محمد أبو شهبة[1] : « وقد تبارى علماؤنا في هذا المضمار الفسيح ، وجَروا فيه أشواطاً بعيدة حتى زخرت المكتبة الإسلامية بميراث مجيد من تراث سلفنا الصالح وعلمائنا الأعلام ، وكانت هذه الثروة ولاتزال ، وستظل إن شاء الله نبراساً تهتدي به أمم الأرض ، ويستضيء به أهل الملل في كل عصر ومصر .

وأضحت هذه العناية بحقّ أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب الله الخالد الذي حفظه الله تعالى من التحريف والتغيير ، وبذلك هيّأ الله سبحانه الأسباب المتكاثرة لحفظ كتابه ، وذلك مصداقٌ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩)[2] .

---

(١) المدخل لدراسة القرآن / محمد أبو شهبة / الطبعة الثانية (١٥) .

(٢) ممن تحدّث في موضوع القسم الإمام ابن قيم الجوزيّة رحمه الله في كتابه القيم : « البيان في أقسام القرآن » .
كما تحدث في هذا الجانب الإمام السيوطي رحمه الله في كتابه : « الإتقان » .

مفهوم القسم

يرى اللغويّون أن القسم[1] في اللغة يأتي بمعنى : اليمين ، وكذلك المُقْسَم ، بضم فسكون مثل : المخرج ، وجمع القسم أقسام .

وقد أقسم بالله سبحانه ، واستقسمه به ، وقاسمه حلف له .

وتقاسم القوم : تحالفوا ، وأقسمت : حلفت ، قال تعالى : ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ (الحجر : ٩٠) .

هم الذين تقاسموا وحلفوا على كيد رسول الله ﷺ ، وقاسمهما ، أي : حلف لهما .

وفي الحديث : « نحن نازلون بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر » .

وتقاسموا : أي تحالفوا ، يريد تعاهد قريش على مقاطعة بني هاشم في الشعب .

والمُقْسِم : الرجل الحالف .

وهكذا نجد أن القسم يأتي بمعنى الحلف ، و اليمين .

ويأتي أيضاً بمعنى الألية ، والشهادة ، وهذه الأخيرة وإن لم تحمل أركان القسم إلا أنها تؤدي المعنى نفسه الذي يؤديه ، وهو التقوية والتأكيد .

فاليمين : مأخوذ من أن المتحالفين يأخذ كل منهما بيمين صاحبه ، فصار القسم يسمى يميناً .

قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴾ (المائدة : ٨٩) .

والحلف : أصله المحالفة والمعاهدة وعند حصول التحالف والتعاهد بين الناس يقع تأكيدها بالأيمان ، فصاروا يطلقون الحلف ويقصدون اليمين نفسه .

---

(١) لسان العرب ـ لابن منظور ـ مادة قسم .

قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة : ٦٢) .

وهكذا نجد أن المعنى في كل من القسم واليمين والحلف راجع إلى معنى التأكيد والتقوية .

هذا وقد عرف العرب القسم قديماً وكان مهمّاً عندهم ، عرفوا القسم وجعلوا له مكاناً عزيزاً عندهم .

والقصد من القسم عندهم تحقيق النبأ وتأكيده إذا كان المتحدّث مظِنّة للشك أو التدليس .

فإن أخبر أحد أحداً بأمر ، وأراد منه أن يصدّقه وينقل عنه مضمون الخبر أو العهد ، أكده له وأتْبَعه بالقسم .

والقسم شهادة ، والشهادة أمانة ، والأمانة هي من أقدم وأعرق القيم التي حرص عليها الإنسان الحيّ الضمير منذ فجر التاريخ ، فمن حافظ عليها سمي (بالأمين) .

كما كانت العرب في جاهليتها تلجأ إلى تأكيد الأمر وتقويته بصور شتى :

كأن يتجمّع القوم على الدم ويغمسوا أيديهم فيه ، كناية عن الاستبسال في أخذ الثأر حتى الموت .

وربّما تقاسموا بينهم عطراً فمسحوا بأيديهم منه ، وراحوا وعبقه يضوع من أيديهم وثيابهم علاقة الالتزام كما في قصة « عطر منشم » .

وربّما ربطوا حبل أحدهم بالآخر ، كصورة من صور التحالف وعقد الذمة والجوار ، أو قد يحرمون على أنفسهم بعض المشتهيات كشرب الخمر ، ومسّ الطيب ، وترجيل الشعر ، حتى يصلوا إلى هدفهم ويظفروا ببغيتهم [١] .

ولا أدلّ على أهمية القسم من أنه يشعرك بالمراقبة الدائمة من المولى عز وجل ، حيث جعل سبحانه الوفاء به مظهراً من مظاهر التقوى ، وجعل نقضه عقوبة تستوجب السخط .

---

(١) بتصرف من كتاب في علوم القرآن ـ د . فؤاد علي رضا ـ (١٦٤) .

والقسم ليس مقصوراً على القرآن الكريم ، ولا على الكتب السماوية الأخرى إبّان نزولها على الرسل عليهم السلام . بل نجده مظهراً من مظاهر التعامل بين طبقات المجتمع المختلفة ، ذلك أن القسم إنما جاء لحاجة في النفس الإنسانية ، إما لدفع شبهة أو لتقوية أمر من الأمور وتأكيده .

ولما كانت الطبائع تختلف من حيث قبولها لأمر « ما » أو عدم قبوله لأول وهلة كانت الحاجة ماسّة للقسم .

لقد قسم علماء البلاغة النفس الإنسانية التي يوجه إليها الخبر من حيث قبولها للخبر أو عدم قبوله إلى ثلاثة قسام :

خالي الذهن من الخبر : وهذا لايحتاج إلى تأكيد الخبر له ويسمّى هذا الضرب : الابتدائي .

المتردّد الشاك : وهذا يحتاج إلى تأكيده بمؤكد واحد ، ويسمّى هذا الضرب بالطلبي .

المنكر : وهذا يحتاج إلى عدة مؤكدات ، ويسمّى هذا بالضرب الإنكاري .

ولما كان القرآن الكريم ، وهو كلام رب العالمين وهو سبحانه أدرى بطبائع النفوس البشرية ، من هنا ذخر كتاب الله بألوان القسم لدحض شبه الكفار والمكابرين . وكان القسم يتكرر في صور شتى لدفع إنكار هؤلاء المعاندين واستدراجهم إلى الاعتراف بما ينكرون(١) .

ويقسم الله تعالى مراراً على صدق ماجاء به هذا الدين الذي نزل القرآن لتثبيت أسسه وقواعده ، فيقرر الوحدانية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ (الصافات : ٤) .

ويقسم على صحة البعث : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (الذاريات : ٥).

---

(١) يقول د . أحمد أحمد بدوي : « وإذا كان القسم لا ينجح أحياناً في حمل المخاطب على التصديق ، فإنه كثيراً ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة ، ويدفع إلى الشك فيها ، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله » .
من بلاغة القرآن (١٧٠) .
والواقع أن الفكرة الخاطئة تدحضها الفكرة السليمة وليس أسلوبَ القسم على الرغم من أهميته . .

وعلى أن القرآن حقٌ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة : ٧٥ ، ٧٧) .

وعلى أن الرسول ﷺ صادق في كل ما يقول : ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (يس : ١ ، ٣) .

يقول الإمام السيوطي[١] رحمه الله : ومن لطائف القسم قوله تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (الضحى : ١ ، ٣) .

أقسم تعالى على إنعامه على رسوله وإكرامه له ، وذلك متضمن لتصديقه له فهو قسم على صحة نبوته وعلى جزائه في الآخرة .

فهو قسم على النبوة والمعاد ، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته ، وتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد الظلام ، المقسَم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه : « ودَع محمداً ربُّه » .

فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه .

وقد تحدث الزمخشري عن صور القسم ، وعن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، وبين أن أحسن القسم ما وضحت فيه هذه العلاقة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف : ١ ، ٣) .

أقسم تعالى بالكتاب المبين ، وهو القرآن الكريم ، وجعل قوله تعالى : ﴿ إنّا جَعَلناهُ قرآناً عربيّاً ﴾ . جواباً للقسم ، وهو من الأيمان الحسنة البديعة ، لتناسب المقسم به والمقسم عليه وكونهما من وادٍ واحد[٢] .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ـ للإمام السيوطي ـ (١٧٢) .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ـ د . محمد حسين أبو موسى (٣١٥) .

يقول الإمام أبو القاسم القشيري : « القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين إما لفضيلة أو لمنفعة :

=

وإذ قد علمنا أن القسم إنما يكون لتقوية الأمر وتأكيده وهو إنما يكون بالله رب كل شيء ومليكه .

ونحن نجد أن القرآن قد عرض صوراً عديدة للقسم بغير الله سبحانه ، فما السر في ذلك ؟

لقد أقسم الله سبحانه بنبيه محمد ﷺ فقال تعالى مخاطباً حبيبه سيدنا رسول الله ﷺ في إطار الحديث عن قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر : ٧٢) .

وفي هذه يقول ابن عباس رضي الله عنه : « ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره »[١] .

= فالفضيلة كقوله تعالى : ﴿ وطور سنينَ وهذا البلد الأمين ﴾ .
والمنفعة كقوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون ﴾ .
والتين : فاكهة مخلصة من الشوائب لا عجم فيه ، وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء ، ودم ، ويدخل في تركيب الأدوية ومزاجه أعدل الأمزجة .
والواقع أن الآيات من سورة التين كلها تحمل معنى الفضيلة والمنفعة ، ذلك أن التين والزيتون إشارة إلى بيت المقدس ، وفيها ولادة نبيّ الله عيسى عليه السلام ، ﴿ وطور سنين ﴾ الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى عليه السلام .
﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ مكة مهبط الوحي ومولد سيدنا رسول الله ﷺ .
والمنفعة في هذه كلها ليست بخافية .

(١) الإتقان في علوم القرآن ـ للإمام السيوطي ـ (١٧٠) .
ويرد سؤال : كيف يقسم المولى بمخلوقاته ، وقد ورد النهي عن القسم بغير الله ؟
وأجيب عن هذا بتخريجات منها : إنه على حذف مضاف ، « فالتين والزيتون » أي : (ورب التين ، ورب الزيتون) .
والقسم إنما يكون بما يعظمه المقسم أو يجله ، والله سبحانه فوق كل شيء وإنما أقسم بمصنوعاته ، لأنها تدلّ على بارىء وصانع عظيم .
ثم إن القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع ، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل .
والحق الذي ينبغي تجاوزه أن للمولى عز وجل أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لما سبق شرحه ، وليس للمخلوق أن يقسم بغير الله وإلا فقد كفر .

كما أقسم سبحانه بمخلوقاته الأخرى كالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنجوم إلى غير ذلك من مصنوعاته .

والواقع إنما أقسم رب العزة والجلال بمصنوعاته تنبيهاً إلى ما فيها من إعجاز يدفع إلى التفكير في خالقها ، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وأن محمداً ﷺ صادق في كل مابلغه عن ربه . . .

وأقسم القرآن في مواضع أخرى بالليل والنهار والنجوم باعتبارها مظاهر للقدرة الباهرة .

كما أقسم بالرياح إذ تحمل السحب مليئة بالماء ، فتجري بها في رفق ويسر ، ثم تدعها توزّع مياهها هنا وهناك فقال تعالى : ﴿والذارياتِ ذَرْواً * فالحاملات وِقْراً * فالجاريتِ يُسراً * فالمُقَسِّماتِ أمراً * إنَ ماتُوعدن لصادِقٌ ﴾ (الذاريات : ١ ، ٥) .

وفي الريح وحملها للسحب الموقرة بالماء وجريها بها في الفضاء ، ثم في نزول المطر مايدلّ على قدرة الخالق الباهرة .

أركان القسم وأنواعه

وللقسم أركان أربعة :

مُقْسِم : وهو الله سبحانه .

مقسَمٌ بهِ : وهو الذات العليّة ، أو صفة من صفاته سبحانه أو فعل من أفعاله هو مظهر لقدرته أو أثر من آثار عظمته .

مُقْسَمٌ عليه : وهو يتصور في كل مايدلّ على وحدانيّة الله وقدرته وباهر عظمته في الخلق والرزق والبعث والنشور .

أدوات القسم : وهي الباء نحو : بالله العظيم . وينوب عنها حرف الواو غالباً ، ويدخل على الظاهر دون المضمر نحو : « والله » أي : وربي إنه لحق .

وحرف التاء ويختص بلفظ الجلالة نحو : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ (الأنبياء : ٥٧) .

كما ينقسم القسم الوارد في القرآن الكريم إلى نوعين :

النوع الأول :

القسم الظاهر وهو ما ظهرت جميع أركانه أو أغلبها ، وهذا له صور منها أن يتعدد المقسم به مع انفراد المقسم عليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ (الطور : ١ ، ٧) .

ومن صوره أن يتعدّد المقسم به والمقسم عليه كقوله تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ (الضحى : ١ ، ٥) .

وقد ينفرد المقسم به مع تعدد المقسم عليه : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم : ١ ، ٤)[1] .

---

(١) هذا وقد يحذف جواب القسم ويبقى ما يدل عليه كما في قوله تعالى : ﴿ والفجر =

القسم الثاني :

وهو مادل عليه مضمون الكلام نحو قوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ (آل عمران : ١٨٦) .

فلفظ القسم وأداته غير موجودين في الكلام ، ولكن علماء التفسير واللغة يقدرون في الكلام قسماً مضمراً ويقولون « والله لتبلون » ويجعلون فوق التوكيد قرينة على ذلك والمذكور هو المقسم عليه .

وقد يذكر المقسم به والأداة ، ويحذف المقسم عليه كقوله تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ (ص : ١ ، ٢) .

وحذف المقسم عليه هنا أو جواب القسم لدلالة التحدي عليه ، كأنه قال : والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز .

ومثله قوله تعالى : ﴿ لا أقْسِمُ بيومِ القيامةِ * ولا أقْسِمُ بالنفسِ اللوّامةِ ﴾[1] .

فالمقسم عليه أو الجواب محذوف والتقدير : لتبعثنّ ولتحاسبنّ .

= وليالٍ عشر . . . ﴾ .

فما يدل على الجواب هو قوله تعالى : ﴿ ألَمْ تَرَ كيفَ فعلَ ربُّكَ بعادٍ ﴾ .

وتقدير الجواب : « لتحاسبُنّ ولينزلنّ بكم ما نزل بأسلافكم » .

(١) هذا والماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدّم معموله إذا وقع جواباً للقسم تلزمه (اللام وقد) ولا يجوز الاقتصار على أحدهما إلا عند طول الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاّها ، قد أفلح من زكاها ﴾ ، وقد حذفت اللام واكتفي بقد فقط لطول الكلام .

شبه حول القسم في القرآن الكريم

هناك بعض الشبه التي وردت في هذا الموضوع ، وهي شبه واهية سرعان ما تتداعى عند البحث والتأمّل .

ومن الشبه الواردة فيما يتعلق بأقسام القرآن :

القول بأن الذي يلجأ إلى القسم متّهم في صدقه ، مفتقر إلى تأييد دعواه ، وقد نهى القرآن عن كثرة الحلف فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٢٤) .

وقد أثر عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه امتنع عن الحلف وهو صادق .

ولكن هذه الشبهة تتهاوى عند التأمل الواعي ، فإن الذي يلجأ إلى القسم في معظم الأحيان قد يكون متهماً في صدقه في ذلك الأمر المقسم عليه ، وهو مفتقر إلى تأييد دعواه ، وهنا يستحسن منه القسم لتأييد دعواه ما دام على حق فيما يقول .

وأما إذا لم يكن الأمر مستلزماً للقسم بحيث كانت الدعوى ظاهرة فعليه حينئذ استعمال المعاريض ، فإن فيها مندوحة وإلا كان من الحلاّفين المشمولين بالذم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (القلم : ١٠) ، وامتناع سيدنا عثمان عن الحلف وهو صادق إنما هو من كمال زهده والتزامه الدقيق بما جاء به خاتم النبيين ، حيث يبتعد عن الحلف حتى فيما يستوجبه خوفاً من الوقوع في المحظور واقتراباً من المولى سبحانه وتعالى ، وحرصاً على طاعته والابتعاد عن مناهيه ، وبهذا تتلاشى هذه الشبهة ، ولكن أصحاب الشبهات لايتراجعون أبداً إلا إذا هلكوا فقد يقولون : إن المضطر الى القسم يقسم بما جل وعظم ليكون قسمه أوقع في النفوس ، ولذا نهى رسول الله ﷺ عن القسم بغير الله .

وفي الحديث : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو

ليصمت»[1] . فكيف أقسم القرآن ببعض المخلوقات ؟

نعم إن المقسم حينما يريد أن يقسم فينبغي له أن يقسم بما جل وعظم ليكون قسمه أوثق وأدعى للقبول ، وحينما أقسم الله جلّت قدرته بمخلوقاته فليس المراد أنه يدعو إلى تقديس مخلوقاته ؟!

وإنما المراد الاستدلال بها على قدرة خالقها ، وأنه وحده المتفرد بالقدرة والوحدانية .

أما الحلف بغير الله من جانب العبد فلا يجوز لأنه نوع من العبودية لغير الله عزو وجلّ .

وأما من جانب رب العزة والجلال فله أن يحلف بما شاء من مخلوقاته ، فهو الملك المتصرف في ملكه كيف شاء سبحانه .

أما عما ثبت عن النبي ﷺ من أنه قال لأحد الصحابة : « وأبيك »[2] .

---

(١) حدثنا عبد الله بن سلمة عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يحلف بأبيه ، فقال : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

صحيح البخاري الجزء الرابع طبعة ١٣٧٢ هـ ـ الناشر : مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

(٢) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وابن نمير قالا : حدثنا ابن فضل عن عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : أي الصدقة أعظم أجراً ؟ فقال : « أما وأبيك لتنبأنه : أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » .

رواه مسلم بن الحجاج النيسابوري في الصحيح تحت باب : « بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الأولى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٧١٦) .

وعن عبد الله بن سلمة عن مالك عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول : جاء رجل إلى رسول الله من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول ، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ :

« خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل علي غيرهن ؟ قال : لا إلا أن =

فهذا إنما جاء لتقوية الكلام ، ولم يقصد منه تعظيم الصحابي . نعم للنبي ﷺ أن يقول للصحابي : « وأبيك » وهذا مما جرى على ألسنة العرب ، ولايقصدون معناه ، فهو ليس قسماً ، ولكن ليس هذا مسوّغاً لأحد أن يقسم بغير الله ويتخذ الحديث ذريعة لذلك ، ولو لم يقصد به التعظيم . . .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) .

أقسم سبحانه بنفسه المقدّسة قسماً موكداً بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكّموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها ، ولم يُثبت لهم الإيمان بمجرّد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج ، وهو ضيق الصدر ، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح ، وتنفسح له كل الانفساح وتقبله كل القبول[١] .

يقول الدكتور أحمد بدوي : « واستخدم ماكان العرب

= تطوّع ، قال : وذكر له رسول الله ﷺ صيام شهر رمضان ، قال : عليّ غيره ؟ قال : لا إلا أن تطوّع . قال : وذكر له رسول الله الصدقة . قال : فهل علي غيرها ؟ قال : لا إلا أن تطوّع . فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . فقال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » وفي رواية : « أفلح ـ وأبيه ـ إن صدق » ، وفي رواية : « دخل الجنة ـ وأبيه ـ إن صدق » .

من سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ـ تحت كتاب الصلاة ـ الجزء الأول ـ الطبعة الأولى ـ (٢٧٢ ـ ٢٧٣) .

(١) التبيان في أقسام القرآن ـ للعلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله ـ ص ٢٧٠ ـ الناشر دار الكتب العلمية ١٤٠٢ هـ وابن القيم هو شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية ، وأطلق عليه لقب الجوزية نسبة إلى هذه المدرسة المسماة بالجوزية بسوق القمح بدمشق ، وقد تولى ابن القيم التدريس بها والإشراف عليها .

ولد في السابع من صفر ٦٩١ هـ . وتوفي في الثالث عشر من رجب ٧٥١ هـ رحمه الله رحمة واسعة .

يستخدمونه[1] من الحلف بحياة المخاطب ، فأقسم بحياة رسوله عندما قال : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر : ٧٢)، وفي الواقع إن القرآن لم يستخدم ما كان العرب يستخدمونه مجاراة لهم ، وكيف وقد جاء بتحريم الحلف بغير الله سبحانه ، وإنما هو إشادة بهذه الحياة الكريمة الجديرة بالتقدير والإجلال والحب والإكبار من رب العزة والجلال الذي أحب هذا النبي واصطفاه .

ولذا كان في شتى صور مخاطبة القرآن لسيدنا رسول الله ﷺ هي العطف والرقة والتسامح كما قال تعالى : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (التوبة : ٤٣) منتهى الرقة في العتاب ، وصدق الله العظيم .

كما يقول الدكتور أحمد بدوي : « وإذا كان القسم لاينجح أحياناً في حمل المخاطب على التصديق ، فإنه كثيراً مايوهن في النفس الفكرة المخالفة ، ويدفع إلى الشك فيها ، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله »[2] .

وهنا نقول للدكتور أحمد بدوي لا . . . فإن الفكرة الخاطئة والمخالفة تدحضها الفكرة الصحيحة والسليمة ، وليس أسلوب القسم على الرغم من أهميته . . .

كما ينبغي لنا حيال القسم التصديق والإذعان لا التردد ، والاضطراب ، فمن حلف لكم بالله فصدّقوه .

---

(١) من بلاغة القرآن د . أحمد أحمد بدوي (١٧٠) طبعة ١٣٧٠ هـ .

(٢) من بلاغة القرآن د . أحمد بدوي (١٧٠) .

نماذج لأسلوب القسم في القرآن الكريم

وفي قوله تعالى : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ (الفجر : ١ ، ٥) .

فقد أقسم الله سبحانه بضوء الصبح عند مطاردته ظلمة الليل ، وبالليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة ، لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج .

قال المفسرون : أقسم تعالى بالفجر لما فيه من خشوع القلب في حضرة الله عز وجل بالليالي الفاضلة المباركة ، وهي عشر ذي الحجة لأنها من أفضل أيام السنة .

كما ثبت في سنن ابن ماجه من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أيامٍ العملُ الصالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام ـ يعني عشر ذي الحجة ـ قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهادُ في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء »[1] .

والشفع والوتر ، الشفع : يوم النحر ، والوتر : يوم عرفة . وقيل غير ذلك .

والليل إذا يسر ، أي : وأقسم بالليل إذ يمضي بحركة الكون العجيبة والتقييد بسريانه لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة .

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝ ﴾ (الفجر : ١ ، ٥) ، هل فيما ذكر من الأشياء قسم مقنع لذي لب وعقل ؟!

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه تحت عنوان : باب صيام العشر ـ الجزء الأول ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار احياء التراث العربي ـ طبعة ١٣٩٥ هـ / ٩١٧٥ م ـ (٥٥٠) .

وابن ماجه هو الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المولود سنة ٢٠٧ والمتوفى سنة ٢٧٥ هـ .

والاستفهام تقرير لفخامة شأن الأمور المقسم[1] بها ، كأنه يقول : إن هذا القسم عظيم عند ذوي العقول والألباب ، فمن فكان ذا لبّ وعقل علم أن المولى عزّ وجل ما أقسم بهذه الأشياء إلا لكونها دلائل على عظيم قدرة الله وتوحيده وربوبيّته وعجائب صنعه .

من هنا تبرز أهمية القسم في لفت العقول وتنبيه الألباب إلى جليل صنع الله المتجلى بالعظمة المتقدس بكمال الجلال ربّ العزّة والجلال .

وهذا هو دور القسم الذي لايجحد فضله وأهميته على طريق الهداية والوصول إلى الطريق القويم .

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني الطبعة الأولى ص ٥٥ .

الفصل الثالث

الأمثال في الأسلوب القرآني

تعريف المثل

المثل في اللغة ، وما تحمله هذه الكلمة من تأويلات :

يقول صاحب اللسان : « المَثَل والمِثْل والمَثِيل : كالشَّبَه والشِّبْه والشَّبيه »[1] .

حيث تحمل هذه الألفاظ كلها معنى المماثلة والمشابهة والمساواة .

والله سبحانه يقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى : ١١) . فنفى عن نفسه الشبيه والنظير .

وفي الأثر : « إني أوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه » .

وللأمثال في القرآن معان أخر غير معنى الشبه والنظير ، من هذه المعاني :

الصفة ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (محمد : ١٥) . أي : صفتها وشأنها .

القصة : كما في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾ (الكهف : ٣٢) . أي : قصة الرجلين .

الآية ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الزخرف : ٥٩) . أي : أن عيسى عليه السلام ما هو إلا عبدٌ أنعم الله عليه وجعله آية دالّة على عظيم قدرته .

العظة والعبرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ (الزخرف : ٥٦) . أي : عظة وعبرة .

والحال والشأن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (النحل : ٦٠) .

سير الأولين ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة : ٢١٤) .

---

(١) لسان العرب / مادة المثل .

أي : سيرهم .

وقد يأتي المثل على أصله[1] ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ (الفرقان : ٣٩) ، أي : ماسيق في القرآن من حديث ومثل يتعلّق بالمواعظ أو القصص ، أو أخبار الأمم الماضية ، كل هذه الأمثال المضروبة إنما عنى بها نتيجتها وعاقبتها وهي ما حاق بالأمم الغابرة ممن سبقت أخبارهم وضربت بهم الأمثال ، ونتيجة ذلك ما نزل بهم من عذاب .

من هذا الاستعراض الشامل يتّضح لنا أن للأمثال معاني متعددة وصوراً شتى ، ولعل نقطة الارتكاز في هذه التفسيرات جميعها تكمن في المعنى الذي يدور حول الشبه والنظير ، وهو الذي سنؤسس عليه حديثنا حول المثل في موضوعنا هذا .

---

(١) على أن الكلمة إذا شاعت وانتشرت وكثر دورانها على الألسنة كانت « مثلاً » .
أما إذا كانت الكلمة صائبة وصادرة عن تجربة ولم تدر على الألسنة فتسمى « حكمة » .

الأمثال في القرآن الكريم ومعناها

نظم الأمثال مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم ، فهي[1] تحرّك المشاعر والأحاسيس بما تقدمه من ألوان الممثَّلات في صورة ملموسة ، فتجذب النفوس للتفاعل معها ، والاستفادة بما تقدمه من صور الهداية التي تغري بفعل الخير والعمل به ، وكذلك تجنّب الشرّ والابتعاد عنه .

والقرآن يوضّح أهمية هذا الجانب ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت : ٤٣) .

وكان بعض السلف رحمهم الله يبكي إذا قرأ مثلاً ولم يفهمه ؟! ويقول : لست من العالمين !

وفي الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال »[2] .

ويقول الإمام الماوردي رحمه الله : « من أعظم علم القرآن علم

---

(١) راجع الأمثال من الكتاب والسنة ـ للحكيم الترمذي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ (١ ـ ٢) ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ الفجالة .

(٢) الحديث ورد في تفسير الطبري هكذا : « حدثنا أبو كريب قال : حدثنا المحاربي عن الأحوص بن حكيم عن ضمرة بن حبيب عن القاسم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن مسعود قال : إن الله أنزل القرآن على خمسة أحرف : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال ، فأحِلَّ الحلال ، وحرِّم الحرام ، واعملْ بالمحكم ، وآمن بالمتشابه ، واعتبر بالأمثال » .

تفسير جامع البيان في تفسير القرآن ـ للإمام الطبري ـ الجزء الأول ، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق (٢٤) .

هذا وقد ضعّف الحديث الإمام الحافظ بن حجر العسقلاني في فتح الباري ، قال ابن عبد البر : هذا حديث لا يثبت لأنه من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود ولم يلق ابن مسعود . فتح الباري ـ لابن حجر ـ الجزء التاسع (٢٩) .

أمثاله ، والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات ، والممثل بلا مثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام »[1] .

ويقول الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله : « واعلم أن مما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبّهة ، وأكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبّ من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صَبابة وكلَفاً ، وقصر الطباع على أن يعطيها محبّة وشغفاً »[2] .

من هنا يتضح لنا ماتقوم به الأمثال من تأثير بارز فعال لايقتصر على تأثيرها كوسيلة من وسائل الإيضاح ، وإنما هي أيضاً وسيلة مباشرة بينة التأثير في الهداية .

وكانت تلك الأمثال القرآنية سبيلاً من سبل القرآن إلى العظة والهداية .

يقول الشيخ محمد الغزالي : « وعندي أن قدراً كبيراً من إعجاز القرآن يرجع إلى هذا ويشير إلى تنوع الأمثال فما أظن امرأً سليم الفكر والضمير

---

(١) عزاه صاحب الإتقان إلى الماوردي ، ولم أقف عليه ـ راجع الإتقان للسيوطي الجزء الثاني (١٦٧) .

(٢) أسرار البلاغة في علم البيان ـ للإمام عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق محمد رشيد رضا ـ طبع بمطبعة الترقي بشارع عبد العزيز ١٣١٩ هـ .

وعبد القاهر الجرجاني هو الإمام الألمعي حسنة جرجان ونادرة الزمان ودرة تاج الفلك وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ، ونظم البحتري ، ويستجيد معاني الإتقان والإحسان . يقول الإمام الزركشي رحمه الله في المثل : « ومن حكمته تعليم البيان ، وهو من خصائص هذه الشريعة ، والمثل أعون شيء على البيان » ، البرهان ـ للزركشي ـ الجزء الأول ـ الطبعة الثانية (٤٨٧) .

« اعلم أن العقل نوعان مطبوع ، ومسموع ، وإلى الأول أشار ﷺ بقوله : « ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل » .

وإلى الثاني أشار ﷺ بقوله : « ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدىً ، أو يرده عن ردىً » وهذا العقل هو المعني بقوله عز وجل : ﴿ وما يعقِلُها إلاّ العالِمُون ﴾ .

يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به .

قد تقول : ولِمَ يتأثر به ؟

والجواب : إنه مامن هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه .

ثم هي وسيلة من وسائل التربية حيث عني المربون بالأمثال كطريق من طرق التربية »[١] .

من هنا تتضح فعالية الأمثال كطريقة من طرق التربية الإسلامية ، وعن طريقها يمكن تحقيق أهداف التربية التي تسعى إليها خاصة عندما تعرض بطريقة القرآن في أسلوب رقيق يجذب النفوس جذباً ، وبما تمتاز به من نظم معجز مؤثّر ينفذ إلى أعماق النفوس ، وبالتالي يحرك في الإنسان عاطفته وميوله واتجاهه نحو الخير والحق ، وهذه كلها مؤثرات إلى طريقة استخدام الأمثال في تحقيق الأهداف التربوية .

ولأهمية هذا الجانب في كتاب الله كان محل دراسة وعناية الباحثين[٢] الذين تناولوا القرآن بالبحث والدراسة ، تأكيداً لأهمية هذا الأسلوب بين أساليب التعبير القرآني والذي كان من أبلغ طرق الهداية وترسيخ العبرة في النفوس .

---

(١) نظرات في القرآن ـ للشيخ محمد الغزالي ـ الطبعة الخامسة (١٢٣) .

(٢) ممن تناول هذا الجانب بالبحث والدراسة عدد وفير من العلماء والباحثين في الدراسات القرآنية قديماً وحديثاً .

تناوله الإمام الترمذي في كتابه : « الأمثال من الكتاب والسنة » ، والإمام الزركشي في كتابه : « البرهان في علوم القرآن » ، والإمام السيوطي في كتابه « الإتقان » .

كما تناوله عدد من الباحثين المُحْدَثين الذين عقدو له فصولاً مطوّلة في كتبهم ، من هؤلاء : الشيخ مناع القطان في كتابه : « مباحث في علوم القرآن » ، والدكتور أحمد بدوي في كتابه : « من بلاغة القرآن » وغيرهم كثير .

فلا يكاد باحث يتعرض للدراسة القرآنية إلا ويتحدث عن هذا الجانب الهام .

شروط المثل

هذا ويشترط في المثل عدة شروط حتى يكون له وقعه المؤثر في النفوس تتمثل في إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية .

فإيجاز اللفظ : يعنى الصياغة البلاغية في التركيب الجملي نتيجة للحذف والاختصار .

وإصابة المعنى : ترتكز على بلاغة القول وفصاحته وسلامته من عيوب البيان اللفظية والمعنوية .

وحسن التشبيه : هوالإطار التصويري الذي يبدو فيه إبراز عنصر من عناصره الفنية في البيئة والشكل .

وجودة الكناية : هي نهاية البلاغة .

خصائص الأمثال القرآنية :

تتجلى في الأمثال القرآنية دقة التصوير وجلال التعبير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية ، مع صدق المطابقة في الصورة التمثيلية القائمة بين المضرب والمورد ، هذا مع التنويع في العرض ، مرة بالتشبيه ، ومرة بالتمثيل المركب الذي يتنوع منه وجه الشبه بنظرة كلّية عامة ، إلى غير ذلك من أفانين القول .

هذا مع اعتماد القرآن على حذف بعض المقاطع من الصورة التمثيلية اعتماداً على ذكاء أهل الاستنباط .

هذا إضافة إلى الصور الحيّة المتحركة التي تبرز الأحاسيس والمشاعر الوجدانية في آيات وعبر لايعقلها إلا العالمون .

القيمة البيانية للأمثال القرآنية

جاءت الأمثال القرآنية وهي تحمل العديد من القيم البيانية التي تثبت المعاني في النفوس .

يقول الإمام الترمذي رحمه الله : « واعلم أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت[1] عليه ، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء ، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه ليدركوا ماغاب عنهم فأما من لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً» .

فلا جرم ما ضرب الله الأمثال من نفسه لنفسه ، وكيف ولا مثل ولاشبيه له ؟ لذلك قال جل ذكره : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل : ٧٤) .

فالأمثال موضحات للحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهدي النفوس بما أدركت عياناً ، فمن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها ، ليعقلوا بها فيدركوا ماغاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة .

فمن عقل الأمثال سماه الله تعالى في كتابه عالماً لقوله عز من قائل : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت : ٤٣) .

ومن هنا تعددت الأمثال في القرآن مع حرص القرآن على تكرارها كلما سنحت الفرصة ، فنجد في القرآن العظيم ثلاثاً وأربعين مثلاً .

منها مايتعرض لملكوت الله ، ومنها مايتعرض للحثّ على فعل الخيرات واجتناب المنكرات ، ومنها مايصوّر طبائع الناس واختلاف قلوبهم تبعاً لتصرفاتهم ، وهنا تجدر الإشارة إلى هذه الأمثال التي وردت في القرآن

---

(١) الأمثال في الكتاب والسنة ـ للحكيم الترمذي ـ تحقيق محمد علي البجاوي ـ الجزء الأول (٢) .

مكتفياً بالإشارة إلى السورة ورقم الآية في الهامش[1] .

وعندما يتتبع الدارس الأمثال القرآنية يجدها ذات قيمة بيانية واضحة في تثبيت المعاني ، ذلك أنها تبرز المعقولات في صورة المحسوسات ، كما أوضح المولى عز وجل حقيقة هذه الدنيا فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس : ٢٤) .

كما أنها تبعث في النفس دواعي الخير حين يكون الممثّل به مماترغبه النفس وتميل إليه ، كما في قوله تعالى في الحثّ على الإنفاق : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦٢) .

أيضاً تبعث في النفس التنفير من الشيء حين يكون الممثل به مماتنفر منه النفس وتشمئز ، كما في قوله تعالى في النهي عن الغيبة : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (الحجرات : ١٢) .

علاوة على أن الأمثال تكشف لك عن الحقائق وتريك الغائب في صورة الحاضر ، كما في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ (البقرة : ٢٧٥) .

كذلك يضرب المثل لمدح الممثل به كقوله تعالى في وصف النبي ﷺ

---

(١) السور المحتوية على الأمثال في القرآن هي :

البقـــرة (١٧ ، ١٩ ، ٢٦ ، ١٧١ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦) ، وآل عمران (١١٧ ، ٣٠١) ، والأنعام (٧١) ، والأعراف (١٧٦) ، ويونس (٢٤) ، وهود(٢٤) ، والرعد (١٤ ، ١٧ ، ٣٥) ، وإبراهيم (١٨ ، ٢٤ ، ٢٦) ، والنحل (٧٥ ، ٧٦ ، ١١٢) ، والكهف (٣٢ ، ٤٥) ، والحج (٣١ ، ٧٣) ، والنور (٣٥ ، ٣٩) ، والعنكبوت (٤١) ، والروم (٢٨) ، ويٰس (٧٨) ، والزمر (٢٩) ، ومحمد (١٥ ، ٣٠) ، والفتح (٢٩) ، والحشر (١٥ ، ١٦) ، والتحريم (١٠ ، ١١ ، ١٢) .

وأصحابه الكرام البررة : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (الفتح : ٢٩) .

وأيضاً يضرب المثل لذم الممثل به إذا كان فيه صفة يستقبحها الناس ، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه فتنكب الجادة عن العمل به وانحدر منغمساً في الدنايا ، قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] (الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦) .

---

(١) وانظر إلى كمال التكريم من الله جلّت قدرته لنبيه وحبيبه وصفيه سيدنا محمد ﷺ فلم يخاطب المولى نبياً في القرآن إلا ودعاه باسمه ﴿ يا يحيى خذ الكتابَ بقوة ﴾ [سورة مريم : ١٢] ، ﴿ يا إبراهيمُ * قد صدقت الرؤيا ﴾ [سورة الصافات : ١٠٤ ـ ١٠٥] ، ﴿ يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأميّ إلٰهين من دون الله ﴾[سورة المائدة : ١١٦] .

وحينما يخاطب سيد الأنبياء والمرسلين يقول عز من قائل : ﴿ يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ ﴿ يأيها الرسول ﴾ .

ولم يخاطبه باسمه إلا في ثلاثة مواضع ، وقد قرنها بوصفه عز وجل : ﴿ محمد رسول الله ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] ، ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتَمَ النبيين ﴾ [سورة الأحزاب : ٤٠] ، ﴿وما محمد إلا رسول قد خلَتْ من قبلِهِ الرسل ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٤] .

صور المثل في القرآن الكريم

والأمثال في القرآن جاءت على أنواع منها :

الأمثال المصرحة :

وهذه كثيرة في القرآن ، وهي ماجاءت في القرآن وقد صرح فيها بلفظ المثل ، كقوله تعالى في وصف المنافقين : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَٰعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ١٧ ، ٢٠)[١] .

هذه هي حالة المنافقين العجيبة الذين استحبوا العمى على الهدى بعد ما وضح لهم الأمر وتبيّنوه ، فبعدما اتضحت لهم معالم الهدى والرشاد أبوا إلا الكفر والعناد ، هذه الحالة هي حالة من استوقد ناراً فبدلاً من أن يستفيد بضوئها إذا به لم ينتفع ، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون .

وإذا كانت الآذان والألسنة والأعين لتلقّي الهدى والانتفاع به ، فإن هؤلاء قد عطلوا هذه الحواس ، فهم صمٌ لايسمعون ، بكم لاينطقون عمي لايبصرون ، فلا رجعة لهم إلى الحقّ ، ولا أوبة لهم إلى الهدى ولا هداية لهم إلى النور .

ومثل آخر يصور ما هم فيه من حيرة وقلق واضطراب إنه مشهد عجيب حافل بالحركة مشوب بالاضطراب فيه تيه وضلال ، وفيه هول

---

(١) سبب نزول الآيات : كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله سبحانه فيه رعد شديد وصواعق وبرق ، فجعلا كلما أصابتهماالصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما من الخوف أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما ، وإذا لمع البرق مشيا إلى ضوئه ، وإذا لم يلمع لم يبصرا فأتيا مكانهما يمشيان ، فجعلا يقولان : ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمداً فنضع أيدينا في يده ، فأتياه فأسلما ووضعا أيديهما في يده وحسن إسلامهما .

ورعب ، وفيه أضواء وأصداء ، صيب من السماء هاطل غزير فيه ظلمات ورعود وبروق ، فما يكاد البرق يلمع ويحاولون تلمس الطريق حتى يزداد الجو ادلهماماً مع صوت مهول مرعب صوت الرعد ، فإذا بهم يقفون في صمت وهيبة ورهبة مع حيرة واضطراب كل هذا يصور مايضطرب في داخل هؤلاء القوم من الحيرة والقلق والتيه الذي يعيشه هؤلاء نتيجة اضطراب ضمائرهم وفساد عقائدهم بين مايقولونه لحظة ثم يعودون عنه ناكصين ، إنه مشهد حسي يرمز لحالة نفسيّة سيئة للغاية ، ويجسم صورة شعورية وهذه طريقة من طرق القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس .

وهناك الأمثال الكامنة :

وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ، ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز :

ويمثلون لهذا النوع بما رواه أبو الحسن إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم قال : سمعت أبي يقول : سألت الحسن بن الفضل فقلت : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن[1] ، فهل تجد في كتاب الله : خير الأمور أوساطها ؟ قال : نعم ، في أربعة مواضع ، قوله تعالى : ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ (البقرة : ٦٨) . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء : ٢٩) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ

---

(١) فائدة : عقد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب الآداب باباً في ألفاظ من القرآن جاريةٍ مجرى المثل ، وأورد من هذا قوله تعالى : ﴿ ليسَ لها من دون الله كاشفةٌ * لن تنالُوا البرَّحتى تُنفقوا مما تحبُّون * الآن حَصْحَص الحقُّ * وضربَ لَنا مثلاً ونسيَ خَلْقَه * ذلك بما قدَّمت يداكَ * قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تَسْتَفتيان * أليس الصبحُ بقريبٍ * لِكلِّ نبأٍ مستقَرٌّ * كلُّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ * وعَسى أن تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ﴾ .

راجع الإتقان في علوم القرآن ـ للإمام السيوطي (١٦٨ ـ ١٦٩) .

بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء : ١١٠) .

قلت : فهل تجد في كتاب الله من جهل شيئاً عاداه ؟ قال : نعم في موضعين : ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ (يونس : ٣٩) . وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (الأحقاف : ١١) .

قلت : فهل تجد في كتاب الله : اِحذر شرَّ من أحسنت إليه ؟ قال : نعم ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (التوبة : ٧٤) .

قلت : فهل تجد في كتاب الله : ليس الخبر كالعيان ؟ قال : في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ (البقرة: ٢٦٠) .

قلت : فهل تجد في الحركات البركات ؟ قال : في قوله تعالى : ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء : ١٠٠) .

قلت : فهل تجد : كما تدين تدان ؟ قال : في قوله تعالى : ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء : ١٢٣) .

قلت : فهل تجد فيه لايُلدغُ المؤمن مِن جُحرٍ مرتين ؟ قال : ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ (يوسف : ٦٤) .

قلت : فهل تجد فيه قولهم : لا تلد الحيّةُ إلا الحيّةَ ؟ قال : في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح : ٢٧) .

قلت : فهل تجد في قولهم : للحيطان آذان ؟ قال : ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ (التوبة : ٤٧) .

قلت : فهل تجد فيه : الجاهل مرزوق والعالم محروم ؟ قال : ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ (مريم : ٧٥) .

قلت : فهل تجدُ فيه : الحلال لايأتيك إلا قوتاً ، والحرام لايأتيك إلا جزافاً ؟ قال : في قوله تعالى : ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ (الأعراف : ١٦٣)[1] .

---

(١) وهذه الأمثال المرسلة قد اكتسبت صفة المثلية بعد نزول القرآن وشيوعها في المسلمين ، ولم تكن أمثالاً وقت نزوله ، وهي في جملتها مبادىء خلقيّة ودينيّة واجتماعيّة مركزة .

هذا وقد رأى بعض العلماء أن التمثل بمثل هذه الآيات فيه خروج عن أدب القرآن ، لأن الله سبحانه لم ينزل القرآن ليتمثل به ، بل ليتدبر فيه ويعمل بموجبه . =

على أنني لا أوافق الدكتور بكري شيخ أمين في موضوع الأمثال الكامنة حيث يقول : « ويبدو لنا أن ذلك تنطع وتكلّف لا حدّ لهما ، وأنه لايكفي لإطلاق كلمة (المثل) على تلك العبارات ، وإن حملت معنى مثل سائر دارج ، لأن الصيغة التي تشترط في المثل لا تتوافر فيها ، لذلك فنحن نرفض ما جاء به السيوطي ومن تبعه ، ولاتعتبر الأمثال الكامنة شيئاً يستحقّ أن يدرج في بحث الأمثال »[1] .

ذلك أن مثل هذه الأمثال عنوان بين على إعجاز القرآن ، وشاهد قائم على قوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام : ٣٨) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الزمر : ٢٧ ، ٢٨) .

مع العلم بأن الشروط التي يجب توافرها في المثل قد انطبقت عليها من إصابة اللفظ وإيجاز العبارة .

كما ينبغي ألا يفوتنا بأن هذه المقاييس التي وضعت للمثل لاينبغي أن نجعلها الميزان الذي نخضع له آيات الكتاب العزيز مادام أن هذه الآيات قد شاعت وجرت مجرى الأمثال ، فضلاً على أن مافي الآيات السابقة من سمو التعبير القرآني الذي يدل على مدى هذا الفارق الهائل بين مايمكن أن يكون في كلام الناس ، وهذا الإعجاز البين في كلام الله رب العالمين .

= ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجدّ ، كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس ، فيقول : ﴿ ليسَ لها من دونِ الله كاشفةٌ ﴾ .

أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله من غير اقتناع بما يسوقه من حجج ، فيقول له : ﴿ لكُمْ دينُكم وليَ دين ﴾ .

والحذر الحذر أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة ، فيتمثل بالقرآن حتى في مقام المزح والهزل . . فهذا إثم كبير ، كأن يرى الرجل صاحباً له يأتيه من غير طلب ، فيقول له ممازحاً : ﴿ جئتَ على قَدَرٍ يا موُسى ﴾ فهذا من الاستخفاف بالقرآن والعياذ بالله من ذلك .

(١) التعبير الفني في القرآن ـ د . بكري شيخ أمين . الطبعة الثالثة (١٣٢) .

نماذج من الأمثال القرآنية

ومع تتبّعنا لطائفة أخرى من الأمثال القرآنية لإيضاح مااشتملت عليه هذه الأمثال من سمات امتازت بها على كافة الأمثال في صور إيضاحية بارعة ، نقرأ قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام : ٧١) .

(قل) والخطاب للنبي ﷺ أمر صريح وخطاب حاسم في أن الأمر لله من قبل ومن بعد .

قل لهؤلاء الذين أسلموا مقادهم لهذه الصور والتماثيل . . . إن مايدعونه لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً ، سواء أكان روحاً أم ملكاً أم إنساناً أم شيطاناً ، كلّهم سواء لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً .

فهم أعجز العجزة والأمور إنما تجري بمقادير ، فما لم يأذن به الله لايكون . قل لهم مستنكراً وموبّخاً إن دعوة غير الله وعبادته والخضوع له والخنوع سخافة وانحدار وانتكاسة ، فهو رجوع إلى الوراء بعد التقدّم والارتقاء ﴿ونرد على أعقابنا ﴾ .

إن هذا المشهد الشاخص لاينطبق عليه إلا مثل ذلك الشخص الذي ارتد بعد إيمانه ، وتوزع قلبه بين الإله الواحد والآلهة المتفرقة .

فهو حيران مشتّت القلب والخاطر يعيش في تيه مطبق ، فقد استجاب لداعي الشيطان وقد أحس من قبل طعم الإيمان ، فهو في حيرة وارتباك وفي نفس الوقت هناك من أصحابه من يدعوه إلى الهدى (ائْتِنَا) .

ولكن هيهات ، فالنفس مضطربة ، والأفكار موزّعة ، والهواجس متشعبة . صورة نفسية تعكس أحاسيس وخلَجات الحيرة والقلق ، ومشاهد متنافرة في إطار نفس معذّبة قلقة حائرة . . . إنه مصير تعيس ولا نجاة ولا مخرج إلا بالرجوع إلى هدى الله ، لأنه وحده الذي ينطبق عليه الهدى والرشاد .

ففي رحاب الله تصفو النفوس وتلذ المشارب وفي ظل جنابه الكريم

ورحابه العظيم يحلو التلذّذ ويطيب العيش .

وأمرنا لنُسلِمَ لربّ العالمين ، فالاستسلام لمقدّر المقادير رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ضرورة حتمية للراحة الأبدية ، فهو السلام ، ومنه السلام وإليه السلام ، تبارك ربنا رب السلام .

وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤١ ، ٤٣) .

إنه لتصوير رائع لحال أولئك المتمردين الطغاة الذين عاثوا في الأرض فساداً ، فمنهم من بطِر النعمة واعتزّ بالقوّة والسلطان ، ومنهم من اعتزّ بالمال .

خدعتهم قوّة السلطان ، يحسبونها القوّة القادرة التي تعمل في هذه الأرض ، فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم .

والآخرون خدعتهم قوة المال يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة ، فيسعون للحصول عليها ليتسلطوا على الرقاب كما يحسبون .

خدعوا بهذه المظاهر الزائفة فتهافتوا عليها كتهافت الفراش على النار .

ونسوا القوة الوحيدة القادرة المدبرة التي تملك كل هذه الأشياء ، تملكها وتسخّرها وتدبّرها قوة الله سبحانه وحمايته .

إنهم في حالهم هذا أشبه مايكونون بتلك الحشرة الضعيفة (العنكبوت) حشرة رِخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن ﴿ وإنّ أَوْهَن البيوتِ لبيتُ العنكبوت ﴾ .

فالحقيقة التي لامراء فيها أنه لاحماية إلا بالله ولا ركن إلا ركنه الركين .

هذا وإذا كان المثل في عرف الأدباء والنقاد هو ما حمل فيه المورد على

المضرب ، وإذا كانوا قد اشترطوا لصيغة المثل شروطاً ، فإن المثل القرآني ليس من قبيل التمثيل الاصطلاحي في عرف هؤلاء وأولئك ، وإنما هو فن متفرّد في بابه ، بديع في مادّته مستقلّ في مضمونه ، رائع في منحاه ، حتى جاء لوناً متميزاً فريداً في أدائه وفي تركيبه وفي معناه .

« وقد ضرب الله الأمثال للناس لتقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع ، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به ليكون أقرب إلى تعقّله وفهمه وضبطه ، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه ، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير .

ففي الأمثال من تأنُّس النفس وسُرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق ، أمر لا يجحده أحد ولاينكره ، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً فالأمثال شواهد المعنى المراد وهي خاصية العقل ولبه وثمرته »[1] .

---

(١) إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (٢٩١) الجزء الأول .

الفصل الرابع

أسلوب القصة في القرآن

تقديم

والقصة القرآنية لونٌ من ألوان الهداية في هذا الكتاب المعجز ، وهي الحقّ كلّ الحق ، والصدق كلّ الصدق في تسجيل الوقائع والأحداث ، كما أنها منبر إشعاع فيّاض في تقويم النفس البشرية متمثّلاً كلّ ذلك في تسلسل أحداثها ، وارتباط موقفها ، وإثارتها وشخصيّاتها ، وعقدها ، ونتائجها ، وواقعيتها ، ولاريب فهي تنزيل من حكيم حميد .

ولعل من أبرز ميزاتها التي حار المبدعون فيها أنها تجمع من صدق الوقائع التاريخية جلال العبرة ، وجمال العرض والتصوير ، فهي تبلغ غاية الروعة والجمال سواء في الأداء وإصابة المغزى ، أو في تحقيق الغاية من سمو في العبارة وجمال في الأسلوب ، وهي في الوقت نفسه تحكي الوقائع كما هي من غير زيادة ولا نقصان ، وهذا هو سر الجمال في هذه القصص .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ (آل عمران : ٦٢) . وقوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (يوسف : ٣) .

إذ أن المواصفات التي اشترطها الأدباء والنقاد في نجاح هذا الفن القصصي في الآداب الإنسانية هو الجنوح نحو الخيال المغرق ، والأدب المكشوف ، وإمتاع الخيال والعاطفة حتى لو تجّردت القصة عن الواقعية والصدق في الحدث التاريخي .

إن القصة القرآنية نموذج فريد في هذا اللون القصصي مع أنها قبل هذا وذاك وسيلة إصلاح وهداية وعظة وعبرة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف : ١١١) .

ويتناول القرآن قصص الأنبياء والمرسلين ويذكر طرفاً من معجزاتهم ومن المقرر أنه ليس الغرض من ذلك استقراء الوقائع ، ولاتحديد الأزمان ، ولاتناول الظروف والملابسات ، ولاتسجيل مجرد للحوادث والأشخاص ، ولا البحث التاريخي الاصطلاحي والفني ، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة والعبرة ، وتقرير قواعد هذه الهداية في النفوس بذكر هذه القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئين ، والقرآن الكريم يصرح بهذا في

وضوح[1] .

ومن ثم كان من أبرز ماتهدف إليه القصة القرآنية هو العبرة والعظة والهداية .

فالقرآن الكريم كتاب الدعوة وتاريخها ، وفي تضاعيف السرد التاريخي لأخبار الأولين ، يزداد عرض الدعوة وضوحاً ويستبين منهجها الذي تحدو البشر إليه ، والذي لايختلف وإن اختلفت العصور وكرّت الدهور .

وكما يدلّ هذا القصص الموصول على حقيقة الدين ، ويحدد تحديداً حاسماً الطريقة الوحيدة لمرضاة ربّ العالمين ، كذلك يدلّ على طبائع الناس ووسائل علاجها ، وسنن الله في عقابها أو معافاتها .

من هنا عرض القرآن الكريم نماذج متعدّدة للرسل مع أممهم من لدن نوح عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ[2] كل ذلك ليعالج أمراض النفوس ، وهو يحكي حال المجتمعات التي طواها الماضي كيف عاشت ؟ وكيف كانت استجابتها لدعوة أنبيائها ؟ وهل قابلت ذلك بالتصديق أم بالإنكار ؟

ومن هنا تستجلى العبرة وتشرق الهداية ، ولاسيما إذا حكى القرآن ماوقع لتلك الأمم الكافرة منها والمؤمنة .

قال تعالى حاكياً موقف نوح مع قومه المعاندين ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (هود : ٣٢ ، ٣٤) .

وقال تعالى حاكياً قصة يونس مع قومه المؤمنين : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس : ٩٨) .

إن القصص القرآني آيات بالغة التأثير في تأديب النفوس وسياسة

---

(١) راجع كتاب « نظرات في القرآن » لمحمد الغزالي ـ الطبعة الخامسة (١١٧) .

(٢) نظرات في القرآن ـ لمحمد الغزالي ـ الطبعة الخامسة (١١٠) .

الأفراد والأسر والجماعات[1] ، تشرق من خلالها المحاورات النابضة التي أثبتها القرآن ، وهي معالم خالدة لضبط الحقيقة التاريخية والواقعيّة وأخذ العبرة منها .

ومن خلال ذلك كلّه نجد البيان المعجز يتخلّل هذا القصص القرآني كله في كل آية من آياته وفي كل صورة من صوره .

كما جاء هذا القصص كالمواساة وتخفيفاً للمعاناة الشديدة التي لايتحملها إلا إمام المرسلين ، عليه الصلاة والسلام ، والتي لاقاها مع الأسف الشديد من أعرف الناس بصدقه وأمانته .

وإن العنت الذي يلاقيه سيدنا رسول الله ﷺ وأصحابه من الكفار في تكذيبهم للدعوى وإيذائهم للمؤمنين إنما هو عادة متأصّلة في نفوس المشركين في كل زمان ومكان ، فالتاريخ يعيد نفسه ، والمعاندون دائماً لاشغل لهم سوى التكذيب والمكابرة والإيذاء الذي قد يصل إلى تعذيب الأجساد وقهر النفوس وإزهاق الأرواح وتخريب البيوت .

كما قال تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود : ١٢٠)[2] .

معلوم أن القَصَص القرآني لا يخضع ـ من حيث قيمتُه الفنية ـ لأي مقياس نقدي أو فنّي يمكن أن يتوصل إليه الإنسان مهما علت منزلته في مجال النقد الأدبي ، فالقرآن فوق كلّ تلك المقاييس والمعايير البشرية ، لأنه كلام رب العالمين . . . ويكفي وصف الله له بأنه : ﴿ أحسن القصص ﴾ .

---

(١) نظرات في القرآن ـ لمحمد الغزالي ـ الطبعة الخامسة (١١٣) .

(٢) هذا إضافة إلى ما للقصة القرآنية من فوائد جمة تتجلّى في إيضاح أسس الدعوة إلى الله وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي ﴿ وما أرسَلْنا من قَبْلكَ من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إلهَ إلاّ أنا فاعْبُدونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

ومع هذا كله فإن القصة القرآنية تظهر صدق النبي ﷺ في دعوته إلى الله بما أخبر به عن أحوال الماضين ، ثم تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم مع مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى وتحديه لهم بما كان في كتبهم من قبل من التحريف والتبديل كقوله تعالى : ﴿ كلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيلَ إلا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسِهِ من قبل أن تُنَزَّلَ التوراةُ قلْ فَأْتُوا بالتَّوراةِ فاتلُوهَا إن كنتمْ صادِقِينَ ﴾ . [آل عمران : ٩٣] .

وبالتالي فإن القصص القرآني كان سابقاً على تلك التقسيمات الحديثة التي وصل إليها النقاد المحدثون من تقسيم القصة إلى : قصة طويلة ، وقصة قصيرة ، وما إلى ذلك ، ومع ذلك فإن المتتبع لهذا القصص القرآني يجده قد تنوع من حيث الطول أو القصر حسب المقام الذي اقتضى هذا القصر أو ذلك الطول .

من هنا نلحظ أن القصة القرآنية كانت تتنوع في صورها . . .

وسوف أقوم بعرض نماذج من هذه الصور :

فالقصص القرآني غير أكاذيب القصاص وخيالات المخرّفين ، وهو لايخضع من حيث قيمته الفنية لمقاييس الهوى والخيال الجامح والأكاذيب المفرطة .

وتتنوع القصة القرآنية وتتعدد في صورها من طويلة إلى قصيرة . . . وهي في مختلف ألوانها قصة واقعية هادفة إلى زرع الطمأنينة في النفوس المستعدّة لمعرفة الحكمة وفصل الخطاب .

القصة الطويلة في القرآن :

ولعل قصة نبي الله يوسف عليه السلام مثل للقصة القرآنية الطويلة التي استكملت مقومات القصة كما أراد الله لها في القرآن من حيث نقطة البدء بمحاولة إخوته التخلص منه : ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ .

ثم يجيء الشروع في التنفيذ والبدء في التخطيط لأخذه من أبيه بطريق الخداع وحبك الأكاذيب ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

ويتسنّى لهم الحصول على بغيتهم ومن ثم يبدأ التشاور بينهم ويستقر الأمر على رميه في الجب المهلك ﴿ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ .

هنا تبدو النفس مشدودة إلى معرفة مصير يوسف ؟ وما الذي سيحدث له بعد ذلك ؟ هل سيخرج أم لا ؟

ويلتقطه السيّارة ، فيا ترى هل سيستخدمونه ؟ أم ماذا ستصنع به

السيارة ؟ ويباع بثمن بخس وأين ؟ في مصر ! بعيداً أشد البعد عن موطنه الأصلي فلسطين ! ويباع لمن ؟ للعزيز !

الإثارة تشتد في معرفة مصير يوسف في هذا البيت الشامخ الوجيه ، وكيف سيتأقلم مع أسلوب الحياة هناك ، وتعلونا مظاهر الارتياح حين نسمع العزيز يقول لامرأته : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ .

ونتساءل هل ستكرم امرأة العزيز مثواه ؟ أم تنظر له نظرة الدخيل ؟ ونتشوق إلى معرفة معيشته هنا ؟

ونفاجأ بمراودة امرأة العزيز له ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ .

ونتشوق إلى معرفة موقف يوسف معها ؟ هل سيصعق من هذه المفاجأة ؟ أم يخضع لإرادتها ؟ لا سيما وهي ولية نعمته ويعيش معها ، وليس هو مظنة للتهمة ، لأن عيشه معها عاد كابن لها ، فالشكوك لا تتطرق إليه ، ويأتي الردّ على هذه التساؤلات في تعوُّذ يوسف من هذه الفعلة : ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وهنا نتشوق إلى معرفة ردّها ؟ هل ستوقع به ؟ أم تحاول تلافي الأمر وترجو من يوسف أن لايخبر زوجها بالأمر ؟ ولكن الموقف يزداد توتّراً ويتفاقم حدّة ، بعد أن نفاجأ بالزوج العزيز يدخل في نفس اللحظة التي كان يوسف يركض فيها مولياً الأدبار .

وهنا تنتابنا الدهشة حين نسمع امرأة العزيز ترمي يوسف بتهمة الخيانة ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ .

ونتشوق إلى معرفة موقف العزيز من يوسف ، لاشك في أنه موقف حرج للغاية ، فيوسف يريد من العزيز أن يحسن الظن به وهو مظلوم .

والعزيز يرى زوجته قد اتهمت يوسف بالخيانة . . . إنه موقف محيّر . . . ولكن سرعان مايحل اللغز وتتبدّد الحيرة حين شهد شاهد من أهلها : ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ

﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

وينتقل يوسف إلى السجن بعد هذه التهمة المنكرة وكانت حالة يوسف عند دخوله السجن مزيجاً من الفرح والحزن ، الفرح لأنه ابتعد عن بيت المكر والخديعة ، والحزن لأنه سجن ظلماً والسمعة السيئة لمن لايعلم حقيقة الحال ، لكن السجن كان فاتحة خير له ، ورُبَّ مِحْنَةٍ في ضمنها منحة .

ويرى الملك رؤيا ويعجز المعبرون عن تفسيرها ، ونجد تعبيرها عند يوسف على يد الساقي .

وهنا تتوالى المفاجآت في سلسلة من الترابط والاتساق .

أولهما : في خروجه من السجن ، وثانيهما : في اعتراف زليخا ، وثالثهما : في توليه أمر الخزانة .

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ .

. . . ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ .

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ .

ويعيّن وزيراً للخزانة ، وأصبح مسؤولا عن صرف الميرة والطعام في زمن القحط ، ونفاجأ بإخوة يوسف في ضمن القادمين لطلب الميرة فهل ياترى سيعرفهم يوسف بعد هذه الغيبة الطويلة أم لا ؟ وهم بالتالي هل سيعرفونه ؟

وهنا تأتي الردود على هذه التساؤلات من كتاب الله : ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ .

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ .

وينجح يوسف ببراعة وذكاء وتوفيق من الله في استبقاء أخيه ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ .

ثم تبدو تساؤلات جديدة وعديدة : كيف يصنع أخوة يوسف ، هل سيعودون بدون بنيامين ؟ وما موقف الأب حينما يعودون له ؟ وهل سيعودون مرة أخرى للمطالبة ببنيامين وتقديم فداء له ؟ وما موقف يوسف منهم إذا عادوا ؟

ويطالعنا القرآن بالإجابات المثيرة لهذه التساؤلات : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ ، ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

فهم لم يعودوا لطلب بنيامين ، ولم يتطرقوا لذكره !

وهنا يرق يوسف للحال التي وصل إليها إخوته ، ويرى بأن وقت الإفصاح عن نفسه قد حان ، فيقول ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴾ .

كلمات تعيد لهم ذكريات مضت واندثرت في مخيلاتهم ، وهنا يثوبون إلى رشدهم ويقولون في غمرة الاندهاش ، وفي تساؤل ممزوج بالفرح والحزن : ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ .

ويرد عليهم : ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وهنا يلجؤون إلى تمحل عذر يسوغ لهم فعلتهم ، ويدفع الخجل عنهم ، ويبرىء ساحتهم ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ والاعتراف بالحق فضيلة ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ .

ويلجأ يوسف إلى التخفيف من حدة الموقف وتوتره ، فيقول في تعبير يشف عن نفس معصومة ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

ثم نتشوق إلى معرفة لقاء يوسف بأبوين : هل سيعود لهما ؟ وإذا عاد فما الطريقة التي يعود بها ؟

وهنا تأتي مفاجأة القرآن الكريم ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ

أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

ويتجهز الأب والإخوة في الرحيل إلى مصر ، وهناك كان لقاء الأحبة لقاء لايوصف ، ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ .

وبعد أن تنتهي القصة يظل العقل مشدوداً أمام أحداثها منذ أن بدأت تلك الرؤيا المنامية حتى لحظة اللقاء : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .

فتبين صدق الرؤيا بسجود إخوته وكان عددهم أحد عشر أخاً ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وهما الشمس والقمر ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ثم انظر إلى الفطنة في القول ، فقد قدم ذكر منة الله عليه بإخراجه من السجن ، مع كونها تالية لمنة الخروج من البئر ، ولم يذكر سببها إلا ضمناً ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ ليفصح عن حرصه على الطهارة والنقاء ، إذ في خروجه من السجن تبين أنه بريء من أي ريبة ، وما اختلقته امرأة العزيز كان محض افتراء .

ثم لئلا يذكر مايتسبب في جرح شعورإخوته أو إيلام مشاعرهم لاسيّما والموقف يقتضي المسامحة ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

كل ذلك في تفصيل مثير ، وارتباط وتشابك قائم على حلقات مثيرة عقدة تلو الأخرى وحلولها في تعانق وارتباط متحدة في الأجزاء مترابطة في

الأحداث .

وقد برزت فيها الشخصيات بروزاً ينم عن دورها الدقيق في مجريات الأحداث .

كل ذلك في تآلف تام من بدايتها وفي أثناء عرضها إلى نهايتها في أسلوب معجز رائع معيب .

كل ذلك قبل أن يعرف الأدب قديماً أو حديثاً شيئاً عن تقسيمات القصة وعن عناصر بنائها وعن عوامل نضجها واكتمالها .

وهنا تعقب الآيات على القصة ، فبعد هذا العرض المثير وبعد ذلك الأسلوب المعجز الباهر . . . يأتي بعد ذلك الغرض من هذا القصص القرآني ، الذي يكمن في العظة والاعتبار . وأنها لهداية البشر .

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

القصة القصيرة في القرآن الكريم :

لقد تحدث الأدباء عن فن القصة القصيرة ، واشترطوا لهذا اللون الأدبي شروطاً خاصة في عرفهم وهي :

أولاً : أن تكون القصة مركزة غاية التركيز في تعبيراتها بحيث يكون كل تعبير ذا أثر في تطور القصة وتسلسل أحداثها .

ثانياً : أن تكون القصة ذات بداية وقمة ونهاية ، تلك النهاية التي يحلو لبعض النقاد أن يسمّيها لحظة (التنوير) وهي اللحظة التي تدرك فيها لماذا كتب الكاتب القصة .

ثالثاً : أن لاتكون كثيرة الأشخاص ، فالقصة القصيرة لاتسمح لشخص أن يظهر فيها إلا إذا كان مهمّاً للغاية بالنسبة للحدث ، وإذا ظهر فلا بدّ أن يظلّ موجوداً في القصة حتى تنتهي .

وهذا نموذج قرآني يرقى فوق ما حدّده النقاد والأدباء لمثل هذا اللون الأدبي ، قال تعالى على لسان الخليل عليه السلام : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ

﴿ الصَّابِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (الصافات : ١٠٠ ، ١٠٧) .

في ستين كلمة اكتملت قصة معجزة . . . من ناحية الزمن فترة محدودة للغاية ، فهذا أب يهمّ بقتل ابنه ، وتلّه للجبين ، فيوحي إليه ربه : قد صدّقت الرؤيا فينقذ الابن .

ومن ناحية الموضوع فإنه يتلخص في أب يقول لابنه : إنه قد أوحي إليه أن يقتله ، فيقول الابن في صدق الإيمان وعظمته : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ ، ولم تحد القصة عن موضوعها قيد أنملة .

ومن ناحية الأشخاص فهما اثنان لاثالث لهما ، يدور بينهما هذا الموقف الرهيب .

من ناحية البداية ، والقمة ، والنهاية :

البداية : ﴿ ربّ هب لي من الصالحين ﴾ .

القمة : ﴿ افعلْ ما تُؤمر ـ وتلّه للجبين ﴾ .

النهاية : ﴿ وفديناه بِذِبْح عظيم ﴾ .

البداية أروع ما تكونُ البَداية ، فالسورة تبدأ بدعاء يتوجه به الخليل عليه السلام إلى ربه .

القمة : أروع ماتكون القمة : أب يستعد لذبح ابنه امتثالاً لأمر ربه ، وابن يرحب أن يقتل في سبيل الله وفي صبر عجيب .

النهاية : أروع ماتكون النهاية في فداء الابن بذبح عظيم ودخول الأب في صف المحسنين[١] .

---

(١) السرد القصصي في القرآن ـ ثروت أباظة (٥٢ ـ ٥٤) ـ دار نهضة مصر .

ولعل الحكمة في هذه الرؤيا كما ارتآها المفسرون هي : « أن إبراهيم اتخذه الله تعالى خليلاً ، فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده . فأمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة ، فامتثل أمر ربه وقدم محبته على محبة ولده » .

والقصة ذات اللمحة الخاطفة :

لون من ألوان القصص القرآني كما نرى في مقام الامتنان إذا كان الجزاء من جنس العمل ، فإنا نرى القصة القرآنية تميل إلى الإيجاز والإشارة الخاطفة تذكيراً للنبي ﷺ بتلك المنن التي من الله بها على رسله من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ (مريم : ٥١ ، ٥٣) .

فليس الهدف هنا القص ، وإنما الهدف بيان رضاء الله عز وجل عن عبده ورسوله موسى عليه السلام لإخلاصه فاجتباه ووهب له الرسالة واصطفاه نبياً ، وحباه بكلماته وزاده بركة بجعل أخيه هارون نبياً .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ (مريم : ٥٤ ، ٥٥) .

وكما عرفنا فليس الهدف هنا القص ، وإنما بيان رضا الله سبحانه ومنته على عبده ورسوله إسماعيل جزاء صدقه ، وأمر أهله بالصلاة والزكاة ، فاجتباه ربه وأكرمه بالنبوة والرسالة ، وزاده برضاه عنه . وهكذا فالجزاء من جنس العمل .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم : ٥٦ ، ٥٧) ، فكان صديقاً وهي أرفع درجات التصديق والإيمان وكان نبياً حصنه الله وعصمه ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ وهي الجنة لاشيء أعلى منها .

كل ذلك منّة منه سبحانه وكرماً ، تذكيراً للنبي ﷺ بتلك المنن الجسام .

وقال تعالى : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ (الأنبياء : ٧٤) .

فلوط عليه السلام آتاه الله حكماً ، وهومايجب فعله ، وعلماً وهي النبوة ، ونجّاه الله من القرية التي كانت تعمل الخبائث ، وأدخله الجنة

مستقرّ رحمته ومستودع مغفرته ، إنه كان من الصالحين .

القصّة الحوارية :

وهي التي تحكي حواراً بين شخصين كما في قصّة موسى عليه السلام مع فرعون .

قال فرعون : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ في تجاهل واستخفاف ؟

قال موسى : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ والهداية رأس كل بر فمن حرمها فلا فائدة ترجى منه .

قال فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ؟

قال موسى : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ .

قال فرعون : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ .

قال موسى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ (طه : ٤٩ ، ٥٩) .

وهكذا نجد علامات الاستفهام تملأ عقل فرعون فهو يشتط عله يدرك على موسى مغمزاً .

وقد تكون حكاية الحوار بين شخصية إنسانية وأخرى من فئة الطير ، كما في حوار الهدهد مع نبي الله سليمان ، ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ .

لقد كان الهدهد عضواً ذا شأنٍ في مُلك سليمان ، وانطلاقاً من روح المسؤولية والحرص على أفراد الرعية والتفقد لشؤونهم تبينّ غياب هذا العضو ، وحرصاً على معرفة مصدر غيابه وانزعاجاً على هذا الغياب .

سأل النبي الملك سليمان عليه السلام وقال ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ ، يأتيني بعذر يسوغ له هذا الغياب بدون إذن .

وهنا تلوح في الأفق بوادر أمل ممزوج بأمل من مملكة الطير في وصول الهدهد بالعذر المقبول عند نبي الله سليمان عليه السلام : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ .

أمر يثير الاندهاش فعلاً ، فماذا عساه هذا الخبر الذي غاب عن ملك سليمان ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾ !

مقدمات تثير الكثير من علامات الاستفهام والترقب ، ثم ماذا ؟ ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ .

لا إنه أمر لاينبغي السكوت عليه إنها مخالفة صارخة للفطرة التي آمن بها كل شيء حتى الطير ﴿ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ .

لقد قال الهدهد هذا ، وقد أدرك بثاقب نظره أن الذي يخرج الخبء في الأرض هو أعلم بسواه ، ولأن طائر الهدهد رزق من البصيرة بحيث يستخرج قوته من باطن الأرض وهذه لفتة ذكية .

فقاس هذا الطائر الذكي بفطنته الخبء على ماظهر وأن الذي جعل رزقه في باطن الأرض هو القادر على كل شيء ، وهو المستحق للعبادة ، وهو الذي يعلم ما تخفون وما تعلنون ، ثم هذه الشمس التي تعبدونها إن كان تصل بإشعاعها على ماظهر ، فليست هي بالقادرة على الوصول إلى الخبء في الأرض ، وبالتالي هو خاف على علمها وهو مختف عنها وعن ضوئها !

ومن هنا كان المستحق للعبادة هو الله جل شأنه ، وتعالت أسماؤه ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴾ .

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ (النمل : ٢٠ ، ٢٧) ، قالها سليمان عليه السلام في لهجة الحاكم البصير باتخاذ القرار عن تريث وروية دون الاستعجال والبت في الأمور دون اكتراث لما قد تأتي به المحصّلات من نتائج .

وقد تكون المحاورة نفسية ذاتية كما في الحوار الداخلي الذي أجراه إبراهيم مع نفسه لبيان أخطاء قومه في عبوديتهم لغير الله عز وجل .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ (الأنعام : ٧٥) .

صورة شاخصة جعلت من الليل في سكونه جسماً مشخصاً نتملاه ونحس به ، وهو يكتنف الخليل عليه السلام ويسدل عليه ستوره ، يعيش في جو هذا السكون الذي يملأ القلب هيبة وجمالاً يتملى في سكينة ودعة عظمة الخالق الصانع لهذا الملكوت جلّ جلاله ، وهذه الأفلاك المتناثرة في هذا الليل البهيم ، وكأنها المصابيح تنير دياجير هذا الظلام الدامس .

ولكن لحظات التملّي تزول بزوال هذه الكواكب ، فإذا بمنطق الفطرة والبديهة : ليست هذه آلهة ، فالإله لايزول ؟! ومن يدبر هذا الملكوت إذا غاب راعيه ؟!

فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي ، إن هذا الجرم العظيم مدعاة للتساؤل .

هل هذا العملاق في تفرده في السماء بنوره الساطع الذي يسكب في الوجود دفئاً وحناناً .

ومن ثم ، فهل هذا هو الإله ؟ هل هذا ربي ؟

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ، ولكن ربي لايغيب هذا منطق فطرتي الصافية ، رباه إن لم تتداركني بلطفك ورحمتك وتهدني لأكونن من القوم الضالين ، إنني في حاجة إلى عونك وتسديدك لي يارب .

ولكن لنعد النظرة مرة أخرى في ضوء النهار . مادمت لم أتوصّل إلى خالقي في سكون الليل ، فلعلي أجده في ضوء النهار .

آه إنها الشمس أكبر الأجرام وأشدّها نفعاً ، فهي مطهرة ومخصبة للقوت والنبت ، وباعثة على الحيوية والنشاط . ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

ولكن قد بدأت تميل إلى الغروب فالأفول ؟

لا ياقوم إني بريء مما تشركون ، إن إلٰهي هو أكبر من هذا كله ، إنه المتصرف في هذا الوجود كله ، إني أحسّه في قلبي في مشاعري في كياني .

وتنطلق الشرارة ويتم الاتصال بين منطق الفطرة الصادقة والله الحقّ ، ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر ، وعلى العقل والوعي ، وهنا يجد إبراهيم إلٰهه يحسه في وعيه وإدراكه كما هو في فطرته وضميره ، هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطري المكنون والتصور العقلي الواضح ، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام : ٧٥ ، ٧٩) .

القصة القرآنية بين التوحّد والتكرار

القصة التي لم تتكرر :

هذا ويلاحظ في القصص القرآني أن هناك قصصاً قد كرّرت ، وأن هناك قصصاً لم تكرّر ، فما السر في هذا ؟

ولعل السر في عدم التكرار لتلك القصص التي لم تكرر أن جميع هذه القصص إنما قصد بها مجرد الإعلام والإخبار ، وهذا يتحصل في المرة الواحدة ، فعلم النبي ﷺ يحصل بمجرد الإخبار من هنا ، فلا حاجة إلى التكرار في مثل هذا القص .

من هذا القصّ قوله تعالى في قصّة المحاجّة التي جرت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام والذي حاجّه في ربه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (البقرة : ٢٥٨) .

وقصة الذي مر على قرية ، قال تعالى : ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٥٩) .

وفي هذا القص يلاحظ أن الهدف منه هو مجرد الإعلام والإخبار بما جرى لإبراهيم عليه السلام مع النمروذ ، ولصاحب القرية حينما أخذه العجب من هذه الأرماس ، وكيف تبعث ؟ وهذه الرفات وكيف تجمع ؟!

فأماته الله مائة عام ثم بعثه وأراه من عظيم قدرته سبحانه ، وفي هذا أعظم دليل على البعث والنشور والخروج من القبور ، فسبحان من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت .

ومثل هذا القص وهو إنما جاء للإخبار والإعلام ، وهذا يتحصل

بالمرة الواحدة ، من هنا لم يكن هناك داع إلى التكرار .

وفي قصة أصحاب الكهف قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (الكهف : ٩ ، ١٥) .

وقصة ذي القرنين ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (الكهف : ٨٣ ، ٨٨) .

فقصة أصحاب الكهف وذي القرنين لم يقصد بها سوى إعلام النبي ﷺ بأخبار هؤلاء القوم وهذا يتحصل العلم به بالمرة الواحدة .

من هنا لم تكرر مثل هذه القصص .

القصة التي كررت :

وأما القصص التي كررت ، وهذه كثيرة في القرآن ، فما السر في تكرارها ؟

ونقول : إن هذه كررت للعظة والعبرة وللتسلية والترويح عن النبي ﷺ على أن العجيب في تكرار أحداث القصة بهذا الأسلوب المتمايز عن الآخر يجعل القارىء والسامع لا يمل من التكرار ، بل على العكس من ذلك نراه يجدّد في نفسه معاني أخر ربما إنها لم تحصل له من قبل فيما عرض من أسلوب سابق .

- كما أن هذا التكرار طريق من طرق تأكيد المعنى في النفس واستقرارها

في خواطر القارىء والسامع ، فكل قصة من القصص القرآنية التي قد تكررت اتحدت أهدافها ، فهي وإن تكررت في مواضع كثيرة في القرآن ، إلا أنها تشير إلى غايات شتى حيث إنها تمثل الصراع بين الحق والباطل .

وعلى هذا فإن التكرار يشبب هذا الصراع ويؤكد نهاية الظلم وبذلك ترسخ هذه الغاية في النفس ، فتكون أدعى إلى التصديق والامتثال .

على أن الأمر العظيم الذي له بال خطير يستأهل التكرار ، أما الشيء العارض فإن تكراره قد يكون ثقيلاً على السمع ، بغيضاً إلى النفس ، من هنا فإنه لا يستأهل المعاودة ، أما الأشياء الجسيمة ذات البال كقصص القرآن التي كلها عبرة وعظة وأحداث من أنباء الغيب ، فما أحوج البشرية إلى معرفتها والوصول إلى مراميها ، وعلى هذا فتكرارها أمر يطابق مقتضى الحال ، إذ أن الطبيعة البشرية تميل إلى أن يعاد الشيء الذي يحنّ الإنسان إليه ويرغب في معرفته ، وخصوصاً أن هذه الأمور مرتبطة بالعقيدة وبالسلوك الإسلامي الصحيح .

على أن الهدف السامي لهذا القصص سواء في موضوعه أو حواره أو صراعه هو الهداية والدعوة إلى الحق .

والقصة القرآنية تهدف إلى إثبات وحدة الألوهية ، ووحدة الدين ، ووحدة هدايات الرسل ، ووحدة طرائق الدعوة ، ووحدة المصير ، ومن ثم فهي وسيلة إلى كل ذلك .

والقصة القرآنية تعرض للأخلاق الفاضلة ، وتدعو إليها بصور متنّوعة . وبالجملة يمكن القول : إن القصة القرآنية من طرق التربية على الحقّ والخير ومكارم الأخلاق ، وهي مهمّة غاية الأهمية في توضيح علاقات الإنسان الخلقية والروحية بأخيه الإنسان .

وذلك مع بلاغة الأسلوب ، ودقّة المعاني ، وصدق ما تهدف إليه ، وفي قصص القرآن نجد الأهداف التربويّة واضحة ، ذلك أن شخصيات هذا القص واقعية صالحة لكل عصر ، وبالتالي فإن المربي الجيد هو الذي يمكنه أن يستغل هذه المواقف وتلك الشخصيات في تحقيق أهداف التربية الإسلامية .

وهكذا تبدو القصة القرآنية مع الإعجاز الباهر في أسلوبها وطريقة أدائها ، ومع ذلك فهي لا تنفك أبداً عن أداء دورها الباهر في الهداية والتوجيه .

الفصل الخامس

الصّور البيانية في أسلوب القرآن الكريم
التشبيه ، الاستعارة ، الكناية

تقديم

القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم حميد ، نزل بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب في خصائصها العجيبة وما تقوم به .

وقد طلع على العرب الأقحاح بألفاظ وتراكيب وموضوعات لم يعرفوها من قبل ، وظلّت آياته على امتداد الحقب قوّةً للخطيب وحِلْيةً للمنشىء ، يُرصِّع بها كلامه فتتميّز بطَلاوتها ونفاستها ، كما تتميز اللؤلؤة الفريدة في عقد من الجزع ، ولسوف تبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فهو المعجزة الخالدة التي أفحمت البلغاء المصادع ، وأبهرت الخطباء المصاقع وألجمت الشعراء الخناذيذ .

ففي البيان القرآني ـ الذي جُمع له العرب ـ من دقة التشبيه وروعة التمثيل وبلاغة الإجمال والتفصيل ، وقوة الحجاج ، ما يعجز طوق البشر ، ويرمي المعارضين بالعي والحصر .

ونحاول هنا أن نقطف من جنى البيان القرآني بعض الثمار الأسلوبية في حدائق التشبيه ، الاستعارة ، الكناية .

من صور التشبيه في القرآن الكريم

تتعدد الصور وتتنوع مظاهر الإعجاز في طي هذا الكتاب العظيم ، فمن إعجاز في المنهج إلى إعجاز في الأسلوب ، بجانب ما في هذا الكتاب العظيم من إعجاز في الهداية والتوجيه .

لقد حفل القرآن الكريم بالكثير من الأساليب البيانية الرائعة ، وفيه وجد المعنيون بالبلاغة ضالتهم المنشودة .

إنك لا تكاد تضع يدك على شيء ، أو يقع نظرك على لفظة حتى تلمس هذا الإعجاز ، إنه يخاطبك من وراء السطور ، إنه يستدعيك فأنت مشدود إليه ، تحس به وتناجيه ، تقترب منه وتهتدي بهداه وهو يفيض بتجلّياته الربّانية ، بهمَساته الروحانيّة ، إنه غذاء الروح .. إنه هديّة السماء للأرض ، إنه مأدبة الله الذي لا تنفذ عجائبه .

ونريد هنا أن نقف عند مظهر إعجازي يتجلّ في الأسلوب من حيث الصور البيانية القرآنية ، ومن هذه الصور : التشبيه ، كما في قول الله تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود : ٤٢) . هنا يصور القرآن الكريم لنا حال السفينة وهي تمخر عباب البحر حاملة على ظهرها نبيّ الله نوحاً والعصابة الناجية التي تصحبه .. وهنا ترتسم لنا صورة تلقي في النفس رهبةً وجلالاً .. إنها صورة الأمواج العاتية وهي تتقاذف السفينة في وسط صخب البحر وهديره ، وكل موجة كالجبل من حيث العظم والضخامة .

إن النفس لتملؤها الحيرة ، ويعصف بها الاضطراب للمصير إلى السلامة الذي ينتظر أصحاب السفينة ، وما هو الشعور الذي كان يساورهم وهم يصارعون تلك الأمواج العاتية في لجة بحر صاخب قد عمّ الأرض كلها .. ؟ !

ولكن ما تلبث النفس أن تستشف رحمة الله وهي تحيط بها ، وعناية الله وهي تلاحظها ، حتى تستقر السفينة على الجوديّ ، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ (هود : ٤٤) .

إنه تشبيه القرآن وكفى ، كلّه صور ، وظلال ، ومشاهد حاضرة[1] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (النور : ٣٩) .

إن القرآن الكريم وهو يصور لنا أعمال الكافرين التي يعملونها في دنياهم وهم مخدوعون بها مفتونون ، وهي لا أثر لها ولا تأثير .

إنها أشبهُ ما تكون بالطّيف الذي يلحظه المسافر الذي أنهكه حرُّ الصحراء ولفح الهجير ، فارتاح لمرآه حتى إذا ما اقترب منه لم يجده شيئاً ، إنه سراب لا وجود له ولا حقيقة .

والقرآن الكريم حين يرسم لنا صورة فإنما يستمدها من ظاهر البيئة المحيطة بنا حتى يقرب لنا المعنى فنحسه ونلمسه .

ومن هنا نجد أن السمات التي يحرص عليها الأدب الرفيع هي هذه السمات القرآنية الكريمة ، والتي أكسبته الخلود والتأثير النفسي والاستمرارية والعطاء .

وهذا نموذج آخر للمشركين الذين اشتروا الضلالة بالهدى في قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2]

---

(١) وحيث إن الحديث هنا عن التشبيه في القرآن ، فإنه من الواجب عليّ أن اجليّ معنى التشبيه في اصطلاح البلغاء ، فالتشبيه في عرف البلاغة هو : « الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى » ، والتشبيه البليغ عندهم : ما حذف فيه وجه الشبه والأداة . راجع الإيضاح في علوم البلاغة ـ للخطيب القزويني ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ (٢١٣) .

وباختصار : التشبيه في القرآن بليغ من البلاغة ، وفي كلام الناس من المبالغة .

والتشبيه : هو أسلوب يدل على مشاركة أمر لأمر آخر في صفته .

(٢) ذلك المسخ (هو بلعم بن باعوراء) من علماء اليهود آتاه الله علماً ، فكان عنده =

(الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦) .

إنها صورة مشوهة لوجه قبيح وداعية إلى الانحلال والشرّ ، ذلك من أوتي حظوة وأثارة من علم ، ولكنه آثر الضلالة وانخرط في سلكها ، فكان كمن آثر الانحدار والضعة على الرفعة والعلو ﴿ ولكنّه أخْلَدَ إلى الأرضِ ﴾ .

إن هذا المسخ لا يشبه سوى الكلب ، ذلك الحيوان الأليف عندما تغلب عليه مظاهر الخسة والدناءة ، إن تحمل على الكلب يلهث ، وإن تتركه يلهث ، فهو على كلّ حال لاهث .

وتذوق معاني قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام : ١٢٥) .

هكذا سبيل الله ، فمن أنعم الله عليه وشرح صدره للإسلام فذاك الذي رزق الهداية ونال الحظوة وسلك الجادة ، ومن اختار الضلالة سبيلاً وسبق في علم الله له ذلك ، فإنه يعيش في دوامة ، إنه ضيق الصدر ، قلق متوتر وفي اضطراب .

شأنه في ذلك شأن المتسلق جبلاً ، وما يجده من كرب وضيق في النفس ، أو شأنه في ذلك شأن من يخترق الحاجز الصوتي حيث يفقد قانون الجاذبية ، ويضيق التنفس ويشعر الإنسان بالاختناق .

وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن ، فقد توصّل العلم حديثاً إلى أن الارتفاع في طبقات الجوّ العليا ـ حيث تفقد الجاذبية ـ يؤدي إلى ضيق النفس والاختناق ، فسبحان العليم الخبير .

وتتوالى المشاهد والصور القرآنية ، وهذا مشهد من مشاهد الساعة ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ

= الاسم الأعظم ، ولكن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر الله ، فكفر وضلّ وانسلخ من العلم كانسلاخ الحيّة من جلدها فحل عليه الخزي والهوان ، فكان كالكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث . راجع صفوة التفاسير ـ للصابوني ـ تفسير سورة الاعراف .

﴿الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (القارعة : ٤ ، ٥) .

إنه مشهد عظيم ، يوم يجعل الولدان شيباً ، فما حال الناس في ذلك اليوم ؟

إنهم في ضعفهم وتهافتهم كالفراش المبثوث ، وهم مستطارون مستخفّون من هول الموقف .

وتكون الجبال كالعِهن المنفوش ، كالصوف المنتشر المتطاير ، تتفرق أجزاء الجبال وتتطاير في الجو حتى تكون كالصوف المتطاير عند الندف .

وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال تنبيهاً على أن تلك القارعة أثّرت في الجبال العظيمة المتصلبة حتى أصبحت كالصوف المندوف مع كونها غير مكلّفة ، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب[1] ؟!

إنه تشبيه القرآن الذي يجمع الدقّة والإحكام مع العظمة والجلال .

وهذا مشهد للمجاهدين الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف : ٤)[2] .

منظر حبيب وتشبيه عجيب ، إنه يمثل ذلك التماسك والتلاحم والارتباط الذي ينبغي أن يظهر عليه المجاهدون في سبيل الله من وحدة وانتظام من تراصٍ وانسجام ، يلقي في القلب هيبة وفي النفس رهبة .

انه بنيان مرصوص لا اعوجاج فيه ، إنه وحدة متماسكة قائمة

---

(١) صفوة التفاسير ـ للصابوني ـ الطبعة الأولى .

والتشبيه هنا مرسل مجمل ، حيث شبه الناس بالفراش المبثوث في الكثرة والانتشار ، وذكر أداة التشبيه ، وحذف وجه الشبه .

ومثله : كالعهن المنفوش في تطايرها وخفة سيرها ، ذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

(٢) ولقد التقت جميع القوانين العسكرية وانظمتها على أن أبرز سمات الجيش القوي هو (الانتظام) .

على أساس متين ، إنه بناء أحبه الله ورعى أسسه .

ذلك هو تصوير القرآن المعجز يسترق الأسماع بروعته ويثير في النفس آيات الإعجاب بطلاوته ، ثم لم يلبث أن يغوص إلى الأعماق ، أعماق النفوس فتهدأ وتستيقن وتستقيم .

ولا تنفذ عجائب كتاب الله ، فهذه صورة أخرى من صور يوم الفزع الأكبر في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ (الحج : ١، ٢) .

إنه مشهد حافل بمناظر شتى في ذلك اليوم العظيم الذي لهوله ترى المرضع وهي ذاهلة عما أرضعت ، إنه قرّة عينها وثمرة فؤادها ، ولكن ما كانت لتحفل به في ظلّ هذا الجو المفعم بالحشود المتماوجة إنها أهوال وأمور أكبر من ذلك .

﴿ وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَملٍ حَملَها ﴾ إنه وضع في غير أوانه إنه الهول وقد بلغ أقصاه ، إنه هروب بالذات وكل يريد النجاة بنفسه .

وترى الناس سكارى تبدو مظاهر السكر في نظراتهم الشاردة الذاهلة وفي خطواتهم المترنحة ، كأنهم ثمالى وما هم كذلك ، ولكن عذاب الله شديد .

إنه مشهد مزدحم تكاد العين تبصره بينما الخيال يتملّؤه والهول الشاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه ، وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ولكن بوقعه في النفوس الآدمية .

في الأمهات المرضِعاتِ الذاهلات عما أرضعن .

والحوامل المُلْقيات حملهن .

والسُكارى وما هم بسُكارى .

وفي الآية تشبيه : فقد شبه محفل الناس في ذلك المشهد العظيم ، والأهوال تتراءى أمامهم بالسكران الغائب عن الوعي والإلمام ، بجامع

الذهول والشرود والترنّح في كلّ[1] .

ومن الصور التشبيهية ما جاء في قوله جل شأنه : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ (الحاقة : ٦ ، ٨) .

إنه تصوير لحال المعاندين في كل زمان ومكان ، فالويل لهم والثبور مآلهم ، هؤلاء عاد عِندما كفروا بأنعم الله كان الإهلاك شأنهم فسلّط الله عليهم ريح الدَّبور وهي لا تفتر ولا تنقطع سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً .

فكانت تقطع رؤوسهم ، وتدخل من أفواههم ، وتخرج من أدبارهم ، فترى القوم فيها صرعى هالكين ، كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية : أصول نخل متآكلة الأجواف ، فهل تجد لهم أثراً ؟ أو تسمع لهم ركزاً ؟ لقد هلكوا عن آخرهم .

ويصف المؤرخون أن القوم كانوا طويلي القامة مفرطي الطول كالنخل ، من هنا كان التشبيه لهم بالنخل كما جاء على لسان هود عليه السلام : ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ (الأعراف : ٦٩) .

ففي الآية تشبيه : شبه القوم في هلاكهم حيث دخلت الريح من أفواههم وخرجت من أدبارهم وهم طوال الأجسام بالنخل المتآكلة الأجواف الملقاة على الأرض بجامع الطول المفرط مع الدمار في كلّ[2] .

أما الأبرار فإن النفس تطيب لذكرهم ، وما أعد الله لهم من نعيم مقيم ، وهذه صورة لهم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۝ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (المطففين : ٢٢ ، ٢٦) .

---

(١) يسمّى هذا التشبيه في اصطلاح البلغاء بالتشبيه البليغ ، لأنه محذوف الوجه والأداة ، لذا وجب التنويه بهذا لأن جميع ما في كتاب الله بليغ .

(٢) والتشبيه هنا مرسل مجمل ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه .

إن المطيعين المؤمنين في الجنّات الوارفة والظلال الممتدة يتنعّمون على الأرائك ، وينظرون على السرر المزيّنة بفاخر الثياب والستور ، ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم : إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحُسن ومن البهجة والسرور .

﴿ يُسْقَون من رحيق مختوم ﴾ : إنها كأس الجنّة بيضاء لذة للشاربين طيبة صافية المذاق ، لم تكدرها الأيدي ، قد ختم على تلك الأواني فلا يَفُكُّ ختمها إلا الأبرار .

﴿ ختامه مسك ﴾ : آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك ، ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ في هذا النعيم والشراب الهنيء بالمبادرة بالطاعات .

ففي قوله تعالى : ﴿ ختامه مسك ﴾ تشبيه حيث شبه آخر هذا الشراب والرائحة التي تفوح منه بالمسك ، وقد حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه .

إن حلاوة ما تذوّقنا من صور التشبيه في كتاب الله تدفعنا إلى السعي لجني ثمرة بيانية أخرى . .

من صور الاستعارة في القرآن الكريم

إن القرآن الكريم حافل بالروائع من الصور الاستعارية التي يخرّ لها الفحول ، ولا تتطاول إليها أعناق العماليق .

فمن استعارات القرآن الكريم ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مريم : ٤) .

إنها مفاجأة العبد لبارئه في عزلة يخلص فيها لربه بعيداً عن أسماع الناس وعن أنظارهم ، هي لحظات روحانيّة كلها نور واستلطاف ، يبثّ فيها زكريا شجونَه وما يُثقِل كاهلَه ، وتفضي النفس المكروبة بما يعتلج داخلها من هموم وأشجان ، لمن لا يُضام سائله ولا يخيب راجيه .

نعم هنا تُسكب العبرات ، وتُقال العثرات في جناب رب كريم .

فالجسم واهن والأعضاء متعبة ، إنه الهرم والشيخوخة وقد بدأت تدبّ في جسم زكريا ﴿ ربِّ إنّي وَهَنَ العَظْمُ منّي ﴾ .

﴿ واشْتَعلَ الرأسُ شيباً ﴾ إنه شيب كالنار تشتعل في الرأس كله حتى أحالته إلى بياض مشرق كالنار . وهكذا تتقدّم بزكريا السنون ، وهو الآن أشيب الرأس واهن العظم معوجّ القناة قد ناهز التسعين .

وانظر إلى الحسن والجلال في قوله تعالى : ﴿ واشتعلَ الرأسُ شَيْباً ﴾ ، هل تجد ذلك الحسن والجلال ؟ وهل ترى تلك الروعة التي كنت تراها ؟ لو قلت في غير القرآن « واشتعل شيب الرأس » .

فإن قلتَ : فما السبب في أن (اشتعل) إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ؟

قلتُ : إن السبب يرجع إلى أنه يفيد مع الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول ، وأنه قد شاع فيه وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقرّ به وعمّ جملته حتى لم يبق من السواد شيء ، وهذا ما لايكون إذا قيل : « اشتعل شيب الرأس» ، أو : « الشيب في الرأس » بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووزان ذلك أن تقول « اشتعل البيت ناراً » فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع

الشمول وأنها قد استولت عليه وأخذت في نواحيه .

وتقول : « اشتعلت النار في البيت » فلا يفيد ذلك بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانباً منه ، فأما الشمول وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة[1] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۞ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (الملك : ٦ ، ٨) .

هذا هو الجزاء إنه من جنس العمل ﴿ وأنْ ليسَ للإنسانِ إلاّ ما سَعَى ﴾ .

إنها جهنم وما فيها من العذاب والأهوال والأغلال جزاء وفاقاً لمن كفر وتجبر ، فليس العذاب فيها خاصاً بالشياطين ، بل هو لكل كافر بالله من الإنس والجنّ .

﴿ إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ : صوتاً منكراً فظيعاً لا يوصف لشدة توقدها وغليانها .

قال ابن عباس[2] : لجهنم عند إلقاء الكفار فيها تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .

وهي تفور إنها تغلي كما يغلي المرجل ـ القدر ـ من شدة الغضب ،

---

(١) دلائل الإعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني ـ تصحيح السيد محمد رشيد رضا ـ طبعة ١٣٩٨ هـ صفحة (٨٠) .

والاستعارة في الآية : شبه الشيب في الرأس بانتشار النار في الحطب .

وتعريف الاستعارة في الاصطلاح هي : ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له .

والاستعارة المكنية هي : تشبيه أمر بآخر ، ولكن في الاستعارة المكنية لا يظهر المشبه به في الكلام ، بل يبقى مستوراً ويرمز له بشيء من لوازمه .

وإذا بنيت الاستعارة المكنية على تشبيه فكرة مجردة أو جماد أو نبات أو حيوان بإنسان فإنها تسمى (تشخيصاً) .

أما الاستعارة التصريحية فهي ما صرح فيه بلفظ المشبه به .

(٢) راجع صفوة التفاسير ـ للشيخ محمد علي الصابوني ـ الطبعة الأولى ـ سورة الملك .

والشهيق أقبح ما يكون من صوت الحمار .

﴿ تكادُ تميّز من الغيظ ﴾ أي : تكاد تتقطع بعضها عن بعض من شدةِ غيظها وحنقها على أعداء الله ﴿ كلما ألقي فيها فوجٌ سألهم خزنتُها ألَمْ يأتِكُمْ نذيرٌ ﴾ ؟! سؤال تبكيت وتقريع وزيادة في الحسرة والندامة ليزدادوا ألماً على ألم ، إنها حسرات مضاعفة .

والاستعارة هنا تزداد جمالاً حيث شبهت جهنم في شدة حرها وغيظها وغليانها بإنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه يكاد يتقطع من شدة الغيظ ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الغيظ الشديد ، على طريق الاستعارة المكنية .

وتبدو كذلك تلك الصورة الاستعارية في روعتها وجلالها في قوله تعالى : ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير : ١٨) .

فالصبح وقد بدا ينتشر ويظهر بنوره الوضاء ليطالعنا صباح يوم جديد بآماله وتطلعاته وإشراقاته ، وقد تبددت حنادس الظلم ، إن الصبح يتنفس ، لقد كان يعاني من شبح يجثم على صدره ويكتم أنفاسه ، إنه يدافعه لإبعاده وقد تحقق ذلك ، فها هو يتنفس الصعداء وينتشر نوره ليروح عن نفسه وعن نفوس الآخرين . .

انظر إلى جمال التشبيه في إقبال النهار وسطوع الضياء بنسمات الهواء العليل التي تحيي القلب ، واستعارة لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس ، وهذا من لطيف الاستعارة وأبلغها تصويراً .

وتتدفّق الصور الاستعارية فتأخذ بمجامع قلوبنا ، ومنها ما جاء في قول المولى جلّ وعلا : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ (الأعراف : ١٥٤) .

إن موسى عليه السلام في قمّة الانفعال من فعلة قومه الذين أطاعوا السامري ، وأعرضوا عن الهدى ، واستبدلوا به الضلال فعبدوا العجل ، نعم إن الغضب قوّة تتحرك ، تدفع موسى وتغريه وتستبد بمشاعره ، فهو في قمّة انفعاله آخذ بلحية أخيه هارون يحرّكها إليه ، مستاء من صنيع القوم الذين آثروا الضلالة على الهدى . . ثم إذا بالحركة الشاخصة للغضب تهدأ عن الإغراء فجأة ﴿ سكتَ عن موسى

الغضبُ ﴾ لا نطق ولا إغراء وإذا بموسى يهدأ ويستكين ويعود إلى سكينته ، إنه تصوير رائع ونموذج حي ، يصور لنا الجماد في صورة شاخصة تتحرك وتتفاعل وتستجيب .

وانظر إلى النكتة في التعبير بالسكوت ، فإن فيه استشعاراً بأن الغضب قد يعود لأن الساكت قد يعود إلى النطق .

والاستعارة حيث شبه الغضب بإنسان يرعد ويزبد بصوته آمراً بالانتقام ، ثم اختفى هذا الصوت وسكت .

ففي الكلام استعارة مكنية حيث شبه الغضب بإنسان يحس ويشعر ويتكلم ويصمت ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر : ٩٤) .

خطاب كريم ولفتة ربانية لإمام المجاهدين في سبيل الله خاتم المرسلين سيدنا رسول الله ﷺ بأن يجهر بالدعوة ولا تأخذه في الله لومة لائم .

فإن الجهاد في سبيل الله يستلزم الحزم ، فلا محاباة في الدين ولا مجاملة ، من هنا ينبغي على الداعية أن يصبر على تحمل المشاق وما يلاقيه من عنت في سبيل الدعوة ، فالأعداء كثر والمجاهدة مطلوبة لإحداث الأثر المطلوب في النفوس الطيبة التي تريد الخير وتقبل عليه .

فاصدع يا رسول الله ﷺ بما تؤمر لتحدث دعوتك تأثيراً وأعرض عن المشركين ، والاستعارة في الآية حيث شبه الجهر بالدعوة بالصدع والشرخ في الزجاجة بجامع التأثير في كلا الطرفين وحذف المشبه ورمز له بشيء من لوازمه على طريق الاستعارة المكنية .

ومن لطائف العبارات القرآنية الحقيقية قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود : ٤٤) .

وقيل : يا أرضُ ابلَعي ماءك ، إنه أمر فوجب التنفيذ ، ويا سماء

أقلعي : أمسكي عن المطر وغيض الماء : ذهب في أغوار الأرض ، واستوت على الجودي : رست رسوّ استقرار على جبل الجودي بقرب الموصل وقضي الأمر وانتهت المهمّة .

وقيل : بعداً للقوم الظالمين ، بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا ، بعداً لهم من الرحمة فقد لعنوا ، بعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا ، وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى .

وتهدأ العاصفة وينجلي الكرب ، ويخيم على الكون صمت رهيب يمزق أسوار هذا الصمت أصوات تتردد هنا وهناك لتلك العصابة التي تشرفت بالرضا والقبول لتبدأ مسيرة جديدة وحياة جديدة .

ويروى أن أعرابياً سمع هذه الآية[1] : ﴿ وقيل يا أرضُ ابلعي ماءَكِ ويا سماءُ أقلِعي ﴾ ، فقال : هذا كلام القادرين ، لا يشبه كلام المخلوقين .

وقد احتوت الآية على صور بيانية عدة فبين الأرض والسماء طباق ، وبين أقلعي وابلعي جناس غير تام ، وكلاهما من المحسنات البديعية .

والله تعالى يقول عن النار : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ (الفرقان : ١٢) . إنه مشهد يستجيش النفس ويوحي بالفزع والخوف من هول ذلك المنظر ، مشهد النار المستعرة وقد دبت فيها الحياة فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذّبين بالبعث والجزاء ، إنها تنظر إليهم وتتوعّدهم وهي ساخطة متبرّمة غيظاً ، فإذا ما رمقتهم بدا التمعُّر عليها وتصاعدت الزفرات غيظاً منهم ، إنها لفي انتظارهم قد شاقها رؤياهم ، إنها تزفر غيظاً وتتحرّق نقمة وهم إليها في الطريق ، مشهد رهيب ومنظر عجيب ولحظات انتظار يا لها من لحظات .

لقد خلق الله تعالى في النار إحساساً عدائياً للمجرمين لا يعرف هذا الإحساس إلا خالقه . سبحانه وتعالى .

---

(١) صفوة التفاسير ـ للشيخ محمد علي الصابوني ـ الطبعة الأولى ـ تفسير سورة هود .

كما نرى في الآية ما يسمى بالتشخيص[1] ، ونعني به خلع الحياة وتجسيمها على ما ليس من شأنه الحياة المجسمة من الأشياء والمعاني والحالات النفسية .

فهو فن في القرآن كثير الورود فيما يعرضه من الصور يبلغ من الجمال مستوى رفيعاً بما يبث من الحياة في الأشياء فتنفض شخوصاً تأخذ من الأحياء وتعطي ، وتجاوبهم بالحس والحركة والحياة .

وقال تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ (يس : ٤٠) .

إنه لسباق بعيد الشوط وإنها لمنافسة بين كوكبين مسيرين بإرادة الخالق جل في علاه ، ولكن هذا السباق منتظم دقيق قد حددت أشواطه ورتبت معالمه .

﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ : لا ينبغي أن يحدث هذا ، لأن هذا الجريان يترتّب عليه نتائج وخلفيات ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ (يس : ٣٨ ، ٣٩) ، ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدركَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلّ في فلك يسبحون ﴾ .

أشواط قد حددت مساراتها واتجاهاتها ، وكل متسابق يجري إلى شوطه من غير أن يصطدم بسواه ﴿ وكلٌّ في فلكٍ يسبَحونَ ﴾ .

وهكذا نرى هذه الظواهر الطبيعية أشياء تحس وتشعر بمشاعر لا يعرفها إلا خالقها جل في علاه كلها حركة وكلها حياة وذلك تصوير القرآن ، وهو الحقّ المشاهد الملموس .

وانظر إلى جمال الشمس في حركتها الدائبة في هذا الكون الفسيح وهي تشرق صباحاً وتنتقل في مسارها نحو الغروب ، والقمر وهو يضيء الكون بنوره الوضاء حتى يغيب. هذه الحالة كل منهما فيها يسير إلى شوطه .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ

(١) بتصرف من كتاب مشاهد القيامة في القرآن ـ لسيد قطب ـ الطبعة السابعة (١١٢) .

وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ (الحج : ٥) .

لقد استحالت الأرض الجامدة بعد أن كانت هامدة خائرة القوى كالإنسان الذي أنهكه العطش ، فهو خائر القوى لا يبدي ولا يعيد .

فإذا ما نزل الماء عليها اهتزت حياة وتحركت لتخرج الحدائق الغناء والمروج الخضراء ، إنها لمسة واحدة في لفظة واحدة ، أضفت على الجماد حياة فهو يحس ويشعر ويتماوج حركة ويضطرب (اهتزّت وربَتْ) بإحساس لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ (الحج : ٦ ، ٧) .

إنها صور محسوسة ملموسة نشاهدها ونتملاّها في كل حين إن إحياء الأرض الموات بالمطر والماء فتورق وتنبت هو شأن البعث بعد الموت ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ (فصلت : ٣٩) .

وهكذا تتجلّى عظمة الخالق جلّت قدرته في تقريب الأشياء الغائبة إلى الأذهان في صورة محسة نشاهدها ونلمسها ونراها في كل حين .

وفي قوله تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (يس : ٣٧) .

إنها آية تدلُّ على عظيم قدرة الله سبحانه الذي أتقن كل شيء صنعاً ، فإن في تلاشي ضوء النهار وانحساره ليطل علينا الليل بظلامه لآية دالة على عظيم قدرة الله .

وهذه الصورة أشبه ما تكون بصورة الشاة وهي تسلخ حيث يكشط جلدها تدريجياً ، نفس العمل يحصل في قدوم الليل وانحسار مد النهار .

والأمر كذلك في انبجاس ضوء النهار بعد انسلاخ هذا الليل البهيم .

إنها صورة رائعة بجرسها وظلالها تصور الليل والنهار وهما في صراعهما الدائم عبر الدهور كل منهما يطارد الآخر فإذا اقترب وقت

انهزام أحدهما ولى مدبراً ليحل الآخر مكانه وهو يدبّ في بطء وثبات حتى يستقر في مكانه .

وإجراء الاستعارة حيث شبه ضوء النهار وهو يتلاشى وينحسر عن الكون قليلاً قليلاً بسلخ جلد الشاة عن جسدها بجامع ظهور شيء بعد خفاء ، فبكشط الجلد يظهر اللحم ، وبغروب الشمس تظهر الظلمة وهذا ما يسمى بالتشخيص .

وهكذا تتجلّى عظمة القرآن في أساليبه الاستعارية بما تجلى فيها من جلال ظاهر ، وروعة بادية ، وهي تنتقل في لطف ودقّة بين أفنان الاستعارة ، مما يأخذ بأيدينا إلى الوقوف أمام صورة بيانية أخرى هي الكناية .

من صور الكناية في أسلوب القرآن الكريم

ومع توالي الصور البيانية في آي القرآن الكريم نجد الكناية كذلك تأخذ طريقها إلى النفوس بما لها من روعة وجلال في كتاب الله ، هذا قوله تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة : ٢٢٣) .

إن هذه الكناية الفريدة مما انفرد به القرآن الكريم ، فهي لطيفة دقيقة مؤدّبة مهذّبة فيها من روعة التصوير وجمال التعبير وألوان الأدب والتهذيب ما لا يستقلّ به بيان ولا يدركه إلا من تذوّق حلاوة القرآن .

إنها عبرت عن المعاشرة الزوجية التي من شأنها أن تتمّ في السرّ والخفاء (بالحرث) وهذا نوع من الأدب رفيع .

وهذا اللفظ فضلاً عما فيه من الأدب فهو وثيق الصلة بالمعاشرة الزوجية .

انظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص ، وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث ، وذلك النبت الذي يخرجه الزوج وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح ، كلّ هذه الصور والمعاني تندرج تحت كلمة (الحرث)[1] .

أليست هذه الكلمة معجزة بذاتها ، معجزة بنظمها وتصويرها .

هل في مفردات اللغة العربية على كثرتها ما يقوم مقامها ويؤدي ما أدّته ، ويصوّر ما صوّرته أن المعنى لا يتحقق إلا بها وأن التصوير لا يوجد بسواها .

ومن الكنايات البديعة قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء : ٢٩) .

إنها صورة تشف عن نفسية ذلك البخيل الشحيح الذي لا تجود يدُه

---

(١) التصوير الفني في القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة الثامنة (٩١) .

والكناية : لفظ أريد لازم معناه نحو قولهم : (فلان طويل النجاد) أي : طويل القامة . وهكذا فالكناية : الدلالة على المعنى المقصود بطريق غير مباشر دون أن يخرج اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي .

بعطاء ، فهو ممسك مقترّ حتى إن يدَه وكأنها قد غُلّت إلى عنقه فهي لا تتحرك بسيب ، ولا تجود بعطاء .

أما الآخر فهو الذي أطلق لنفسه العنان في الاستجابة لأهوائه والانصياع لرغباته وتحقيق ملذاته ، فهو عاجز عن التدبير منطلق في تلبية رغبات نفسه .

وليت هذا الإسراف كان في وجه برّ حينئذ لا يكون إسرافاً لأنه مخلوف وثوابه حاصل حتى إذا نفذ ما لديه وأصبح خالي الوفاض ، بدأ يمدّ يده إلى الناس ليستدين ، وهنا يبدو (اللوم) ممن امتدت يده إليهم بالتأنيب والتقريع : لو اقتصدت ! لو أنك لم تتبع هواك ! لو اعتدلت في الإنفاق ! ولات ساعة مندم فتقعد ملوماً محسوراً .

وهكذا استطاعت الكناية القرآنية أن تنقل إلينا بجرسها وظلالها صورة متكرّرة وملموسة في هذا المجتمع : البخيل المقترّ الذي لا تجود نفسه بعطاء ، والمسرف الذي لا يبقي ولا يذر في أبلغ تصوير وأوجز تعبير ، فسبحانك من رب قدير .

ومن كنايات القرآن ما جاء في قوله تعالى : ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ (الأعراف : ٢٢) .

فإن أبانا آدم وأمّنا حواء حينما أغراهما الشيطان ومنّاهما الأماني في الخلد ومُلْك لا يبلى ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴾ (طه : ١٢٠) .

وقال لهما إبليس موسوساً : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (الأعراف : ٢٠) ، فدلاّهما بغرور فأكلا من الشجرة وعصيا أمر ربهما ، حينئذ استحقّا العقاب فكان الجزاء من جنس العمل فبدآ يحصدان النتاج ، وكان أوله الحرمان من ذلك النعيم المقيم المتمثّل في الجنة ونعيمها الأبدي الوارف الظلال ، ومن هذا لباس الجنة حيث نزع عنهما فبدت لهما سوءاتهما فانطلقا يلتمسان السترة ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ ، ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ

عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه : ١٢١ ، ١٢٢)[1] .

نعم هذه عقوبة البعد عن سبيل الله انكشاف من الرحمة انكشاف من الخير ، انكشاف من الستر ، ابتعاد عن طريق الخير والرشاد . . كما نرى آدم وهو يلوذ بمعصيته حتى من عليه ربه بالتوبة فاجتباه وهدى .

وفي قوله تعالى : ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ (المائدة : ٦) تعبير في قمة الأدب والذوق والحرص على مشاعر وأحاسيس المخاطبين .

إنه تعليم لنا في حسن استخدام التعابير الجميلة المهذّبة دون الإخلال بالمعنى المطلوب ، وهذا هو الأسلوب الذي ينبغي أن يتحلّ به جيل القرآن في كل زمان ومكان .

فالآية هنا تريد أن ترشدنا إلى التشريع في حالة حصول (الجنابة) ، وهي تخاطب مجتمعاً قرآنياً ، ومن ثم فهي تريد أن ترقى بالنفس تأديباً وتعليماً وتهذيباً فكان أن استخدم الأسلوب المعجز . هنا طريقته البيانية الرائعة بوضع الحكم في أسلوب رائع أخاذ دون إسفاف أو ابتذال ، فلجأ إلى الكناية فقال : ﴿ أو لامستُم النساءَ ﴾ كناية عن الغشيان ، قمّة التصوير ودقّة التعبير ، وهذه سمة من سمات هذا الدستور الخالد .

وقال تعالى : ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ (يونس : ١ ، ٢) .

أكان لأهل مكة عجباً إيحاؤنا إلى رجل منهم هو سيّد الخلق عليه الصلاة والسلام ﴿ أَنْ أنذر الناسَ ﴾ : خوِّفهم ، ﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدمَ صدقٍ عند ربهم ﴾ : لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال .

قال الكافرون : إن هذا لساحرٌ مبين ، فمع وضوح صدق الرسول ﷺ وإعجاز القرآن ، إلا أن المشركين في كل مكان وزمان دأبهم

(١) وإنما سمّيت العورة سوأة ، لأن كشفها يسوء صاحبها . قال العلماء : في الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور ، وأنه مستهجن في الطباع ولذلك سميت سوأة .

المكابرة والعناد ، وقد وقع الكافرون في اعتراف صريح بصدق القرآن ، وأنه معجز لهم ، وأنه خارق للعادة لأنه خارج عن حَدّ مألوفهم ، وما اعتادوا حتى قالوا : ﴿ إن هذا لساحر مبين ﴾ .

والكناية في الآية : في قوله تعالى : ﴿ قدم صدق ﴾ : هي المنزلة الرفيعة العالية ، والعبارة غاية في البلاغة ، لأن بالقدم يكون السبق والتقدّم ، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى بها .

وفي قوله تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة : ٧٥) .

انظر إلى كمال الأدب والتهذيب الذي يليق بأدب القرآن فالآية تتحدث عن المسيح بن مريم عليه السلام ، وأمه ، وأنهما يأكلان الطعام .

وفي هذا كناية عن أنهما كبقية البشر يأكلان الطعام ، ومن يأكل فإنه سيحدث كبقية الناس ويخرج منه الغائط .

ومن كان هذا شأنه فهو لا يصلح أن يكون إلٰهاً ، ألا ترى أن في التعبير بأكل الطعام أدباً ورقّة تغنيك أن تسمع بأذنك : كانا يتبرّزان أو يتبوّلان ، إنها تتجنب ما ينبو على الأذن سماعه .

وفي قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ (الرحمن : ٥٦) .

فأنت ترى في قصر الطرف تصويراً للمظهر المحسوس لخلة العفّة ، ولو أنه استخدم في غير القرآن عفيفات لما كان التصوير مؤثراً لهذه الدرجة ، ولا رسم أولئك الحور العين في تلك الهيئة الراضية القانعة التي لا يطمحن فيها إلى غير أزواجهن ولا يفكرن في غيرهم .

هذه كناية القرآن تنقل المعنى وافياً وفي لفظ قليل .

وهكذا يمتلىء الأسلوب القرآني بألوان من الصور التي تموج بالحركة وتنبض بالحياة ، إنها تكاد من حسنها تتكلم لتبوح عما يعتلج بها من جمال آسر أخاذ ، تكاد اليد تقع عليه والنفس تلابسه وتلامسه تشبيهاً ، واستعارة ، وكناية .

ذلك هو أسلوب القرآن وهو يرسم لنا المنهج الذي ينبغي أن يحتذى لتحقق لنا السعادة الأبدية في ظلّ جوّ روحانيّ تسوده الهداية الرّبانية ، وتكتنفه العناية الإلٰهية نحو الخلود المقيم ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ (القمر : ٥٤ ، ٥٥) .

وبعد ، فهذه أنماط وصور من أساليب البيان في القرآن الكريم ، وهي غيض من فيض وقطرة من بحر ، بيد أنها جهد المقل ، الذي أسعده تأمله ملياً في عجائب هذه الأساليب ، واستلهام روائع البيان القرآني التي لا تنفذ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (الكهف : ١٠٩) .

الباب الرابع

الأسلوب القرآني
بين حقائق الإعجاز وشبه المبطلين

الفصل الأول :

شبهات حول أسلوب التكرار في القرآن الكريم

الفصل الثاني :

حول أسلوب القصة في القرآن الكريم

الفصل الثالث :

أباطيل القائلين بالإعجاز بالصرفة في أسلوب القرآن الكريم والرّدّ عليهم

الفصل الرابع :

أباطيل القائلين بإمكانيّة المعارضة في أسلوب القرآن الكريم مع الرّدّ عليهم والمستشرقون والقرآن مع الردّ عليهم في افتراءاتِهم .

الفصل الأول

شبهَات حَول أسْلوب التكرار في القرآن الكريم

ظاهرة التكرار في آيات القرآن الكريم

نجد القرآن الكريم وهو يحدّثنا عن مناحي الحياة المختلفة نجده يكرر لنا بعض آياته ، وبعض ألفاظه ، وبعض عباراته ، وبعض قصصه .

وهذا التكرار يعدّ لوناً من ألوان إعجازه ، وقد لاحظ ذلك الأقدمون .

يقول الجاحظ : « ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام »[١] .

وقد فند العلماء قول الجاحظ هذا وارتأوا أنه يحسن من وجه ويقبح من وجه آخر ذلك أن العرب حينما كانوا قوماً مطبوعين على الفصاحة ومفطورين على البيان ، لم يكن هناك داع إلى بسط القول لهم ، بل يكفي فيه إخراجه مخرج الإشارة واللمحة الخاطفة .

وهذا قول حسن . .

وأما ما ذهب إليه الجاحظ من زيادة الكلام عند حديث القرآن عن بني إسرائيل فذلك قول مردود ، ذلك أن الأمر يقتضي وجود الحشو في القرآن ، ولا نعتقد بأن الجاحظ قد قصد الحشو بل ربما أراد البسط والإطناب .

ويردّد الرافعي في كتابه « إعجاز القرآن » نفس ما قاله الجاحظ في مسألة الإيجاز في مخاطبة العرب ، والبسط والإطناب والتكرار في مخاطبة غيرهم .

يقول : «في مسألة عدم التكرار مع الإيجاز عند خطاب العرب ، والتكرار مع الإطناب عند خطاب اليهود . .

وما يمكن أن يهتدي إلى هذا الوجه بليغ عربي من بلغاء ذلك العهد إلا بوحي وتوفيق من الله ، فإنه في الحقيقة سرٌ من أسرار الأدب العبراني

---

(١) الحيوان ـ لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ الجزء الأول ـ (٤٦) .

جرى القرآن عليه في أكثر خطابهم خاصة ، ليعلموا أنه وضع غير إنساني وليحسّوا معنى من معاني إعجازه فيما هم بسبيله ، كما أحس العرب فيما هو من أمرهم .

إذ كان أبلغ البلاغة في الشعر العبراني القديم أن تجتمع له : رشاقة العبارة وحسن العرض ، ووضوح اللفظ ، وفصاحة التركيب ، وإبانة المعنى ، وتكرار الكلام لكل مايفيده التكرار توكيداً ومبالغة وإبانة وتحقيقاً ونحوها ، ثم استعمال الترادف في اللفظ والمعنى ، ومقابلة الأضداد وغيرها ، مما هو في نفسه تكرار آخر للمحسنات اللفظية ، وتحسين للتكرار المعنوي »[1] .

والذي يمعن النظر فيما أشار إليه الرافعي في كلامه هذا يجده لا يسلم من بعض الأخطاء ، من هذا : قول الرافعي : إن أسلوب التكرار في القرآن سرٌّ من أسرار الأدب العبراني ، ومن الذي يسلم بمثل هذا الكلام .

والعرب قد أحسوا فصاحة هذا القول وعلموا أنه حتى وهو في تكراره لم يخل من فائدة ولم يخل من إعجاز ، والقرآن معجز .

والتحدّي لا يكون إلا بما هو معلوم في بيئة العرب وقد ألفوه ، وأشعارهم غنيّة بهذا اللون حتى المنثور من كلامهم ، ولو لم يكن سائغاً لديهم ، فكيف تذوّقوه وعرفوا براعة هذا القول ؟

ولا يخفى علينا في هذا المقام كلام مسيلمة الكذّاب ، وهو العربي ، وما فيه من تكرار .

ثانياً : لا يمكن أن يسلم بهذا القول من لديه أدنى اطلاع على أساليب العرب الذين اشتهروا بالفصاحة واللسن ، فهل اليهود الذين هم أبعد ما يكونون عن الفصاحة ، وأبعد عن العربية وأسرار العربية من العرب والأعراب ؟

هل يمكن أن يكون اطلاعهم على أساليب القرآن كاطلاع العرب ، أم هل يمكن وصفهم بأنهم أقدر على فهم أسرار التكرار في القرآن من أهله

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ لمصطفى صادق الرافعي ـ الطبعة الثامنة (١٩٥/ ١٩٦) .

الذين نزل بلسانهم وفاقد الشيء لا يعطيه ؟

ثم نجد الرافعي يناقض نفسه بعد ذلك ، فبعد أن أثبت التكرار وأنه سرّ من أسرار الأدب العبراني يعود فيقول :

« وهو مذهب للعرب معروف ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم : للتهويل ، والتوكيد ، والتخويف ، والتفجّع وما يجري مجراها من الأمور العظيمة .

وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة بيد أن وروده في القرآن ممّا حقق للعرب عجزهم عن معارضته وأنهم يخلون عنه لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهماً ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة »[1] .

وإذا كان من تعليق على كلام الرافعي فإني أقول : بأن العرب وهم أمراء الفصاحة وفرسان البيان ، وهم أدرى الناس بالقرآن وما فيه من إعجاز ، وليسوا بحاجة لمن يفسر لهم القول ، وقد كان الذكاء والفهم طبيعة لهم ، فهم قد فهموا القرآن بعد أن تأمّلوه ، وتذوّقوا إعجازه بعد أن سبروه ، فعلموا بأن التكرار مظهر من مظاهر إعجازه فأذعنوا له ووقفوا عند حدهم فيه .

وليس الأمر كما قيل من أنه سرّ من أسرار الأدب العبراني ، كما اتضح لنا في تراث القوم .

الأمر الثاني نجد القرآن وهو يخاطب الكفار من قريش وهم أرباب الفصاحة والبيان يبسط القول فيقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ لمصطفى صادق الرافعي ـ الطبعة الثامنة (١٩٤) .

مَعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (النمل : ٦٠ ، ٦٤) .

وهذه الآيات لا يمكن أن تكون خطاباً لليهود وحدهم ، بل لا بد أن يكون الخطاب فيها للعرب ، والكلام هنا ليس باللمح والإشارة بل هو بالتصريح وبسط العبارة ، وإذا كان فيه شيء من التكرار فهو تكرار في موضعه .

لأن التوجيه إلى النظر فيما تحت أيديهم هو في حد ذاته مقدمة لنتيجة هي الوحدانية للمعبود ، وما دامت وحدانية الخالق قد ثبتت بهذا الكلام ، فكان لا بدّ أن تذكر النتيجة أمام كل مقدمة لأنها وحدها دليل ، ولو لم تذكر النتيجة أمام كل مقدمة لكانت النتيجة ثمرة لمجموعها مع أن كل واحدة منها صالحة لأن تكون الوحدانية نتيجة لها دون أن تنضم مع غيرها[1] .

وفي الإيجاز أو الإطناب في القرآن هو مجاراة لما يقتضيه السياق ، ومقتضى الحال إذ أن مراعاة مقتضى الحال هي مهمة علم المعاني .

ويلاحظ أن مقام الاستدلال على الوحدانية من المواضع التي يحسن فيها الإطناب وقل مثلها في الآيات التي تتحدث عن المنن وتستوجب شكر المنعم كما في سورة الرحمن .

ويشرح الإمام الزركشي ـ رحمه الله ـ فوائد التكرار على ما يلي : التأكيد يقول : « وعلم أن التكرار أبلغ من التأكيد لأنه وقع في تكرار التأسيس وهو أبلغ من التأكيد ، فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوّز » .

فلهذا قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (التكاثر : ٣ ، ٤) إن الثانية تأسيس لا تأكيد ، لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء ، فقال : وفي (ثم) تنبيه على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول ، وقد قيل : الكلام إذا تكرّر تقررّ .

الثاني : زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول

---

(١) بتصرف من كتاب المعجزة الكبرى القرآن ـ لمحمد أبو زهرة ـ (١٦٠) ـ الناشر دار

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ (غافر : ٣٨ ، ٣٩) .

فإنه كرر فيه النداء لذلك .

الثالث : إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد الثاني تطرية له وتجديداً لعهده ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل : ١١٩) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (يوسف : ٤) .

الرابع : في مقام التعظيم والتهويل كقوله تعالى : ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ (الحاقة : ١ ، ٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ (القدر : ١ ، ٢) .

الخامس : في مقام التهديد والوعيد كقوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ (التكاثر : ٣ ، ٤) .

وذكر (ثمّ) في المكرر دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول ، وفيه تنبيه على تكرر ذلك مرة بعد أخرى ، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا يتطرق إليه تغيير بل هو مستمرّ دائماً .

السادس : التعجب كقوله تعالى : ﴿ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴾ (المدثر : ١٩ ، ٢٠) .

فأعيد تعجباً من تقديره وإصابته الغرض ، على حد : قاتله الله ما أشجعه !

السابع : تعدّد المتعلّق كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن : ١٣) .

فإنها وإن تعدّدت ، فكلّ واحد منها متعلّق بما قبله وإن الله سبحانه خاطب بها الثقلين من الإنس والجنّ ، وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم ، فكلّما ذكر فصلاً من فصول النعم طلب إقرارهم واقتضاهم الشكر عليه ،

وهي أنواع مختلفة وصور شتى .

فإن قيل : فإذا كان المعنى في تكريرها عدّ النعم واقتضاء الشكر عليها ، فما معنى قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ (الرحمن : ٣٥) .

وأيّ نعمة هنا ؟ وإنما هو وعيد !

قيل : إن الله فيما أنذر به وحذّر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها نظير أنعمه عليّ ما وعده وبشر من ثوابه على طاعته ليرغبوا فيها ويحرصوا عليها وإنما تتحقق معرفة الشيء بأن تعتبر بضده[1] .

ويقسّم الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ[2] التكرار في كتابه الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، إلى ثلاثة أقسام :

ما يتكرّر لفظه ومعناه متحد كقوله تعالى : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ (المدثر : ١٩ ، ٢٠) .

وما تكرر لفظه ومعناه مختلف كقوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (الأنفال : ٧ ، ٨) .

فإن المقصود بقوله : ﴿ يحقُّ الحقَّ ﴾ : بيان إرادته ، وبقوله : ﴿ليحقّ الحقّ ﴾ ، الثانية : لقطع دابر الكافرين ونصر المؤمنين عليهم .

وأمّا ما تكرّر معنىً لا لفظاً ، فهو إما أن يكون بين المعنيين مخالفة (ما) أو لا يكون كذلك .

والذي يكون بينهما مخالفة إما أن يكون أحدهما أعم ، أو لا يكون

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ للإمام الزركشي ـ الطبعة الثانية الجزء الثالث (١١) .
فائدة : وعن تكرار قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ يقول الإمام الكرماني : جاءت آية واحدة في هذه السورة كررت نيّفاً وثلاثين مرة ، لأن ست عشرة راجعة إلى الجنان ، لأن لها ثمانية أبواب ، وأربعة عشر منها راجعة إلى النعم والنقم ، فأعظم النقم جهنم ، ولها سبعة أبواب ، وجاءت سبعة في مقابلة تلك الأبواب وسبعة عقب كلّ نعمة ذكرها للثقلين .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ـ لابن قيم الجوزية ـ الطبعة الأولى (١٦٣) .

كذلك . فمثال ما كان بين المعنيين مخالفة وأحدهما أعم : قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) . فإن الدعوى إلى الخير أعم من الأمر بالمعروف .

وأما الذي لا يكون بين المعنيين مخالفة كقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التغابن : ١٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (البقرة : ١٩٦) .

هذا ومن التكرار الذي سيق مساق التنبيه إذا طال الكلام واحترس من تناسي الأول أعيد الكلام وكرر ثانية تطرية للأول وتجديداً لعهده ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل : ١١٩) .

وقوله سبحانه : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران : ١٨٨) .

ويستوقفنا في هذا اللون من التكرار ضياء الدين بن الأثير معترضاً يقول : « وهذه الآيات يظن أنها من باب التكرير ، وليست كذلك ، وقد أنعمت نظري فرأيتها خارجة عن حكم التكرير . . وذلك أنه أطال الفصل من الكلام ، وكان أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به ، فالأولى في باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ليكون مقارناً لتمام الفصل ، كي لا يجيء الكلام منثوراً ، لا سيما في (إن وأخواتها) فإذا وردت (إن) وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام ، فإعادة (إن) أحسن في حكم البلاغة والفصاحة .

كالذي تقدم من هذه الآيات وعليه ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة :

أَسِجْناً وقَيْداً واشتياقاً وغُرْبَةً ... ونَأْيَ حبيبٍ إنَّ ذا لَعَظيمُ
وإنَّ امرأً دامَتْ مَوَاثيقُ عَهْدِهِ ... على مثلِ هذا إنه لكريمُ

فإنه لما طال الكلام بين اسم إن وخبرها أعيدت (إن) مرة ثانية ، لأن تقدير الكلام : وإن امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريم . . لكن بين الاسم والخبر مدى طويل .

فإذا لم تعد (إن) مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق ، وهذا لا يتنبه لاستعماله إلا الفصحاء إما طبعاً وإما علماً[1] » .

هذا وقد علّق الزمخشري على التكرير القرآني فقال : « مذهب كلّ تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرّر في النفوس وتقريره »[2] .

ويسوق الزمخشري من ضروب التكرار ما يكون للتحضيض ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ (غافر : ٦١) .

فإن قلت : فلو قيل : ولكن أكثرهم ، فلا يتكرر ذكر الناس ؟

قلت : في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه .

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴾ (العاديات : ٦) ، ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾ (الحج : ٦٦) ، ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ (إبراهيم : ٣٤) .

ومنه التكرار للتهجين : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ لابن الأثير ـ تحقيق : د . أحمد الحوفي ، ود . بدوي طبانة ـ الطبعة الأولى (١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢ م) (١٧ ـ ١٨) الجزء الثالث .

وابن الأثير هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري والملّقب بضياء الدين من مواليد جزيرة ابن عمر ٥٥٨ هـ من شهر شعبان وتوفي سنة ٦٣٧ هـ في جمادى الأولى ببغداد ودفن بمقابر قريش في الجانب الغربي بمشهد موسى بن جعفر .

ولضياء الدين أخوان نابهان : مجد الدين أبو السعادات المبارك ، وأبو الحسن علي الملقب عز الدين ، وكان الإخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء لكل واحد منهم تصانيف نافعة ، رحمهم الله تعالى .

(٢) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه ـ د . مصطفى الصاوي الجويني الطبعة الثانية (٢٢٨) .

ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (القصص : ٨٤) .

في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم ، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين . ونفس المعنى في الآية :

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة : ٥٩) .

ومنه التكرير للتهويل كقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود : ٦٠) .

(وألا) وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لأمرهم وتفظيع له ، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم .

ومن التكرير ما جاء لدفع الوهم كقوله تعالى : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران : ٤٩) .

وكرر بإذن الله دفعاً لوهم من توهّم فيه اللاهوتية .

ومنه التكرير للتمييز ، كقوله تعالى : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة : ٥) .

وفي تكرير أولئك التنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح .

ومنه التكرير للادعاء ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة : ٨) .

وفي تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام وليس الأمر كذلك .

هذا ويرى الزمخشري أن التكرير في بنية الألفاظ وجرسها الصوتي تكرير للمعنى أيضاً ، يقول تعالى في الآية : ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (الشعراء : ٩٤ ، ٩٥) .

والكبكبة : تكرير الكب ، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على

التكرير في المعنى ، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها[1] .

هذا وقد يكون من دواعي التكرار ما جاء في الأسلوب القرآني على سبيل الابتهال والتضرع وهو تعليم للمؤمن كيف يتجه إلى ربه ويدعوه .

كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٨٦) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران : ١٩١ ، ١٩٤) .

وهكذا نجد كلمة (ربنا) قد تكررت في الآيات السابقة بقصد الابتهال والتضرع إلى المولى عز وجل قصد الاستجابة ونوال المقصود ، وهو السميع المجيب .

ومن التكرار ما يجيء لإفادة الحسم في الأمر ، ووضع حدّ ينتهي إليه فيه كما في سورة الكافرون : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون : ١ ، ٦) .

روي أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد ، هلّم فاتّبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبدُ إلٰهك سنة ، قال : معاذ الله أن أشرك بالله غيره .

فقالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلٰهك . . فنزلت السورة حسماً لهذا الأمر ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم . . فأيسوا .

---

(١) الكشاف ـ للزمخشري ـ الجزء الثاني ـ (١٢٧) .

كما يوحي التكرار في هذه السورة باليأس الذي يدخل قلوب الكافرين من أن ينصرف الرسول عن دينه إلى ما كان يعبد هؤلاء الكفرة فليتدبروا أمرهم بينهم مليّاً ليروا سر هذا الإصرار من محمد ﷺ فعساهم يدركون هذا السر ، هو أن الرسول ﷺ على حقّ فيما يدعو إليه ، فلم ينصرف عنه إلى أديان لا سند لها من الصواب والحق .

ويقول الإمام الباقلاني رحمه الله : « ومن البديع عندهم ـ أي : العرب ـ[1] : التكرار ، ثم يقول في سورة الكافرين : وهذا فيه ـ أي : التكرار ـ في هذه السورة معنى زائد (لأنه يفيد الإخبار عن الغيب) » .

يحكى أن بعض الزنادقة سأل الحسن بن علي السبط رضي الله عنهما ، فقال : إني أجد في القرآن تكراراً ، وذكر له سورة (الكافرون) ، فأجابه بما حاصله أن الكفار قالوا : نعبد إلٰهك شهراً ، وتعبد آلهتنا شهراً ، فجاء النفي متوجّهاً إلى ذلك . والمقصود أن هذه ليست من التكرار في شيء ، بل هي بالحذف والاختصار أليق .

وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ لا أعبدُ ما تعبدونَ ﴾ ، أي : لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل . وقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أي : ولا أنا عابد في الحال ما عبدتم في المستقبل . وقوله تعالى : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي : ولا أنتم عابدون في الحال ما أعبد في المستقبل .

والحاصل أن القصد نفي عبادته لآلهتهم في الأزمنة الثلاث الحال ، والماضي ، والمستقبل .

والمذكور في الآية النفي في الحال والاستقبال ، وحذف الماضي من جهته ومن جهتهم ، ولا بدّ من نفيه ، لكنه حذف لدلالة الأولين عليه .

وفيه توجيه آخر : وهو أن الجملة الأولى فعليّة ، والثانية اسمية ، وقولك : (لا أفعله) ، (ولا أنا فاعله) أحسن من قولك : (لا أفعله)[2] ، (ولا أفعله) ، فالجملة الفعلية نفي لإمكانه ، والاسمية نفي لاتّصافه ، والمعنى أنه تبرّأ من فعله ومن الاتصاف به ، وهو أبلغ في النفي .

---

(١) إعجاز القرآن ـ للإمام الباقلاني ـ الطبعة الثالثة ـ (١٠٦) .
(٢) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي ـ الجزء الثالث ـ الطبعة الثانية (٢١) .

وأما المشركون فلم ينتف عنهم إلا بصيغة واحدة وهي قوله تعالى :
﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في الموضعين .

ومنه تكرير الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات من سورة البقرة ، لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس : اليهود ، لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم ، وأهل النفاق أشد إنكاراً له ، لأنه كان أول نسخ نزل ، وكفار قريش قالوا : ندم محمد على فراق ديننا ، فيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا ، وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه .

فيقولون : يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل[1] ، وقد فارق قبلتهما وآثر عليها قبلة اليهود . وقال الله تعالى حين أمره بالصلاة إلى الكعبة : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (البقرة : ١٥٠) ، والاستثناء منقطع أي : لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون ، وقال سبحانه : ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (البقرة : ١٤٧) أي : الذين أشركوا فلا تمتر في ذلك .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦) أي يكتمون ما علموا أن الكعبة هي قبلة الأنبياء .

وقد يؤكد القرآن أمراً هو من البداهة بمكانٍ ، لأنه يرمي من وراء ذلك إلى هدف سام تتبينّه النفس عندما تتدبّر أمر هذا التوكيد .

لترى ما موقعه ؟ ولم كان ؟ وتأمّل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون : ١٥ ، ١٦) . فلما كان تماديهم في الضلال يصرفهم عن التفكير المستقيم المؤدي إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

وكانت هذه الغفلة تلفتهم عن التفكير في مصيرهم فكأنهم مخلّدون لا يصيبهم موت ولا فناء ، أكّد نزول الموت بهم تأكيدين ليفكروا فيه وفيما يتطلّبه نزوله بهم من عمل صالح ينفعهم بعد هذا الموت .

---

(١) المرجع السابق ص (٢٢) .

وهكذا نجد التكرار القرآني إنما يكون من أجل أن يؤكد أمراً أو يحدث فائدة في موضع خلت عنه في موضع آخر .

كما أنه من الواضح ما يؤديه هذا التكرار من دور بالغ من أجل الوصول إلى الحق المنشود وتحقيق الخير الذي نزلت به آيات الله المحكمات .

ومن ثم كانت الهداية القرآنيّة غاية وسيلتها هذا الإحكام العظيم في وسائل البيان .

ظاهرة التكرار في قصص القرآن الكريم

هذا ولا يخفى ما في التكرار من أثر ملموس في التأثير على الجماعات والأفراد .

« فإذا ما تكرّر الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً تنتهي بقبوله حقيقة ساطعة ، والسبب في ذلك كون المكرّر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منّا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر »[١] .

من هنا نعلم أن التكرّر القصصي في القرآن الكريم لم يخل من فائدة شأن هذا الكتاب المعجز في كلّ أساليبه ، وفي كلّ ما رمى إليه .

وإذا تأمّلنا في قصة إبراهيم أو موسى ، عليهما السلام ، نجد هاتين القصتين قد تكرّرتا في القرآن كثيراً ، قصة موسى ما يقرب من مائة وعشرين مرة .

وهي وإن تكررت في مواطن كثيرة في القرآن إلا أنها تشير إلى غاية واحدة حيث أنها تمثل الصراع بين الحق والباطل ، وعلى هذا فإن التكرار يشبّب هذا الصراع ، ويؤكد نهاية الظلم ، وبذلك ترسخ هذه الغاية في النفس فتكون أدعى إلى التصديق والامتثال .

وفي هذا ما فيه من إيقاظ الهمم ودفع العقول والنفوس إلى التأمل والتدبر ففرق كبير بين الشيء الذي يحكى مرّة وبين الشيء الذي يكثر تكراره ، ففي الثاني استشعار أقوى من الأول ، وتعليم للإنسان تقوى فيه الدلالة والمحاكاة .

على أن الأمر العظيم الذي له بال خطير يستأهل التكرار ، أما الشيء العارض فإن تكراره قد يكون ثقيلاً على السمع بغيضاً إلى النفس ، فإنه لا يستأهل المعاودة ، أما الأشياء الجسيمة ذات البال ، كقصص القرآن التي كلها عظة وعبرة وأحداث من أنباء الغيب فما أحوج البشرية إلى معرفتها

---

(١) روح الاجتماع ـ د . جوستاف لوبون ـ ترجمة الاستاذ / أحمد فتحي زغلول .

والوصول إلى مراميها ، وعلى هذا فتكرارها أمر يطابق مقتضى الحال إذ أن الطبيعة البشرية تميل إلى أن يعاد الشيء الذي يحنّ الإنسان إليه ويرغب في معرفته ، وخصوصاً أن هذه الأمور مرتبطة تماماً بالعقيدة وبالسلوك الإسلامي الصحيح .

هذا ولا يحسن التكرار إلا إذا أفاد معنى جديداً وإلا كان هراء وغثاثة وقبحاً .

من هنا يقول ابن سنان الخفاجي : « إن التكرار منه ما يستحسن ومنه ما يستقبح ، فالتكرار لا يكون قبيحاً إذا كان المعنى المقصود لا يتم إلا به »[١] .

من هنا يستبين لنا أن التكرار في القصة القرآنية يفصح عن روعة القرآن وكمال إعجازه ، وقوّة عرضه .

وأن هذا التكرار أمر يطلبه المعنى ومقتضى الحال يدعو إليه .

ومن ثم كان التكرار في القصة القرآنية بل في شتى آيات الكتاب العزيز التي كَررت حسناً كلّه تقبله النفوس وتهفو إليه .

« وهذا التكرار في القصة القرآنية ليس تكراراً مطلقاً ، وإنما هو تكرار نسبي ، بمعنى أن الغرض الديني هو الذي يملي إعادة القصة ، ولكنها في هذه الإعادة تلبس أسلوباً جديداً ، وتخرج إخراجاً جديداً يناسب السياق الذي وردت فيه ، وتهدف إلى هدف خاص لم يذكر في مكان آخر ، لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل »[٢] .

على أن العجيب في الأمر واللافت للنظر فعلاً في القصص القرآني أنها إذا تعرضت لمعنى من المعاني في موضع ثم تحدثت عن القصة في موضع آخر فإنها لا تذكر ذلك المعنى فحسب ، بل ربما تأتي بمعنى جديد لم يكن قد ذكر في القصة من قبل في الموضع الأول ، وهذه سمة غالبة على القصص القرآني فقصة إبراهيم جاءت في سورة البقرة في إطار الحديث عن رفع البيت قال

---

(١) سرّ الفصاحة ـ لابن سنان الخفاجي ـ تحقيق : د . عبد الرازق أبو زيد (١٣٨) طبعة ١٩٧٦ م .

(٢) التعبير الفني في القرآن ـ د . بكري شيخ أمين ـ الطبعة الثالثة ـ (٢٢٠) .

تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة : ١٢٧) .

وفي سورة إبراهيم حديث عن موضوع إسكان ذرية إبراهيم عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (إبراهيم : ٣٥ ، ٣٧) .

وفي سورة الأنعام حديث عن موضوع تأمل ابراهيم لملكوت السماء والأرض . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ٧٥ - ٧٩) .

وفي سورة مريم نجده عن جانب محاورة إبراهيم لأبيه : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[1] (مريم : ٤١ ، ٤٧) .

---

(١) يرى الشيخ محمد متولي الشعراوي أن آزر لم يكن أباً للخليل عليه السلام ، وإنما هو عمه ، ويريد أن يصل من وراء هذا إلى أن الخليل عليه السلام وهو جد النبي ﷺ ، والنبي ﷺ قد تنقل في الأصلاب الطاهرة ، فمن هنا لا يكون آزر الكافر أباً لإبراهيم عليه السلام .

ويقول فضيلته : إن مثل هذا الأسلوب شائع عند العرب ألا ترى قوله تعالى =

وفي سورة الأنبياء حديث عن جانب تحطيم الأصنام . قال تعالى : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء : ٥٧ ، ٦٣) .

وفي سورة الشعراء حديث عن موضوع إسناد الخلق والرزق إلى المتصرف سبحانه : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ (الشعراء : ٧٨ ، ٨٢) .

وفي سورة الصافات حديث عن الرؤيا المنامية ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات : ١٠١ ، ١٠٥) .

= على لسان يعقوب عليه السلام :

﴿ واتبعتُ مِلّة آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ وليس إسماعيل أباً ليعقوب وإنما هو عمه .

ولكن يطلق هذا عند العرب وهو شائع في بيئتهم من هنا كان آزر عماً لإبراهيم وليس أباً له .

ومن هنا سلم النسب الشريف وأصبح الرسول ﷺ في الأصلاب الطاهرة لا مشاحة فيها ، لكن ما ذهب إليه الشيخ الشعراوي هو ضرب من التمحّل لا داعي له .

فكون آزر يعبد الأصنام وهو كافر لا يمنع هذا أبوتّه للخليل ، فلا تصادم مع حديث الأصلاب الطاهرة والكفر .

وإنما عنى الحديث سلامته ﷺ من السفاح (فأصلابه جميعها طاهرة) أما الكفر فقد كان في أجداده ﷺ من عبد الأصنام كقصي بن كلاب الذي جلب الأصنام إلى الحرم ، والكفر لا يراه الكفار عيباً .

وهكذا نجد أن كل سورة قد أضافت معنى جديداً لم يطرق في سورة أخرى بحيث لو تضامت جميع الجزئيات في القصة في مختلف السور التي ذكرت فيها لأعطتنا صورة مكبّرة لجزئيّات تفرقت في مواطنها لتسير على حسب مقتضى الحال .

ويطالعنا الدكتور خلف الله حول التكرار في القصة القرآنية بما ارتآه فيقول : « وتكرار القصص في القرآن يتبع الشخصية التي عرفت واشتهرت ، والأحداث التي شاعت في البيئة العربية . . ومن هنا كانت شخصية موسى أكثر تكراراً من أي شخصية أخرى . . لأن موسى كان نبي اليهود ، ولقد كان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني . . وهذه السيطرة تجعلهم يقصون كثيراً من أخبار موسى وقليلاً من أخبار غيره من الأنبياء .

فالقرآن اعتمد في بناء القصة على عناصر استمدها من البيئة والعقلية العربية ليكون القصص القرآني أشد تأثيراً وأقوى سلطاناً »(١) .

ولي تعليق ومناقشة للدكتور خلف الله في هذا الحديث أقول :

أولاً : كيف كان اليهود يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني . . مع العلم بأن البيئة العربية في ذلك الوقت كانت وثنية ، واليهود من أهل الكتاب ؟

ثانياً : أثبت القرآن في أكثر من موضع بأن ما في أيدي اليهود من صحف قد امتدت إليها يد التحريف والتبديل .

قال تعالى : ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٧٥) .

وقال تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ (المائدة : ٤١) .

---

(١) بتصرف من الفن القصصي في القرآن ـ محمد أحمد خلف الله ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م (٢٣٤) .

ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو العصرية ١٦٥ شارع محمد فريد القاهرة .

وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة : ٧٩)

إذا ثبت هذا ، فكيف يستقيم لنا القول بأن القرآن قد اعتمد في بناء القصة على عناصر استمدها من البيئة العربية والتي كانت تخضع لسيطرة اليهود من حيث التفكير الديني ؟

إن مجرّد التفكير في أن القرآن يحكي في قصصه ما جاء في التوراة هو طعن في كتاب الله ، ولا يفعل هذا إلا مرتد أو عميل . .

ثالثاً : جاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية ما يلي :

(٥) فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب .

(٦) ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم .

وبهذه الكلمات يتبين لنا بما لا مجال للشك فيه أن هذا السفر مكتوب بعد موسى عليه السلام ، فقد نص في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية (على إكمال كتابة التوراة) ، ومثل هذا الكلام لا يصح أن يكون من التوراة ، إذ لا يستقيم في العقل أن يتحدّث موسى عليه السلام ويشرح أنه (دفن مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم) .

وكل هذا في حياته هل يعقل هذا ؟! في الوقت الذي اتفق فيه اليهود على أن هذا من التوراة . هذا دليل واضح على التحريف الذي دخل التوراة التي بين يد اليهود وهنا نصل إلى النتيجة : هل قرر القرآن مثل هذه الأخبار وهو يتحدث عن القصة الموسوية في مائة وعشرين موضعاً منه ؟

هل يتفق كلامنا هذا وما أجمع عليه أهل العلم والنظر مع كلام الدكتور خلف الله : « في أن القرآن اعتمد في بناء القصة على عناصر استمدها من البيئة والعقلية العربية » .

ثم يقول : « ولقد كان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني . . وهذه السيطرة تجعلهم يقصون كثيراً من

أخبار موسى ، وقليلاً من أخبار غيره من الأنبياء » .

ثم يصل إلى النتيجة التي رمى القرآن إليها من بناء القصص على هذا النمط فيقول : « ليكون القصص القرآني أشدّ تأثيراً وأقوى سلطاناً » .

عجيب حقّاً أن لا يستطيع القرآن في قصصه أن يكون مؤثراً حتى يسوق قصصه على النمط الذي كان يتحدّث به اليهود عن موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام ، وكلّنا يعلم ما فاضت به التوراة من طعن وافتراء على رسل الله عليهم السلام :

هل جاء القرآن ليقرر لنا ما قررته التوراة عن سيدنا نوح ولوط ، وداود ، وسليمان . . . وغيرهم من طعن وافتراء .

لا إن القرآن عندما حكى لنا قصص هؤلاء الأنبياء إنما حكى لنا الجوانب المشرقة المضيئة من دفاعهم عن الحق ومحاربتهم للبدع والضلالات والشذوذ والمنكرات .

نعم لقد حكى لنا المثل والقدوة ، الصدق والطهارة والعصمة التي يكون عليها الهداة والمصلحون في كل زمان ومكان .

إن القصة القرآنية إن استمدت تأثيرها وسلطانها على النفوس ، فإن ذلك ينبعث من كونها تسجيلاً للواقع الحي . . وأنها جاءت تخاطب العقل والضمير والوجدان . . وهي الحقّ كل الحقّ والصدق كل الصدق .

نعم لو كان هناك تأثير أو سيطرة لليهود على البيئة العربية ، كما يزعم خلف الله ، لما وقف القوم مشدوهين وهم يسمعون آيات الله تطرق مسامعهم ، لقد رأوا في القرآن أمراً خارقاً للمألوف وخارجاً عن العادة .

فأين الخلفية والسيطرة الفكرية الدينية التي جعلتهم يفاجؤون ؟

إن هذا الكلام لا يقوله مسلم أبداً . والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء . ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون !!

الفصل الثاني

حَول أسْلوب القصّةِ في القرآن الكريم

أباطيل حول القصص القرآني

هذا وإذا كان القرآن الكريم وهو كتاب الله المنزل على خير أنبيائه ورسله سيدنا رسول الله ﷺ هو المعجزة الخالدة الباقية ما بقي الليل والنهار وإلى الأبد .

فقد تحدّث القرآن عن المثل وعن الحكمة وعن الجنة والنار وعن مشاهد القيامة في القرآن ، وتحدث عن قصص الأمم الغابرة مع أنبيائها ، ولم يكن هذا القصص المحكم سرداً مجرداً لبعض الروايات التاريخيّة يتسلى بها السامعون ثم يغفلون عن حكايتها .

إن هذا القصص كان تاريخاً لسير الدعوة الدينية في الحياة ، وكيف خطّت مجراها بين الناس منذ فجر الخليقة ! وما هي العقبات التي اعترضتها ؟ وما صنع الأنبياء بإزائها ؟ وكيف قبلت الأمم المدعوّة رسالات الله أو صدّت عنها ؟

والحكمة المنشودة من وراء هذا القصص نقرؤها في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١) .

إن القصص من أنجح الطرق التي اتبعها القرآن الكريم في تأديب النفوس ، وسياسة الجماعات ، والمحاورات النابضة التي أثبتها هي معالم خالدة لضبط الحقيقة التاريخية وتوليد العبرة منها[١] .

يقول صاحب الشهاب : « ويتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين ، ويذكر طرفاً من معجزاتهم ، ومن المقرر أنه ليس الغرض من ذلك استقراء الوقائع ، ولاتحديد الأزمان ، ولا تناول الظروف والملابسات ، ولا تسجيل مجرّد للحوادث ولا الأشخاص ، ولا البحث التاريخي الاصطلاحي والفني ، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة

---

(١) نظرات في القرآن ـ محمد الغزالي ـ الطبعة الخامسة (١١٣) .

والعبرة ، وتقرير قواعد هذه الهداية في النفوس بذكر هذه القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئين ، والقرآن الكريم يصرح بهذا في وضوح »[1] .

ومن المقطوع به عند كل مسلم أن كل ما ذكره القرآن في هذه الناحية حق لا شك فيه ، وأن علم التاريخ الاصطلاحي لا يمكن أن يأتي بحقيقة تخالف ما جاء في قصة من القصص التي ذكرها القرآن .

ولكننا مع إدراك هذا كلّه نجد من أدبائنا في العصر الحديث من تزل به القدم ، فيقع في مزلق خطير يخلص منه إلى أن القرآن الكريم وإن تحدث في قصصه عن الأنبياء ومختلف الشخصيات إلا أن هذه الشخصيات من وجهة نظره ليست لها حقيقة تاريخية ، وإنما تمثّل بها القرآن هكذا .

وأعتقد أن مثل هذا لو عاد إلى رشده بعض الشيء فذكر شخصيته المؤمنة وعقب على بحثه المجرّد بما يفيد إيمانه بصدد هذا التاريخ وهذه الحقائق التاريخية التي عاضدتها جميع الكتب السماوية وأيدت وجودها ، ثم ناضل عن تلك الحقائق بأسلوب علمي ، لكان له في ذلك الثناء العطر والقبول عند الله .

هذا الدكتور طه حسين يقول : « للتوراة أن تحدّثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، والقرآن أن يحدّثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها .

ونحن مضطرون إلى أن نرى في القصة نوعاً من الحيلة إلى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى . . »[2] .

«وفي الواقع أن الدكتور طه حسين كان متأثراً بالدراسات الاستشراقية

---

(١) نقلاً عن كتاب نظرات في القرآن وقد عزاه إلى صاحب الشهاب هكذا ، ولم أقف عليه .

(٢) الشعر الجاهلي ـ د . طه حسين (٢٦) .

في هذا الجانب ، وإلا لو كانت هذه القصة قد اخترعها اليهود لإثبات قرابتهم للعرب بقصد ردّ عاديتهم عنهم ، فلماذا جعلوا هذه القرابة خاصّة ببعض العرب دون البعض الآخر ؟ ـ أي : لماذا تقرّبوا من العدنانيين ، ولم يتقربوا إلى القحطانيين ـ وكلهم كانوا سواء في خصومتهم ، بل كان أول من قابلهم في طريقهم القبائل اليمنية ، وقد اختاروا أن يجاوروا تلك القبائل بقرب يثرب ، وما دام أساس هذه القصة الخدع والتزوير ، وقد حدثت قبيل ظهور الإسلام ، أي : بعد هجرة القبائل اليمنية إلى شمال بلاد العرب ، فأي داع جعلهم يقصرون الخدع على بعض القبائل دون البعض الآخر .

ثم لو كانت هذه القصة حيلة من اليهود افتعلوها ليعيشوا مع العرب بسلام آمنين لكانوا حين أجمعوا على الهجرة إلى بلاد العرب جعلوا ترويجها بين العرب باكورة أعمالهم لا أن يبدأوا هجرتهم بالحروب الطاحنة حتى إذا طحنتهم المعارك سنين ابتكروها لتكون سبباً في اجتلاب عطف خصومهم عليهم . وهل ابتكارها بعد تلك المعارك الطاحنة لا يثير في نفوس العرب الشك في صحتها ، بل الجزم بأنها حيلة يراد بها خضد شوكتهم وثلم حميتهم »[1] .

يقول الشيخ الخضر حسين : « ثم أيَحتال أطيبُ البريّةِ سريرةً وأبهرهم حجّة على اليهود بقصة خرجت من مصنع تزويرهم ؟ كلا ! إن القرآن ليدعو بالحكمة والموعظة الحسنة . وليست القصة المزورة من الحكمة في شيء ، وليس في القصة المزورة موعظة حسنة ، ومن يتلو القرآن بتدبّر وينظر السيرة النبويبة في مرآتها الصادقة يعلم أن الإسلام بريء من هذا السخف والهزال »[2] .

---

(١) نقد كتاب في الشعر الجاهلي ـ د . فريد وجدي .

(٢) نقض كتاب في الشعر الجاهلي ـ للشيخ محمد الخضر حسين (٨٣ ـ ٨٤) المكتبة العلمية ـ بيروت لبنان .

نفس الكلام تردد في كتاب « نظرية الانتحال » للمسلوت (١٤٦ ـ ١٤٧) الناشر دار القلم بالقاهرة .

لقد تأثر الدكتور طه حسين بالمستشرقين في معظم كتاباته فقد تأثر بمرجيلوث =

ثم يعقب الشيخ محمد الخضر حسين على كلام الدكتور طه حسين في ادعائه الباطل : « إن القرآن حاول إثبات الصلة بين اليهود والعرب بقصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . . فيقول :

« نحن نعلم أن الرسول ﷺ قد وجد من قومه الذين يشاركونه في آبائه الأقربين صدوراً مطويّة على عداء ، وألْسنة مبسوطة بالكيد والأذى ، ووجد من قوم لا يتّصل نسبهم بإسماعيل ولا بإبراهيم إيماناً وطاعة وتأييداً ، فلا نستطيع أن نفهم كيف يخطر على باله أن يأتي في القرآن بقصة القرابة بين العرب واليهود احتيالاً على أهل الكتاب ! وهي قرابة قديمة العهد بعيدة الأثر ، تكاد تشبه القرابة بين العرب وأكثر من في الأرض حيث يتفقان في جد أعلى هو نوح عليه السلام ، وليس ببعيد من صاحب هذه الفلسفة الغريبة أن يقول : إن قصة آدم الواردة في القرآن مستغلّة لعقد الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد والديانات وغير الديانات الكائنة على وجه البسيطة ، لأن في القصة صلة ملموسة أو كالملموسة ، وهي القرابة بين العرب وسائر البشر ! »[1] .

هذا وقد كشف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي أن آراء طه حسين في إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ، قد أخذها من كتاب ذيل مقالة في الإسلام لهاشم العربي ، والكتاب من عمل المبشرين الطاعنين في الإسلام . يقول صاحب : « ذيل مقالة في الإسلام » المطبوع في مطبعة النيل المسيحية ـ أقدم طبعة للذيل عام ١٨٩١ م ـ :

« وحقيقة الأمر في قصة إسماعيل أنها دسيسة نقلها قدماء اليهود تزلُّفاً إليهم وتذرُّعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس ، أو إلى تأسيس مملكة جديدة لهم في بلاد العرب » .

= في كتابه في الشعر الجاهلي وتأثر بيلاشير في نظرته للمتنبي ، ويورد كايم في حديثه عن ابن خلدون الحضرمي .
راجع : طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام ـ أنور الجندي ـ الطبعة الثانية (٣٦) .

(١) نقض كتاب « في الشعر الجاهلي » ـ لمحمد الخضر حسين ـ المكتبة العلمية ببيروت لبنان (٨٤) .

وقد تابعه على هذا الدكتور طه حسين في كتابه : « في الشعر الجاهلي » .

وصاحب الذيل يجعل (التوراة) هي الأصل ويعرض عليها القرآن ، فإن خالفها طعن فيه ـ أي : في القرآن ـ .

أما الدكتور طه فيكذب بالتوراة والقرآن جميعاً ، ويؤمن صاحب الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ويكذب أبوة إسماعيل للعرب ، فيأتي ـ المقلد ـ فيكذب بوجود إبراهيم وإسماعيل فضلاً عن أبوّتهما للعرب .

كان صاحب الذيل فطناً محترساً ، وكان (حاكيه) قليل الفطنة فاصطدم بالنقض الآتي :

إن التوراة قد انتشرت في البلاد قبل نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها في جزيرة العرب ، وكان فيها ذكر إبراهيم وإسماعيل ، فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهراني العرب حيلة منهم للتقرب إليهم ، ولو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوها حيلة ، فما هو السرّ في أن كان ذكر إبراهيم وإسماعيل في جميع نسخ التوراة ؟ إن صاحب الذيل هو صاحب الفكرة الأصلية ، وقد كان أفطن لهذه الاعتراضات التي وقع فيها طه حسين ، فصدق بوجود إبراهيم وإسماعيل ، وكذب بأبوّتهما للعرب فقط .

لقد سرق الدكتور طه بحثه من كتاب سخيف ، ولم يفهمه على وجهه ، ونقله من كتاب النصراني المبشر على أنه ابتكار من ابتكاراته ورأي من آرائه الجديدة[1] .

أما الشخص الآخر الذي جانبه التوفيق في حديثه حول القصص القرآني فهو الدكتور محمد أحمد خلف الله ، حيث يرى أن الأدب المبدع هو الذي ينزع نحو الخيال وبه ينشط ، ولا سيّما حين يبعد عن الالتزام ، سواء أكان ذلك الالتزام بالوقائع التاريخية أو البعد عن الصدق ، حيث إن المادة الخصبة في نظره إنما تنبثق عن الخيال المغرق والبعد عن أرض الواقع ،

---

(١) راجع طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام ـ أنور الجندي ـ (١٨١) ـ الطبعة الثانية .

وبذلك يكون الإبداع الفني والتصوير الرائع والحديث الممتع .

وهو يرمي من وراء هذا إلى أن القرآن كتاب أدبي بعيد عن تحري الصدق في الواقعة ، أو الصدق في الرواية ، ويرى بأنه لا يتجلى فن الأديب إلا بهذا الأسلوب .

ثم هو يريد أن يجرد من نفسه أديباً بعيداً عن كل اعتبار آخر .

ويريد أن يجرّد من القرآن كتاب أدب بعيد عن كل اعتبار كذلك . . وينظر فيه على هذا الأساس بصرف النظر عن هذا القصص ومطابقته للواقع والتاريخ أو مخالفته لذلك كله .

وقد عنى بكلامه هذا إلى أن رعاية الناحية الفنية عند الأديب المجرد لا تستلزم صدق الرواية ولا صحّة الواقعة .

وليت الأمر وقف به عند هذا الحدّ بل جاوزه إلى أن يقول : « إن القصص القرآني يستمد عناصره من كتب العهد القديم ، ولعله من أول ما يستلفت الأنظار فيما أطلقه هؤلاء وأولئك من مزاعم وآراء ما ردّده بعضهم من أن القصص القرآني قد جاءت وقائعه وأحداثه وسائر أخباره مستقاة مما كان يتناوله أهل الكتاب ، وبخاصة اليهود في تلك البيئة العربية ، فكان دور القرآن إزاءها أن بنى من هذه العناصر وعلى نمطها أقاصيصه التي نراها » .

وقد أراد خلف الله أن يحدد مصادر القصة القرآنية فجانبه التوفيق ، وخاصة بعد أن أتى في حديثه بالمتناقضات فهو حين يقرّر « أن القرآن الذي جاء ليقرر بأخباره آيات النبوة وصدق الرسالة . إلا أنه حرص على أن تكون مستقاة بل مطابقة لما جاء في الكتب السماوية السابقة ، أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار حتى ليخيّل إلينا بأن مقياس صدق هذه الأخبار وصحتها من الناحية التاريخية هي مطابقتها لما جاء في كتب السابقين ولما يعرفه هؤلاء من أخبار . . »[1] .

وصاحب الفن القصصي حين يقرر هذا القول لم يلبث أن ينقضه

---

(١) بتصرف من كتاب الفن القصصي في القرآن ـ لمحمد أحمد خلف الله ـ الطبعة الرابعة (٢٢) .

ويضطرب فيه .

حين يقرّر في مكان آخر من كتابه « أن القرآن الكريم في قصصه لم يسلك مسلك التوراة ، فلم يقصَّ أخبار الأنبياء والمرسلين كما قصت هي ، وإنما اختار بعضهم ليقصّ قصصهم ، وأعرض عن الباقي ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ (النساء : ١٦٤)[١] .

وهو حين اختار لم يعمد إلى أخبار هؤلاء جميعاً ، وإنما اختار من هذه الأخبار ما يتفق وحالة الدعوى الإسلامية وموقف النبي من قومه ، ومن هنا لم يكن ذلك التفصيل المَوجود في التوراة ، ثم إن القرآن الكريم لم يعمد إلى الزمن فيجعله العامل الأساسي في ترتيب هذه القصص كما عمدت التوراة . إن كل هذا إنما يدلّ على الفارق الأكبر بين قصص القرآن وبين قصص التوراة ، وهو أنها قصدت إلى التاريخ ، أما هو فلم يقصد إلا إلى العظة والاعتبار وإلى البشارة والإنذار ، وإلى الهداية والإرشاد .

وإلى شرح مبادىء الدعوة الإسلامية والرد على المعارضين ، وإلى تثبيت قلب النبي ﷺ ومن اتبعه ، وزلزلة نفوس المشركين والكفرة ، وإلى غير ذلك من مقاصد وأغراض ليس منها التاريخ على كل حال .

ثم إن هؤلاء الذين اختارهم القرآن الكريم ليقص قصصهم لم يكونوا جميعاً من البيئة العربية وإنما كانت الكثرة الكاثرة منها ومن غيرها . .

من بلاد المصريين ، والعبريين ، والسبئيين ، ومن بلاد اليونان والرومان وأقاموا فيها وأرسلوا إلى أهلها ووقعت أحداثهم في هذه البلاد ، وجرى الحوار فيما بينهم وبين من أرسلوا إليهم بلغات هذه الأقاليم ، بل جرى الحوار أحياناً بلغات قد لا نعرفها ، وقد لا يستطيع عقلنا القاصر أن يتصورها ، وإلا فبأي لغة تحدّث الخالق جلّ وعلا إلى كل من الملائكة وإبليس في قصة خلق آدم ، وبأي لغة تحدث[٢] إبليس إلى آدم في قصة الخروج من الجنة ؟ إنها الأمور التي لا نعرف منها إلا الفروض

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم ـ د . محمد أحمد خلف الله ـ الطبعة الثالثة (٢٣٠) .

(٢) الفن القصصي في القرآن الكريم ـ د . محمد أحمد خلف الله ـ الطبعة الثالثة (٢٣١) .

الخيالية[1] .

ثم يعود المؤلف بعد هذا كلّه وحتى تتمّ صورة التناقض فيما قاله ليقرر : إن القرآن يأخذ عناصره القصصية من البيئة العربية ويبني من هذه العناصر أقاصيص هي التي نراها في القرآن الكريم[2] .

لقد قرر أولاً أن القرآن يأخذ عناصر قصصه من كتب السابقين ، وأن ما في القرآن مستقى من كتب العهدين هذه ناحية .

ثم عاد فقرّر أن القرآن لم يأخذ من التوراة سوى ما يتعلق بحال الدعوة وموقف النبي ﷺ بإزاء قومه .

ثم عاد ثالثاً فقرر أن القرآن لم يأخذ جميع قصصه من التوراة ، وإنما أخذ بعضها وأعرض عن بعض .

وأخيراً وبعد هذا كلّه فالقرآن لم يقصد إلى التقيد بالناحية التاريخية كما تقيدت التوراة بذلك .

إن لهجة التناقض واضحة في كل ما قاله ، فكيف أخذ قصصه من الكتب القديمة ، بل حرص على ذلك ليكون آية شاهدة على صدق النبوة ؟ وكيف حرص القرآن في مطابقة ما جاء به لما جاء في هذه الكتب وما يعرفه أهلها ؟!

ثم بعد ذلك نجده لم يأخذ إلا بعضها وأعرض عن بعض ، فأين المطابقة ؟!

وكيف حرصت التوراة على الناحية التاريخية ولم يحرص عليها القرآن ، وهو إنما جاء مطابقاً لما فيها ؟

ثم كيف أن القصص القرآني حرص في اختيار قصصه على مجانبة الناحية التاريخية ، وهو الحريص على سوق الأحداث على حسب المناسبات ، بل حتى في سياقه لقصص الأنبياء جاء بها على حسب التسلسل التاريخي : نوح ، فهود ، فصالح ، فلوط .

وأخيراً كيف اختار من يحكي عنهم من غير البيئة العربية ؟

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم ـ محمد أحمد خلف الله الطبعة الثالثة (٢٣١) .

(٢) نفس المرجع ص (٢٣٥) .

« ثم إن هؤلاء الذين اختارهم القرآن الكريم ليقص قصصهم لم يكونوا جميعاً من البيئة العربية ، وإنما كانت الكثرة الكاثرة منها ومن غيرها .

من بلاد المصريين ، والعبريين ، والسبئيين ، ومن بلاد اليونان والرومان . . » .

كيف يتّفق هذا مع قوله : « إن القرآن يأخذ عناصره القصصية من البيئة العربية ، ويبني من هذه العناصر أقاصيص هي التي نراها في القرآن الكريم . . » .

وإذا أمعنا النظر في كتاب العقيدة والشريعة لجولد تسيهر نجد ما نصه :

« إذن ما كان يبشر به خاصاً بالدار الآخرة ليس إلا مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقيناً ، وأقام عليها هذا التبشير ، ثم يقول :

لقد أفاد من تاريخ العهد القديم ، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء »[1] .

وفي موضع آخر يقول : « فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينيّة عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه »[2] .

ولعل ما قاله هذا اليهودي الجحود قد صادف هوى في نفس الدكتور خلف الله ، لا أقول : هوىً من حيث العقيدة ، فإني أكاد أشكّ في تضعضع عقيدته إلى مستوى الكفر والإلحاد ، ولكن أقول : صادف هوى في نفسه من حيث توقعه أن في مجاراة هذا المارق فيما قال قد أتى بشيء جديد يحسب له كاكتشاف جديد باهر ، وأنه قادر على الإبداع والتجديد .

لا سيما وأن ما كتبه في هذا الموضوع هو بصدد رسالة بل أطروحة الدكتوراه ، ولكن خانه التوفيق في أن مثل هذا لا ينبغي أن يكون ، بل هو

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام ـ لتيسهر ـ الطبعة الأولى (٩) .

(٢) نفس المرجع (٥ ـ ٦) .

جحود في حق نفسه ، وفي حق دينه ، وفي حقّ مجتمعه .

أما تسيهر فنسأله : كيف أن ما كان يبشر به محمد ﷺ والخاص بالدار الآخرة قد استقاه من الخارج ، وما المقصود بهذا الخارج ؟!

وكيف أفاد من تاريخ العهد القديم ، والتوراة نفسها قد خلت من ذكر الدار الآخرة ، بل إن الجزء المتعلّق بالآخرة والبعث والنشور مفقود منها ، ومبتور الصلة من التوراة نهائياً[1] .

وكيف أفاد القرآن من قصص الأنبياء في التوراة ، وقصص الأنبياء في التوراة ممسوخة وقد شوه وجه الحق فيها .

ففي التوراة طعن في نوح واتهام له بشرب الخمر ، وطعن في لوط عليه السلام[2] واتهام له بالزنا ، وطعن في داود عليه السلام ، واتهام له بالميل

---

(١) نعم إن خلو التوراة من ذكر الدار الآخرة قد أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولّوا قوما غضبَ الله عليهم قد يئسو من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ [الممتحنة : ١٣] .

هذا الحكم الذي نطق به القرآن عن اليهود هو حكم أظهرت لنا الدراسات صدقه ، مما يشهد للقرآن بأنه وحي إلٰهي .

فالتوراة التي في أيدي اليهود لا تجد فيها ذكراً للروح والحياة الآخرة .

يقول (ول ديورانت) : إن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد في دينهم شيء من الخلود ، وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا . قصة الحضارة ـ لول ديورانت جـ ٢ (٣٤٥) .

وانطلاقاً من عقيدة عدم الإيمان بالآخرة ، ووجود حياة كريمة يجازى فيها كل بما اقترفت يداه ، كان اليهود حريصين على تحقيق أكبر ما يستطيعون من متع حياتية ، ولذات جسديّة ، وانصبّ همهم على جمع المال باعتباره المصدر الوحيد لتحقيق هذه الغاية ، فكانوا أصحاب رؤوس أموال يسيّرون بها دفة الحكم في دول كبرى .

من هنا قال الرئيس الألماني أدولف هتلر في كتابه كفاحي : « إن اليهود لا يمكنهم أن يؤلفوا منظمة دينية لأنهم لا مثاليّة لهم ، ولأنهم لا يتطلعون إلى ما وراء عالمنا هذا ، فالتلمود لا يشير بكلمة إلى العالم الآخر » كفاحي ترجمة لويس الحاج .

« ولهذا تجدهم أحرص الناس على حياة حتى ولو كانت حقيرة ، المهمّ أن يعيشوا وهذا هو واقعهم » .

وفي تنكير كلمة حياة إشارة إلى أنهم راضون بأية حياة .

(٢) يصور سفر التكوين نوحاً عليه السلام مكشوف العورة عقب شربه الخمر ، وأن =

إلى امرأة قائد جيشه (أوريا الحثي) .

ثم ما العناصر اليهودية والمسيحية التي اتصل بها النبي العربي ﷺ وأفاد منها ، وهو ﷺ النبي الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم تكن بمكة عناصر يهوديةٍ ولا مسيحية اتصل بها ، ولو كان عندها مثل هذا العلم لكان حرياً بها أن تنسبه إلى نفسها وتفوز هي بالرسالة والفخر !!

ومن من اليهود وهم الحريصون على الظهور على الناس جميعاً يصنع هذا !؟؟! أما النصارى فهم أذيال لليهود ؟! ورسول الله ﷺ لم يؤثر عنه أنه سافر خارج مكة إلا مرتين : مرة وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وكلنا يعرف ما جرى له مع الراهب بحيرا .

أما المرة الثانية ففي تجارة أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وهي رحلة عابرة ، ولنا في معرفة ما جرى لرسول الله ﷺ مع ميسرة غلام خديجة من العلم ما لا يخفى .

وحسبك من امرىء لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ثم يتصل بعناصر من غير بيئته فيمدونه بعلم يقوم على أساسه خير الدنيا والآخرة ! ومن قوم عرف عنهم الأنانية وحب الذات وكراهية المجتمع كله !!

ثم يقوم ﷺ بترجمة هذه المعلومات من غير لغته إلى اللغة العربية في ثلاث وعشرين سنة ، وخلال هذا وذاك تظهر على يديه معجزات حسية ومعنوية ومادّية . .

ويقوم بحروب ومعارك في سبيل هذه الأخبار التي استقاها من اليهود

= الذي شاهده ابنه حام وأخبر إخوته (سام ويافث) وأنهما سترا عورة أبيهما ، وأن نوحاً لما أفاق من سكره دعا باللعنة على ابنه (حام) وعلى ذريته فصاروا عبيداً لأولاد كل من سام ويافث ، وهم يريدون بهذا دفع أحقية الكنعانيين أبناء حام في المطالبة بحقهم في بيت المقدس كشعب عاش في هذه المنطقة ، وما الفلسطينيون إلا أحفاد الكنعانيين ، وبالتالي فلا حق لهم في المطالبة بشيء ما داموا عبيداً لأبناء سام . . العهد القديم ـ سفر التكوين ـ الإصحاح التاسع الفقرة (٢٠ ـ ٢٧) .

وعن نبي الله لوط عليه السلام الذي صور القرآن وقوفه ضد الفجور والعصيان والشذوذ الجنسي نجد العهد القديم يصوره زانياً بابنتيه الصغرى والكبرى ، وأنهما ولدتا من أبيهما (ابن غمي ، ومؤاب) .

العهد القديم ـ سفر التكوين ـ الإصحاح التاسع عشر ـ الفقرة (٣ ـ ٣٨) .

والنصارى وينتصر فيها ، ويفقد في بعضها أعز من يملك من أهله وأقاربه[1] .

إن هذا الكلام خارق للعادة وخارج عن حد المألوف . .

ثم يقول صاحب الفن القصصي : « إن دراستنا لما سبق من قيم تاريخية ، ومن ألوان قصصية ومن مقاصد وأغراض ، تدل على أن القرآن لا يقصد بقصصه إلى المعاني الأولى ـ أي ظاهر النص وما يدل عليه ـ ، ولا يريد تعليم الناس التاريخ أو شيئاً عن الأحداث ، وإنما يقصد إلى المعاني الثانية ، وهي المعاني الأدبيّة أو البلاغية ، وهي الاستثارات العاطفية والصور الفنية الأدبية وغيرها مما يعده أصحاب الفنون والآداب ملاك الأدب وغاية البلاغة »[2] .

وإذا كانت هذه العواطف والانفعالات التي تستثيرها المواد الأدبية في القصص القرآني ، وهذه الأحاسيس التي تصورها هذه المواد تختلف في موطن عنها في آخر ، كان معنى ذلك أن القرآن يصنع في هذه المواد ما يصنعه الأدب والفن دائماً بالألفاظ ، وأنه يستخرج من هذه المواد الأدبية القصصية معاني أدبية تشبه استخراجه المعاني المجازية من المعاني الحقيقية ، والصنيع هنا هو بعينه الصنيع هناك ، وأن هذه المواد والألفاظ في الصنيع الأدبي القرآني سواء »[3] .

ثم يقول : «ولعلك قد لحظت أن هذه القصص لا تقصد إلى تصوير ما حدث بين ثمود ورسولها ، وبين لوط وقومه ، فذلك ليس هو الذي يقصد إليه القرآن ، لأنه ليس إلا المعاني الأولى لهذه القصص . . إن مقصد القرآن ليس إلا جعل هذه الصور مصدراً للانفعال والتأثير وباعثاً للأمن والخوف والرجاء . .

هذه المعاني ، أو هذه العواطف والانفعالات هي قصد القرآن من

---

(١) فقد رسول الله ﷺ يوم بدر ابن عمه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وفي أحد فقد عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء .

(٢) الفن القصصي في القرآن ـ لمحمد أحمد خلف الله الطبعة الثالثة (٢٣٨) .

(٣) المرجع السابق (٢٣٩) .

القصص ، وهي الرباط الذي يربط مجموعات القصص ، وهي الأمور التي يجب ان يقف عندها كل من أراد أن يتذوّق أسرار الإعجاز في قصص القرآن .

المسألة إذن في طريقة الفهم ، وفي محاولة الوقوف على القصد ، وفي الوقوف طويلاً عند المعاني الثانية ، أو عند العواطف والأحاسيس والانفعالات التي هي مقصد القرآن الأول والأخير من قصصه ، والتي لم تكن التعريف بالتاريخ أو إملاء الأخبار »[١] .

وأخيراً وليس آخراً يأتي الدكتور خلف الله ليثبت ما رآه جديداً ، وهو أن الصنيع البلاغي للقرآن الذي يقوم على تخليص العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وأخبار من معانيها التاريخية ، وجعلها صالحةً كل الصلاحيّة لاستثارة العواطف والانفعالات حتى تكون العظة والعبرة ، وتكون البشارة والإنذار ، وتكون الهداية والإرشاد ويكون الدفاع عن الدعوة الإسلامية والتمكين لها في نفوس المعارضة . .

إن هذا كله لهو الدليل القوي على أن القرآن الكريم لا يطلب منا الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية .

ومن هنا يصبح من حقّنا ، أو من حقّ القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشري ليبحث ويدقق ، وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل ، ولن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن ، لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ ، ولأن القصص القرآني لم يقصد إلا إلى الموعظة والعبرة وما شابهها من مقاصد وأغراض . . »[٢] .

إن معنى هذا الكلام هو تجريد القرآن الكريم من ميزة الصدق . . وقذفه بالكذب ولو من طريق غير مباشر ، لأنه ليس له سوى محمل وتفسير واحد ، وهو أن القرآن قد حاك مثل هذه القصص التي لا وجود لها البتة .

وكأنه لم يوجد في تاريخ الإنسانية في يوم من الأيام رسالة ولا رسول

---

(١) الفن القصصي في القرآن ـ لمحمد خلف الله ـ الطبعة الثالثة ـ (٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤) .

(٢) الفن القصصي في القرآن ـ د . محمد أحمد خلف الله ـ الطبعة الثالثة (٢٥٤) .

ولا نبي يدعى إبراهيم ، ولا رسول يدعى إسماعيل أو يوسف أو موسى أو هارون . . . عليهم السلام .

فكلام خلف الله لا يعدو أن يكون طعناً في الإسلام وفي الديانات السماوية التي وجدت من قبل ، ثم هو غمط من طرف خفي لحقّ الإسلام ، لأنه إذا صحّ مثل هذا ـ حاشا كتاب الله ـ وهو أن القرآن يفتعل مثل هذه القصص فهذا يعني أن القرآن قد أتخم بمثل هذه الأحاديث المختلفة سواء في قصصه أو في غيرها .

والمولى عز وجل يقول : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (الحاقة : ٤٤ ، ٤٦) حاشاه الصادق الأمين ﷺ .

ثم كيف لا يطلب القرآن منا الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية وهو الذي يومىء لنا صباحاً ومساء : خذوا العبرة والعظة مما جرى لهذه الأمم مع أنبيائها حينما كذبوا الحقّ وناهضوا الشرع ! . .

قال تعالى في حديثه عن عاد وثمود : ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ (الحاقة : ١ ، ٨) .

كل هذا ليقول لنا القرآن اتعظوا واهتدوا لئلا يحل بكم مثل ما حل بالأمم من قبلكم والتي كذبت أنبياءها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١) .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر : ٢٣) .

ثم كيف يتسنى لعقل بشري منصف أن يخالف هذه المسائل التاريخية ، ولا يعد مخالفاً لما أراده الله سبحانه وهو الذي يقول : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ

نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (الإسراء : ١٠٥) ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ (الأنعام : ٣٨) .

ولقد لفت نظري في موضوع القصة القرآنية حديث أثاره الأستاذ فهد بن عبد الرحمن الرومي في كتابه : « منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير » ، يقول الأستاذ الرومي بصيغة المتسائل : « والحق أنّا لا نرى كبير[1] فارق بين قولي الشيخ محمد عبده والأستاذ خلف الله ، فإن رأي الشيخ في قصص القرآن : « أنها تمثيل وتخييل وهي للعظة والهداية » .

ورأي خلف الله : « أنها مخالفة للواقع ومختلقة وهي للعظة والهداية » .

فهما متفقان على الشطر الثاني ، ومتفقان في الشطر الأول على أن ظاهر لفظيهما غير مراد وأنها غير واقعة .

« عبر الأول عن ذلك بالتمثيل والتخييل وعبر الثاني عنه بالاختلاق » .

ولا بأس في أن نستعرض الحديث بتوسع في إطار توضيح الرأي الأخير في المسألة .

يقول الإمام محمد عبده وهو يبدي رأيه في القصة القرآنية : « يظنّ كثير من الناس[2] الآن ـ كما ظنّ كثير ممن قبلهم ـ أن القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق ، أو كتب التاريخ القديمة ، وليس القرآن تاريخاً ولا قصصاً ، وإنما هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ، ولا لأجل التفكير بها أو الإحاطة بتفصيلها ، وإنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة كما قال تعالى : ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ (يوسف : ١١١) وبيان سنن الاجتماع كما قال تعالى : ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾

---

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ـ فهد عبد الرحمن الرومي ـ الطبعة الأولى (٤٦٢ ـ ٤٦٣) .

(٢) تفسير المنار ـ لمحمد رشيد رضا ـ الجزء الثاني (٤٧١) الطبعة الثالثة .

(آل عمران : ١٣٧) .

وفي موضع آخر يقول الإمام محمد عبده : « ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة أحوالها ، وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن الله تعالى فيهم إنذاراً للكافرين بما جاء به محمد ﷺ وتثبيتاً لقلبه وقلوب المؤمنين به ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها ، وإنما يذكر موضع العبرة فيها »[١] .

وفي موضع ثالث يقول : « بيّنا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وأنه ليحكي من عقائدهم الحقّ والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار ، فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية »[٢] .

ويقول الدكتور خلف الله : « على أن القرآن الكريم لا يطلب الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية » .

ثم يقول : « ومن هنا يصبح من حقنا ، أو من حق القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشري ليبحث ويدقق ، وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل ولن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن ، لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ ، ولأن القصص القرآني لم يقصد إلا الموعظة والعبرة وما شابهها من مقاصد وأغراض »[٣] .

ثم يقول بعد ذلك : « اعتقد أنك قد فطنت إلى ما نريد تقريره من نظرية تحلّ مشكلات المفسرين ، وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين ، وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن هذه النظرية ليست إلا القول بأن ما بالقصص

---

(١) تفسير المنار ـ لمحمد رشيد رضا ـ الجزء الثاني (٢٠٥) الطبعة الثالثة .
(٢) تفسير المنار ـ لمحمد رشيد رضا ـ الجزء الأول (٣٩٩) ـ الطبعة الثانية .
(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم ـ محمد أحمد خلف الله ـ الطبعة الثالثة (٢٥٤) .

القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي ﷺ ـ عن التاريخ ـ وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يكون هو الحقّ والواقع ، كما لا يلزم القرآن أن يصحّح هذه المسائل أو يردها إلى الحقّ والواقع ، لأن القرآن الكريم كان يجيء في بيانه المعجز على ما يعتقد العرب وتعتقد البيئة ويعتقد المخاطبون »[1] .

هذا ما قرره الدكتور خلف الله في كتابه أو بالأحرى في رسالته « الفن القصصي في القرآن » .

وقد كان موقف الجامعة حازماً حيال هذا الموضوع ، فقد رفضت الرسالة ، وقد علق على هذا الدكتور الخولي بقوله : « إنها ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ اثنين وأربعين عاماً ، وتخضع البحث للأوهام لا للإسلام »[2] .

يقول الشيخ مصطفى صبري رحمه الله عن الرسالة : « وإني أرى الرسالة المستنكرة وما سبقها في مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده . . كلها ناشئة من الأسس التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالإمام . . فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤتمين »[3] .

وإذا كان لي من كلمة فاصلة في الموضوع فالواقع أن الشيخ محمد عبده ، رحمه الله ، لم يقصد فيما قال الانتقاص من قدر القصة القرآنية أو رميها بشيء مما رماها به خلف الله ، فهو يقرر ويؤكد أن هذا القصّ إنما سيق للهداية والعظة والاعتبار ، وهذا جانب نؤيده عليه ، بل القرآن يثبت هذا القول ويؤكده ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ﴾ .

هذا من جانب ، وأما من حيث أنه يحكي من عقائدهم النافع والضار

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم ـ لمحمد أحمد خلف الله ـ (٢٥٥) .

(٢) مقدمة الرسالة وقد قدم لها أمين الخولي المشرف على الرسالة « الفن القصصي في القرآن الكريم » .

(٣) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ـ لمصطفى صبري .

فهذا أمر نقرره ونثبته ، وهذا واضح ملموس في كثير من القصص القرآني مثل عبادة العجل ، فهو أمر باطل ، وعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، وعقر الناقة وتطفيف المكيال والميزان ، وما إلى ذلك من أمور باطلة .

أما عن كلامهم الكاذب الذي حكاه الله سبحانه على لسان فرعون : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء : ٢٧) .

أما عن القول الصادق ، فمن مثل قول المولى عز وجل على لسان سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى : ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء : ٥٠ ، ٥١) .

فما دامت القصة القرآنية تتحدث عن حياة أمة من الأمم فهي تتناول سيرتهم التي تحمل الخير والشر والحق والباطل ، على أن كل رسول إذا بعث في قوم فقد يجد فيهم من يصغي لقوله ويستجيب لندائه ، وقد يجد فيهم من تحجّر قلبه وتبلّدت عقليّته .

ومن ثم كانت القصة القرآنية تمثل هذه الجوانب المتباينة ، وإن كنا نؤمن جميعاً بأن القصة القرآنية هدفها الأسمى العظة والاعتبار .

أما من أنها ليست لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار ، أو أنها للتمثيل أو للتخييل ، فهذا أمر لا نسلم به كما قال في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (ق : ٣٠) فليس المراد أن الله سبحانه يستفهم منها وهي تجاوبه ، وإنما هو التمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا .

فهذا أمر لا نرفضه فحسب ، بل لا نقبله البتة ، فالقصة القرآنية هي الحق كلّ الحقّ ، وكل ما جاءت به هو الصدق .

من هنا نجد أن الشيخ محمد عبده قد وفق في جانب وتعثر في آخر .

على أني لا أستطيع أن أقول بأن الشيخ قد قررّ ولو للحظة واحدة بأن القصص القرآني مخالف للواقع .

وأما ما ذهب إليه الدكتور خلف الله فذاك الذي لا نستطيع أن نتمحل له عذراً ، ولا أجد مناصاً من القول بخروجه عن الدين وتنكّبه الجادة .

فالقصص القرآني هو الحق كلّ الحق ، والصدق كل الصدق وقد سيق

للعظة والهداية والاعتبار مع بيان التاريخ الصحيح لأحداث الأمم والمجتمعات ، وهو في كل هذا يرمي إلى التربية والتعليم والهداية والرشاد .

فسؤال الباريء عز وجل لجهنم وارد ، وجوابها له ثابت بالأحاديث الصحيحة المتواترة حين يضع الجبار قدمه الشريفة فتقول : « قطني قطني »[1] أي : كفاني كفاني .

وصدق الله القائل : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١) .

بذا يتضح لنا جلياً أن لا تماثل بين ما عناه الشيخ محمد عبده والأستاذ محمد أحمد خلف الله ، وأن ما قصده الشيخ خلاف ما قصده خلف الله .

وأن ما قرره الشيخ بين جدران الأزهر كان حديثاً خالياً من روح التحامل ، وإنما هو رأي المجتهد ليس إلا ، ولو استبان للشيخ خطأ رأيه فإني لا أكاد أشكّ بأنه سيتراجع عن رأيه هذا لما عرفناه فيه من إيمان وتقوى .

وأما ما قرّره الدكتور محمد أحمد خلف الله فلا يكاد يخلو من التعسّف والإسراف وهي زلّة قدم ، ولعل ما يؤكد قولي هذا ما قاله المشرف على الرسالة الدكتور أمين الخولي : « فلو لم يبق في مصر والشرق أحد يقول إنه حقّ ، لقلت وحدي وأنا أقذف في النار : إنه حقّ حقّ » .

وهذه لهجة الدكتور طه حسين في التمسك بوجهة النظر حتى لو كانت مخالفة للواقع وهو نوع من المغالطة والمكابرة .

كما نجد الدكتور خلف الله يقف متسائلاً « عن سر تكرار القصة وبخاصة حين تكون الأحداث القصصية واحدة ، والمواد التاريخية

---

(١) حدثنا عبد الله بن أبي الأسود ، حدثنا حرمي بن عمارة ، حدثنا شعبة بن قتادة عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يلقى في النار ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فتقول : قط قط » أي : حسبي حسبي .

الحديث في فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ـ للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ الجزء الثامن ـ طبعة المطبعة السلفية ومكتبتها (٥٩٤) .

متشابهة ، أمر يحتاج إلى تعليل وإلى بيان وإيضاح ؟ »

سؤال آخر سأله العقل الإسلامي نفسه فيما يخص هذا التكرار ، وهو أنه على فرض قدرته على الوقوف على الأسرار التي من أجلها كان التكرار ، فلماذا كان هذا الاختلاف ؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة في موطن عنه في آخر ؟ لماذا اختلف وصف القرآن لموقف موسى من ربه في سورة طه عنه في غيره من السور مع أن الموقف واحد والحادثة واحدة ؟ لماذا قال القرآن في سورة طه : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ (طه : ٩ ، ٢٤) .

ولماذا قال في سورة النمل عن نفس الحادثة والموقف : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ (النمل : ٧ ، ١٢) .

ولماذا في سورة القصص غير هذين ؟

إن الموقف واحد ، وإن الحادثة واحدة ولكن الوصف مختلف والحوار غير الحوار ، وحديث الربّ العلي مع موسى النبيّ في موطن غيره في آخر .

لقد حاول العقل الإسلامي أن يجيب عن أمثال هذه الأسئلة التي

تخص تكرار القصص القرآني واختلاف الوصف والتصوير ، ولكنه لم يهتد إلى رأي قاطع ، من هنا رأى الكثيرون عد القصص القرآني من الآيات المتشابهات .

يقول الطبري : « المتشابه : هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار ، فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني ، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني » .

وكذلك يقول غيره من شيوخ المفسرين : ولو أن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس فني وأدبي لما وقف هذه الوقفة ، ولعرف منذ اللحظة الأولى الذي عده تكراراً ليس من التكرار في شيء ، لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر ، ومن هنا كان الاختلاف ، لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية مقصد القرآن من قصة موسى في سورة طه غيره من قصة موسى في سورة النمل ، وقصة موسى في سورة طه قصة مستقلة ، وقصته في سورة النمل قصة مستقلة ، ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك أخرى ، وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه » انتهى كلام الدكتور خلف الله[(١)] .

وأقول وبالله التوفيق : قد يبدو لأول وهلة أن بعض الآيات القصصية قد تعددت في منطوقها واختلفت في عبارتها ، مما قد يظن معه أصحاب العقول السطحية أن القصص القرآني قد شابه الاضطراب وفاته الإحكام .

كما قد يظن المفترون بأن هناك ثغرة يمكن أن يسددوا منها سهامهم للنيل من إحكام القرآن وإعجازه ، ووصمه بالاضطراب والخلط كما خيل للدكتور خلف الله . .

ولكن الحقيقة غير هذا ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢) .

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم - د . محمد أحمد خلف الله الطبعة الرابعة (٣٣ - ٣٤) .

لنأخذ قصة موسى في سورة طه ، قال تعالى : ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ (طه : ١٠ ، ١٦) .

وفي سورة النمل ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (النمل : ٧ ، ٩) .

في سورة القصص ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (القصص : ٢٩ ، ٣٠) .

فبالتأمل في تلك الصور الثلاث ، نلمح أن هناك اختلافاً ظاهرياً في بعض العبارات :

في سورة طه : ﴿ لعلي آتيكم منها بقبس ﴾ .

في سورة القصص : ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ .

في سورة النمل : ﴿ سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ .

وفي المناداة الإلهية في سورة طه : ﴿ إني أنا ربك فاخلع نعليك ﴾ .

في سورة النمل : ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ .

في سورة القصص : ﴿ أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ .

وهكذا نرى اختلاف القصة في السور الثلاث من حيث بعض العبارات التي وردت في كلام الباريء عز وجل ، أو على لسان الكليم عليه

السلام .

وإنني أرى أن هذا لا يعد اختلافاً في القص ولا تبايناً في الألفاظ التي تؤدي إلى تضارب المعاني ، إذ أنه مع هذا الاختلاف اللفظي الذي قد يحدث أحياناً في خلال القصص المكررة إلا أن ما تهدف إليه العبارة وما تشير إليه متفق تماماً وليس فيه شيء من التعارض الذي يجعل سياق القصة غير متناسق مع القصص التي تحكى في سور أخرى .

فموسى عليه السلام رأى ناراً ، ومع ذلك هو يأتي منها بقبس ، أو بخبر ، أو بجذوة ، أو يجد عليها هدى .

والله عز وجل ناداه سواء بقوله : ﴿ إني أنا ربك ﴾ أو بقوله : ﴿ أنا الله العزيز الحكيم ﴾ أو بقوله : ﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾ كلها معان مؤداها واحد ، ومغزاها متفق تماماً ، ومن المعلوم أن الله سبحانه لم يخاطب موسى بتلك اللغة العربية ، كما أن موسى لم يحدث أهله بتلك اللغة والعبارة ذاتها .

وعلى هذا فلا مانع من أن الله عز وجل يقرب هذه المعاني والعبارات إلى أفهام العرب ، وما اصطلحوا عليه من ألفاظ ، وعلى هذا فالعبارات الواردة في السور الثلاث ما كانت لتعبر تماماً عن مفاهيم الألفاظ العربية ، ولتترجم عن المعاني التي ألفها الناس حينئذاك .

على أن القصة القرآنية ليس هدفها أن تحكي عبارة بعينها أو لفظاً كما هو ، وإنما هدفها الأساسي هو التعبير عن مشاعر الرسل والأمم الذين بعثوا إليهم ولن يكون التعبير كاملاً بالألفاظ فحسب ، وإنما يكون بالأحداث التي انبثقت من حياتهم فتحركت بها مشاعرهم ، ونبض بها وجدانهم .

فالقصص القرآنية تترجم عن المشاعر والسلوك النفسي والعملي قبل أن تترجم عن نبرة صوتية ، أو محاكاة لفظية .

على أن في اختلاف هذه التعبيرات اللفظية مع الاتفاق في الغاية القصصية ، والأحداث المعنوية ، دليل قوي على روعة القصص القرآني ، وبرهان ساطع على إعجازه ، فمع تكرار القصة الواحدة بأساليب مختلفة فإن

مغزاها واحد ، وأحداثها متفقة وكل قصة تكمل الأخرى ، فهي كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً ، على أن هذا الاختلاف اللفظي قد يكون مبعثه الإطناب والإيجاز كما هو واضح في سورة طه الآيات (١٧ ، ١٨ ، ١٩) .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ .

وفي سورة القصص الآية (٣١) ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ .

وفي سورة النمل الآية (١٠) ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ .

فنرى في سورة طه حديثاً مطولاً عن عصا موسى ، فالله يسأله وهو يجيب ليبين فائدة عصاه ، ثم بعد ذلك يطلب منه الحق عز وجل أن يلقي عصاه .

أما في سورة النمل وسورة القصص فلم نر شيئاً من التفصيل عن عصا موسى ، ولم نر السؤال والجواب الذي لمسناه في سورة طه ، وإنما رأينا الأمر الإلهي لموسى بأن يلقي عصاه .

إذن فليس هناك تضارب في هذه القصة الموسوية حينما تكررت في ثلاث سور ، وإنما هو الإيجاز والإطناب الذي ربما قد أحدث شيئاً من الاختلاف في سرد القصة ، وبالتأمل في سورة طه نرى أن العصا حينما ألقاها موسى إذا هي حيّة تسعى ، وفي سورة القصص كانت جانّاً .

وسبق أن قلت : إنه ليس هناك تضارب بين هذا وذاك ، فالحية أول حالها ، والجان مآلها ، فهو يتحدّث عن البداية والنهاية ، وعلى كل فإن أثر إلقاء العصا على نفس موسى هو الذعر والخوف في الصور الثلاث ، وإن اختلفت العبارة الدالة على ذلك ، ففي سورة طه : ﴿ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ ، وفي سورة النمل : ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف ﴾ ، وفي سورة القصص : ﴿ أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ .

إذن فالصور الثلاث تتفق تماماً في أثر إلقاء العصا على نفس موسى ، وإن اختلفت في شيء من شكلها لتبرهن على أن العصا حينما ألقاها موسى فانقلبت إلى شيء مخيف لم تثبت على حالة واحدة .

وهكذا نلمس قوة القرآن الكريم في إحكامه ، وربطه ، وعدم تضاربه .

أما أن يكون هذا الاختلاف اللفظي مبعثه اختلاف الموقف القصصي ، فما دامت القصة قد وردت لغرض ومقصد كالتسلية والتسرية عن النبي ﷺ ، فلا بد أن تتناول في كل موقف شكلاً معيناً ربما قد يغاير الشكل الآخر الذي تحكيه سورة أخرى ، على معنى أن كل سورة قد تحكي قصة ، فهذه قصة وتلك قصة ، وعلى ذلك لا تكون هناك مشكلة قائمة على هذا الاختلاف ، لأننا لم نربط بين القصتين حتى يقوم التعارض والاختلاف .

وهذه مقالة الدكتور خلف الله .

وليس الأمر كذلك إذ أني أرى أن السور القرآنية المتعددة وإن تحدثت عن قصة واحدة فإنما تكرر حدثاً واحداً ، وقصة دارت بين قوم ، وليس من المعقول أن كل سورة من القرآن تتناول قصة على غير القصة التي وردت في سورة أخرى .

إن السور القرآنية تحكي قصة واحدة ، ولكنها تعرضها بأساليب مختلفة ، مما يتناسب مع لغة العرب ، ويتلاءم مع أفهام الناس سواء في شيء من الإيجاز ، أو في شيء من التفصيل ، وليس من المعقول في شيء أن يكون هدف القصة القرآنية هو الكشف عن موضع العبرة ، وموطن العظة دون قصد إلى تقرير خبر بعينه ، فإن العبرة والعظة ـ على ما أرى ـ لن تنكشف على حقيقتها إلا حينما نلمس حدثاً معيناً ، وموقفاً خاصاً ، وبذلك يكون تقرير الخبر بعينه من العوامل الهامة في روعة القصة ، والاتعاظ بها ، فتكون كما قال الحق عز وجل : ﴿ عبرة لأولي الألباب ﴾ .

الفصل الثالث

أباطيل القائلين بالإعجاز بالصّرفة
في أسْلوب القرآن الكريم
والرّدّ عَليهم

آراء القائلين بالإعجاز بالصّرفة مع الرد عليهم

هذا وقد قال جماعة بالصرفة ، والمراد أن الله سبحانه صرف العرب والعجم عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع قدرتهم عليه .

ولعل الجاحظ ، وهو من القائلين بهذا القول ، يعرض وجهة نظره في الموضوع وهو يقول حين يتكلم عن تفسير قوله تعالى :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (النمل : ٢٠ ، ٢٣) .

يورد الجاحظ هنا اعتراضاً[١] فيقول : « إن الله أعطى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فملكه على الإنس والجن والطير ، وسخّر له الريح ، فكيف لا يعرف ملكة سبأ مع قرب دارها ؟

ثم يقول : لله تدبير تعجز عن فهمه العقول .

ويقول أيضاً : كان يعقوب أَنْبَهَ أهل زمانه ، وكان يوسف عليه السلام وزير ملك مصر ، وكان من الشهرة بمكان عظيم ، ثم لم يعرف أحدهما مكان الآخر ؟

ويمثل الجاحظ أيضاً بموسى بن عمران عليه السلام ، ومن كان معه في التيه لمدة أربعين عاماً في مقدار فراسخ يسيرة ولا يهتدون إلى مخرج منها ، وما كانت بلاد التيه إلا ملاعبهم ومنتزهاتهم ، ولكن الله صرف أوهامهم .

ويمثل بزكريا عليه السلام ، وكيف صرفه الله عن النطق ثلاثة أيام إلا رمزاً .

ثم يقول : ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب ، وصرف من نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحدّاهم الرسول ﷺ بنظمه .

ولذلك لم تجد أحداً طمعَ فيه ، ولو طمع فيه لتكلّفه . . ولكثُر فيه

---

(١) الحيوان ـ للجاحظ ـ الجزء الرابع (٣٠) .

القيلُ والقال ».

ويشهد للجاحظ في كلامه هذا ابن حزم حيث يقول : « فما من بلغائهم أحدٌ يتكلّف معارضة القرآن إلا افتُضِح وسقط وصار مهزأة ومعيرة يُتَماجَنُ به ، منهم مسيلمة بن حبيب الحنفي لما رام ذلك ، لم يَنطق لسانُه إلا بما يُضحك الثّكالى والمفجوعين[1] ».

أما النظام ، وهو أستاذ الجاحظ ، فهو من أشهر القائلين بالصرفة ، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها ، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة[2]

وكان يقول : إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجّة على النبوّة ، بل هو كسائر الكتب المنزّلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام .

والعرب إنما لم يعارضوه ، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به[3] .

وابن سنان الخفاجي هو الآخر يقول بالصرفة ، يقول ياقوت الحموي في معجم الأدباء : « قرأت بخط عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الشاعر في كتاب له ألفه في الصرفة زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة حتى صار معجزة للنبي ﷺ وإن كل فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله ، إلا أنهم صرفوا عن ذلك لا أن يكون القرآن في نفسه معجزاً بالفصاحة »[4] .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي (١٤٤) الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثامنة .

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي .

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي .

(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي - الجزء الثالث (١٢٩) - الطبعة الثانية - مكتبة عيسى البابي الحلبي .

تفنيد آراء القائلين بالصرفة والرد عليهم

والواقع أن القول بالصرفة قولٌ كليلٌ ، تخبط فيه كثير من فطاحل العلماء حتى الإمام الفخر الرازي عند ما سئل عن السور القصار ، أجاب بأن ما خرج في القرآن من السور عن حدّ الإعجاز دخلته الصرفة .

والإمام ابن قيم الجوزيّه رحمه الله نراه يرى هذا الرأي ثم يقع في التناقض حين يريد الردّ عليه وعلى القائلين به .

وأما ما ذهب إليه النظّام والجاحظ ، ومن سار على نهجهم من قصة زكريا عليه السلام فحجّة فيما نحن بصدده .

إذ الآية كانت في سلبه النطق لا في نطق غيره .

ثم كيف يحصل التحدّي بالإعجاز ووجه الإعجاز خافٍ ، وإذا ثبت كونه معجزاً تعينّ أن يكشف عن وجه الإعجاز إذ لا يصحّ التحدّي بشيء مع جهل المخاطب بالجهة التي وقع بها التحدّي ، ولو كان ذلك لكان الأمر ضرباً من الإسفاف .

ويعقّب الرافعي على القول بالصرفة بقوله : « وهو قول لو قال به صبية المكاتب ، لكان ذلك من تخاريفهم فيما لا يعرفون ليوهموا الناس أنهم يعرفون »[1] .

---

(١) إعجاز القرآن / لمصطفى صادق الرافعي ـ الطلعة الثامنة (١٤٥) .

ويقول الإمام ابن قيّم الجوزيّة رحمه الله في نقض القول بالصرفة هذا : وقد اعترض عليه بوجوه ثلاثة :

١ ـ لو كان الأمر كذلك لما تعجب العرب من فصاحة القرآن ، بل كان عجبهم من تعذر ذلك عليهم مع أنه في مقدورهم .

٢ ـ لو كان كلامهم قبل التحدّي مقارباً لفصاحة القرآن ، ثم صار كلامهم بعد التحدي منحطاً عنه كثيراً لصحّ القول بالصرفة ، ولكن ذلك ليس واقعاً .

٣ ـ لو نقل أن العرب زالت عقولهم حين التحدي ، لصدقنا القول بالصرفة ، ولكن عقولهم لم يصبها شيء حينئذ . . ومنه يُرى أن الإعجاز ليس بالصرفة .

خلاصة قول الإمام رحمه الله أنه لو صح القول بالصرفة لكان المعجز الصرفة وليس القرآن .

وأقول هنا : إن القول بالإعجاز بالصرفة ضرب من التمحّل لا مبرّر له ، فالقرآن معجز وقد تحدّى الله به العرب والعجم والإنس والجنّ على حدٍّ سواء ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

فلو لم يكن الإعجاز قائماً بذاته في القرآن لما حصل به التحدّي ، وكيف يتصوّر أن يتحدّى رب العالمين بإعجاز القرآن ، ثم يسلب آلة التحدي من الآخرين .

هب أن رجلاً دخل المعركة وهو مشتمل بآلة حربه ، متسربل بسيفه ورمحه ، ثم طلب المبارزة ، هل يتصور منه أن يطلب من مبارزه أن يكون أعزل من آلة حربه ؟!

حينئذ لم تكن هناك نَصَفة وليس للفارس أي حقّ في ادعاء الشجاعة .

إن المولى عزّ وجل لم ينزل القرآن ويقيم الشواهد على التحدّي به إلا وقد وجدت الآلة للتحدي من الناس جميعاً ، فحروف القرآن هي نفس حروفكم ، وألفاظه رُكّبت من ألفاظكم ، وأنتم أهل اللَّسَن وفرسان الكلام !

فما بالكم واجمون ؟! وعن طريق الحق ناكبون ؟! وبالعجز مقرّون ؟!

إلا أن هذا القول فوق طاقتكم ، لأن كلام الخالق ليس ككلام المخلوق ؟

من هنا وجب الإذعان ، وتأكّد الإقرار بصدق ما جاء به النبي ﷺ من ربه وأنه المعجزة الخالدة على مرّ الأجيال وتعاقب الأزمان ، وصدق الله القائل : ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود : ١) .

والقائل : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢) .

هذا ولا يخفى علينا بأن رغبة أعداء الإسلام في معارضة القرآن شديدة ، ولكنّهم يحسّون في أنفسهم العجز عنها ، ولو كانوا قادرين لما سكتوا .

بل حصلت المحاولات من بعضهم ، فما زاد على أن جاء بكلام فضح به نفسه وصيرّه معيرة ومهزأة لأبناء جنسه .

وهذا تحقيق لما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله . من هؤلاء : مسيلمة الكذاب ومن نهج نهجه .

وأما قول الجاحظ بأن الله قد صرف العرب عن معارضته كما صرف زكريا عن التكلم ، قال تعالى على لسان زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (مريم : ١٠) .

فإن زكريا عليه السلام لم يكن عاجزاً عن الكلام فيما مضى وهو الذي اختار هذه الطريق حينما طلب من ربه آية ، ويصدق مثل هذا التمثيل لو كان في مقدور العرب الإتيان بمثله ، ثم فجأة يحجبون عنه وعن التكلم بمثله ، إن العرب لم يشكّوا منذ أول لحظة سمعوا فيها القرآن بإعجازه ، ثم كان هناك من الدواعي التي تدفعهم إلى التفكير في معارضته الكثير .

فهم لا يقرون بنبوة النبي ﷺ ويكذبونه فما كان أحرى بهم أن يحاولوا مجاراته فيما جاء به ليغضوا منه ولينقضوا صدق دعواه .

ولكنهم عجزوا وظلّوا واجمين .

أما عن عدم معرفة سليمان عليه السلام لمكان بلقيس وقرب دارها ، فذاك ليس للصرفة ، ولكن هو من علم الغيب ، وسليمان عليه السلام نبيٌّ ملِك ، وعلم الغيب من اختصاص ربّ العزة والجلال ، فما كان لسليمان عليه السلام أن يعلم ما غاب عنه ، ولعل في هذا حكمة خافية ظهرت لنا الآن .

لربما أن سليمان عليه السلام ، وهو الذي استخدم الجنّ والإنس والشياطين كان من الإنس والجنّ من يتبادر إلى ذهنه أنه يعلم الغيب ، فنفى الله عنه هذا ، وأوضح أن هذا من خصوصيات ربّ العزة والجلال .

كما سبق وأوضح للإنس الذين يتوهّمون أن الجن يعرفون الغيب ، فأوضح تعالى أن ذلك ليس في مقدورهم ، لأن نبي الله سليمان كان الجن يعملون بين يديه ليلاً ونهاراً ، وهو متكيء على عصاه وميت حتى أكلت

الأرضة عصاه ، فسقط كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (سبأ : ١٤) .

والعذاب المهين : أنهم كانوا يعملون ويكدّون ، ولو تبادر لذهنهم لحظة واحدة أنه مات لما كلّفوا أنفسهم مشقّة المعاناة ولتفرّقوا في كلّ حدَب وصَوْب .

وقل مثل ذلك في يعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام فالمسألة لا تخرج عن إطار الغيبيات .

وأما يوسف فقد كان يعلم مكان أبيه ، وكان باستطاعته لو لم يعرفه أن يرسل من يبحث عنه .

لكن كيف له ذلك وهو في غيابة السجن ، وحينما خرج وتولّى خزائن الأرض لم يتردّد لحظة واحدة حينما واتته الفرصة في استحضار أبيه ، ولكن بعد أن طلب إحضار أخيه ليكون الوسيلة لحضور يعقوب ، وبمثابة التهيئة ليعقوب عليه السلام ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (يوسف : ٧٦) وبذلك يتم اجتماع الشمل في مكان طيب خصب ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف : ١٠٠)[1] .

وأما زكريا عليه السلام فلم يكن عاجزاً عن الكلام فيما سبق وهو الذي طلب من ربه آية فكانت الآية التي طلب من زكريا التقيد بها ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (مريم : ١٠) .

أما العرب فكانوا عاجزين من قبل ولم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه ، فلم يجدوا أنفسهم عاجزين عما كانوا عليه قادرين ، كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه .

---

(١) ورؤى الأنبياء حق قال تعالى : ﴿ يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا ﴾ [الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥] ﴿ لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح : ٢٧] .

يقول الإمام الخطّابي رحمه الله :

« ومعلوم أن رجلاً عاقلاً لو عطش عطشاً شديداً خاف منه الهلاك على نفسه ، وبحضرته ماء معروض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشاً ، لحكمنا أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه ، وهذا بينّ واضح لا يشكل على عاقل .

ولو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمان النبوّات ، وجعل معجزته في تحريك يده أو مد رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال : آيتي أن أحَرك يدي أو أمدّ رجلي ، ولا يمكن أحد منكم أن يفعل مثل فعلي ، والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم ، فحرك يده أو مد رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه »[1] .

ونحن نرى أن القائلين بالصرفة يرون أن الفصاحة العربية المعهودة قبل الإسلام قد توقفت أو تضاءلت بعد ظهوره دون أن يشعروا بتوقفها ، ولو صح هذا لما استطاعوا أن يتذوّقوا إعجاز القرآن الكريم على النحو الذي سمع من كثيرين شهدوا بأنفسهم أن القرآن الكريم ليس شعراً ولا نثراً ولا كهانة ، ولا شيئاً من ذلك على الإطلاق ، فكيف يقال عن قوم هذا شأنهم : إنهم سلبوا الفصاحة ؟

من جهة ثانية : فإنهم لو أحسّوا صرفاً عن فصاحتهم لتحدّثوا عنه ، وهذا ما لم ينقل عنهم ، وإنما الذي نقل عنهم ما بينته الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ

---

(1) رسالة الخطابي « في بيان إعجاز القرآن » من ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ـ الطبعة الثالثة ـ (٢٢ ـ ٢٣) .

والخطابي هو الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ينتهي نسبه إلى زيد بن الخطاب شقيق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ولد سنة ٣١٩ هـ ، وتوفي بالقرب من كابول في بست سنة ٣٨٨ .

وقد تلقى العلم في البصرة وبغداد ، وأقام بمكة فترة من الزمن ، ثم عاد إلى خراسان وأقام في نيسابور ، واستقر به المطاف في بست حتى لقي ربه رحمه الله رحمة واسعة .

أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال : ٣١) .

ويدفع الإمام الزركشي هذا الوجه بقوله : « وهو قول فاسد بدليل قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء : ٨٨) .

فإنه دليل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره .

هذا مع أن الاجتماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزاً غيره وليس فيه صفة الإعجاز ، بل المعجز هو الله سبحانه ، حيث سلبهم قدرتهم على الإتيان بمثله ؟!

وأيضاً : يلزم من القول بالصرفة فساد آخر ، وهو زوال الإعجاز بزوال زمان التحدّي ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لأجماع الأمة ، فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى ولا معجزة له باقية سوى القرآن ، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزاً[1] .

ثم يورد رداً للإمام القاضي أبي بكر الباقلاني حيث يقول : « ومما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة ـ وإنما منع منها الصرفة ـ لم يكن الكلام معجزاً »[2] .

وابن القيم رحمه الله يقول : « وقال قوم : إعجازه : صرف الله خلقه عن الإتيان بمثله ولولا ذلك لدخل تحت مقدورهم . .

يقول وقد اعترض على هذا القول بوجوه ثلاثة :

الأول : أن عجز العرب عن المعارضة لو كان من أجل[3] أن الله تعالى عجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحته ، بل يجب أن يكون تعجّبهم من تعذّر ذلك عليهم ، بعد أن كان مقدوراً لهم كما أن نبياً لو قال : معجزتي أني أضع يدي على رأسي هذه

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي ـ (٩٤) الجزء الثاني ـ الطبعة الثانية .

(٢) إعجاز القرآن ـ للباقلاني ـ (٣٠) ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر .

(٣) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ـ لابن قيم الجوزية ـ الطبعة الأولى ص (٣٨٦ ، ٣٨٧) .

الساعة ، ويكون ذلك متعذراً عليكم ، ويكون الأمر كما زعم لم يكن تعجب القوم من وضعه يده على رأسه ، بل تعذّر ذلك عليهم ، ولمّا علمنا بالضرورة أن تعجّب العرب كان من فصاحة القرآن نفسه بطل القول بالصرفة .

الثاني : لو كان كلامهم مقارباً في الفصاحة قبل التحدي لفصاحة القرآن ، لوجب أن يعارضوه بذلك ، ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدّي وكلامهم قبله ، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن ، ولما لم يكن كذلك بطل ذلك .

الثالث : إن نسيان الصيغ المعلومة في مدة يسيرة يدلّ على زوال العقل ، ومعلوم أن العرب مازالت عقولهم بعد التحدّي ، فبطل أن يكون الإعجاز بالصرف بل الإعجاز ليس بالصرف » .

يقول الرافعي : « وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب (إنْ هذا إلاّ سحرٌ يُؤْثر)[1] .

وهذا زعم رده الله تعالى على أهله وأكذبهم فيه ، وجعل القول فيه ضرباً من العمى ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الطور : ١٥) .

ووجه الشبه في كلا القولين : أن إعجازه لأمر خارج عنه لا لذاته » .

وكلمة أخيرة في الموضوع : أن الناس في القرآن بين أمرين : إمّا أنهم أحسّوا العجز عن مقارعته لأمر خارج عنه ، وهو ما يقول به دعاة الصرفة : أنهم قادرون على الإتيان بمثله ، ولكن الله سبحانه عزّ وجل صرفهم عن ذلك .

فهذا مع التسليم به ـ جدلاً ـ من أبلغ الخوارق على صدق القرآن ، لأن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد .

والأمر الثاني : أنهم عاجزون أصلاً لأمر قائم بذاته في القرآن ، وهو إعجازه الكامن في ألفاظه ، في جرسه ، في فصاحته في تناسقه ، في إخباره بالغيبيّات ، في قصصه . . إلخ فقد ثبت أنه خارق للعادة .

والصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي (١٤٦) الطبعة الثامنة .

يقدرون على ذلك ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

ذلك العجز لأنه كلام رب العالمين الذي أحاط بكل شيء علماً .

والواقع أني أستبعد نسبة القول في الصرفة للنظّام والجاحظ وغيره من هؤلاء الأئمة الأعلام .

وقد يكون هذا من وضع بعض الذين يحاولون الغض من قيمة هؤلاء العلماء ، وقد يكون مصدر استبعادي لهذا يعود لأمور منها :

إقرار بعض هؤلاء العلماء من أمثال الجاحظ بما في القرآن من نظم وبيان معجز ، وقد أنكر الصرفة وردّ عليها في أحد قوليه .

والزمخشري يقول : إن إعجازه إنما هو من أحد وجهين ما فيه من مغيبات ، ثم نظمه حيث يقول فيه : « وهو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع الذي وقع عليه التحدّي ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسّر »[1] .

من هنا فقد أنكر الزمخشري الصرفة ، ولم يستدل بها على الإعجاز ، وهو من هو بين علماء المعتزلة .

والفكرة فكرة الصرفة أساساً ليست وليدة الفكر العربي ، وإنما هي من أقوال الهند ، فالصرفة قال بها الهنود البراهمة متأثرين بكتاب « البُندا » الذي يحوي بعض أشعار يزعمون بأنه ليس في كلام الناس ما يدانيها ، وأنهم مصروفون عن أن يأتوا بمثلها ، صرفهم عنها (براهما) ، وناهيك

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ للزمخشري ـ الجزء الثاني ـ (٢٤) ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

والزمخشري : هو الإمام أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري صاحب التآليف الزاهرة ، والتصانيف الفائقة الباهرة ، كان إمام عصره من غير مدافع تشدّ إليه الرحال من كل مكان شاسع .

ولد يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب ٤٦٧ هـ بزمخشر من قرى خوارزم وتوفي رحمه الله ليلة عرفة ٥٣٨ هـ عن إحدى وسبعين عاماً بجرجانية من أرض خوارزم ، ورثاه بعضهم فقال :

فأرضُ مكة تُذري الدمعَ مُقلَتُها ... حزناً لفُرقة جارِ الله محمودِ

عن تخاريف الهنود وكفرهم .

ويترتب على القول بالصرفة :

أولا : أن القرآن الكريم ليس في درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته وتعجز القدرة البشرية على أن تأتي بمثله ، فالعجز ليس من صفات القرآن الذاتية .

ثانياً : الحكم بأنه ككلام الناس لا يزيد عليه في شيء من بلاغته أو في معانيه ، إذا ثبت هذا وقد عرفنا ما للقوم من قدم راسخة في العلم ومساهمة في خدمة[1] القرآن ، فينبغي أن نحكم ونحن مطمئنون على أن هذه الأقوال قد دسّت على هؤلاء الأئمة الأعلام ، وروّج لها ما كان القوم فيه من اهتمام بالفلسفة وعلم الكلام .

« وصفوة القول : إن مدرسة المعتزلة تمثل في الفكر الإسلامي الطبقة المثقفة الواعية المدافعة عن الإسلام ، فقد كان منها علماء الكلام المتبحرون وأئمة في النحو وأعلام في التفسير »[2] .

ثم لو كان العرب قد صرفوا عن معارضته فإن من قبلهم لم يكونوا مصروفين عنه ، لأنهم لم يتحدّوا به فكان من الجائز أن نعثر في كلام العرب الأقدمين على ما يشبه القرآن ، وذلك ما لم نجده في تاريخ أدبهم[3] .

وصدق الله القائل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ (الرعد : ٣١) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر : ٢٣) .

أفبعد هذه الأوصاف الذاتية التي تشهد بمنزلة وعلو هذا الكتاب المعجز يبقى حديث لمتقول بالصرفة .

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن ـ للشيخ محمد أبو زهرة ـ الناشر : دار الفكر العربي (٧٦) .

(٢) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه ـ للدكتور / مصطفى الصاوي الجويني ـ الطبعة الثانية ـ (٧١) .

(٣) عن كتاب إعجاز القرآن ـ للباقلاني ـ الطبعة الثالثة (٣٠) .

الفصل الرابع

أباطيل القائِلين بإمكانيّة المعَارضة في أسلوب القرآن الكريم مع الرّد عليهم والمستشرقون والقرآن مع الرّد عليهم في افتراءَاتِهم

تقديم

لم يتعرّض كتاب من الكتب السماوية إلى محاولة النّيل والغضّ منه ما تعرض له هذا الكتاب العزيز .

ثم مِن مَن ؟

من أقرب الناس إلى صاحب الرسالة وهو رسول الله ﷺ !

لقد حاولت قريش بكل ما أوتيت من قوة النّيل من القرآن والغضّ من قيمته ، ولكنهم لم يفلحوا فانقطعوا حتى عن محاولة معارضته أو التفكير في الإتيان بمثله .

مع أن التحدّي ما زال قائماً حتى الآن ، وسيظلّ حتى يقوم الناس لربّ العالمين . . ومع مكابرة القوم وعنادهم فقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب ، وقرعاً في النفوس يريبهم ويحيّرهم .

فهذا الوليد بن المغيرة من زعماء المشركين جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه النبي ﷺ القرآن فكأنه رقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : ياعمّ إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لم ؟ قال : ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتفيد من ماله .

قال الوليد : قد علمت قريش أني أكثرها مالاً ، قال أبو جهل : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له ، وأنك كاره له . قال الوليد : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالأشعار ولا أعلم برجز ولا قصيدة مني ، ولا بأشعار الجنّ ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، والله إنّ لقوله الذي يقول لَحلاوةً وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه ، مغدِقٌ أسفله[1] ، وإنه ليعلُو وما يعلى ، وإنه ليحطّم ما تحته .

قال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني أفكر فلما فكر . . قال : هذا سحرٌ يؤثر يأثره عن غيره[2] .

---

(١) طلاوة : رونقاً وحسناً .

مغدق : كثير الماء ، يأثره عن غيره : ينقله عن غيره .

(٢) الحديث رواه الحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، والقصة =

فنزلت الآيات : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ (المدثر : ١١ ، ٢٤) .

وهذا أنيس ذهب إلى مكة ثم عاد ، فقال لأبي ذرّ أخيه : « لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء .

قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقْراءِ[1] الشعر فما يلتئمُ على لسان أحد بعدي أنه شعر ، والله إنه لصادقٌ وإنهم لكاذبون »[2] .

ونسمع من سفهائهم من يقول : هو كذب وأساطير ، قال تعالى حاكياً مقالتهم تلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان : ٤ ، ٥) .

وفي ذلك يقول سيد قطب : « وأكذب شيء أن يقول كفار قريش هذه المقالة ، وهم يوقنون في أنفسهم أنها الفرية التي لا تقوم على أساس ، فما يمكن أن يخفى على كبرائهم الذين يلقّنونهم هذا القول أن القرآن الذي يتلوه رسول الله ﷺ شيء آخر غير كلام البشر وهم كانوا يحسّون هذا بذوقهم في الكلام ، وكانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر بالقرآن .

ثم هم كانوا يعلمون عن رسول الله ﷺ قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذي لا يكذب ولا يخون ، فكيف يتصوّر منه أن يكذب على الله وينسب إليه قولاً لم يقله !

= مروية بتمامها في كتاب : « تهذيب سيرة ابن هشام » تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الخامسة (٦٠) .

(١) أقراء الشعر : طرقه وأنواعه .

(٢) الحديث في صحيح مسلم (من فضائل الصحابة) فضائل أبي ذر رضي الله عنه الجزء السادس عشر ـ الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ ـ دار الفكر بيروت .

ولكنه العناد والخوف على مراكزهم الاجتماعية المستمدة من سيادتهم الدينيّة كان يجنح بهم إلى مثل هذه المناورات التي يطلقونها في وسط جمهور العرب الذين قد لا يميزون بين الكلام ولا يعرفون درجته .

وإذا كان هناك من البشر من يملك أن يفتري مثل هذا القرآن بمعاونة قوم آخرين ، فما يمسكهم عن الإتيان بمثله ، مستعينين بأقوام منهم ليبطلوا حجّة النبي ﷺ وهو يتحدّاهم به وهم عنه عاجزون »[1] .

وفي ذلك يقول الإمام الباقلاني رحمه الله : « إن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز ، ولكن اختلفتَ أحوالهم ، فكانوا بين جاهل وجاحد ، وبين كافر نعمة وحاسد ، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات ، وحائر عن النظر في الدلالات ، وناقص في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان ، وغاوٍ تحت حبالة الشيطان ، ومقذوف بخذلان الرحمن ، وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ، ودرجات الحرمان مختلفة »[2] .

على أن الأمر لم يخل من بعض الادعاءات السخيفة من بعض الأدعياء ممن فسدت أذواقهم واستولى الشيطان على أفكارهم وعشش فيها وباض وفرّخ .

فظنّوا أن بإمكانهم مجاراة كلام الله ومعارضته ، فإذا بهم يأتون بكلام هو ضرب من السفه والتهافت يدلّ على جهلهم وضلالهم ونزقهم حتى أصبحوا مضرب المثل في الجهل والغباء .

هذا مسيلمة الكذاب يدّعي النبوة ، وأنه يوحى إليه ويحاول معارضة القرآن بكلام مسف فيقول : « الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ؟ له مشفر طويل ، وذنب أثيل ، وما ذاك من خلق ربنا بقليل » .

وتعليقاً على هذا الافتراء وذلك الإسفاف في القول يقول الإمام الخطابي : « فيقال الآن لصاحب الفيل : افتتحت قولك بالفيل وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ؟ فهوّلت وروعت ، ثم أخلفت ما وعدت . . وعلى

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ المجلد الخامس ـ الطبعة العاشرة .

(٢) إعجاز القرآن ـ للباقلاني ـ الطبعة الثالثة (٣٠٤) .

ذكر الذنب والمشفر اقتصرت ، ولو كنت تعرف شيئاً من قوانين الكلام وأوضاع المنطق ورسومه لم تحرف القول عن جهته ، ولم تضعه في غير موضعه ، أما علمت يا عاجز أن مثل هذه الفاتحة إنما تجعل مقدمة الأمر عظيم الشأن ، فائق الوصف ، متناهي الغاية في معناه . .

وأنت علقت هذا القول على دابّة يدركها البصر في مدى اللحظة ، ويحيط بمعانيها العلم في اليسير من مدة الفكر ، ثم اقتصرت من عظيم ما فيه من العجب على ذكر المشفر والذنب . .

فما أشبه قولك هذا إلا بما أنشدنيه بعض شيوخنا لبعض نظرائك :

إنّي وإنّي ثـــم إنّي وإنــــي إذا انقطعَتْ نعلي جَعَلْتُ لها شِسْعاً[1]

أما الإمام الباقلاني فيقول : « فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم أنه قرآن فهو أخسّ من أن نشتغل به ، واسخف من أن نفكّر فيه ، وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارىء وليتبصر الناظر ، فإنه على سخافته قد أضلّ ، وعلى ركاكته قد أزلّ ، وميدان الجهل واسع !ومن نظر فيما نقلناه عنه ، وفهم موضع جهله ، كان جديراً أن يحمد اللهعلى ما رزقه من فهم وآتاه من علم »[2] .

وبعد فإني لا أعتقد أن أي منصف عنده أدنى قدر من معرفة يرى كلام مسيلمة هذا إلا عده ضرباً من السفه والتهافت ، فهو كلام ساقط لا وزن له ولا قيمة ، خالٍ من الفائدة ، سقيم اللفظ ، بغيض التكلّف ، كمُا قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما سمع مثل هذا الكلام من قوم مسيلمة : « ويحكم » . إن مثل هذا الكلام لا يصدر عن إلّ أي عن إلٰه .

ولقد أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى البحرين ، فقابل مسيلمة حينئذ في طريقه ، فقال له : إن محمداً أرسل في جسيم الأمور ، وأرسلت في المحقّرات ، فقال ابن العاص : اعرض علي الذي تقول : فقال الكذاب : « يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقّي فإنك نعم ما

---

(١) بيان إعجاز القرآن ـ للخطابي ـ (٦٧) .

(٢) إعجاز القرآن ـ للباقلاني ـ الطبعة الثالثة (٣٠٤) .

تنقّين ، لا وارداً تنفّرين ، ولا ماء تكدّرين »[1] .

وبعد ، فهل يخالج أحداً الشك في ضلال هذا الدعي وتهافت برهانه ودليله !

فأية بلاغة في هذا الكلام ؟! وأية حكمة فيه ؟!

وهل يتوهم ذو لب أن فيه معارضة للقرآن أو مباراة له على وجه من الوجوه ؟

كيف وقد صرح الكذاب وهو أعلم بنفسه وبمستوى دعوته وأقواله أنه أرسل في المحقرات ، وليس أحقر ولا أقل مما صدر منه .

ولولا العصبيّة القبليّة والحميّة الجاهلية الهوجاء لما تبعه أحد من قومه ، فإنه لا يشتبه على عاقل سخفُ كلامه غير أنهم أرادوا بمتابعته منافسة قريش في زعامة العرب حتى قالوا : « كذاب اليمامة أحب إلينا من صادق مضر » .

---

(١) بيان إعجاز القرآن - للإمام الخطابي - الطبعة الثالثة تحقيق محمد خلف الله ، د . محمد زغلول سلام ص (٥٦) الناشر دار المعارف بمصر .

المتنبي ودعوى معارضته للقرآن

هذا وقد نسب إلى أمير الشعراء في عصره أحمد بن الحسين المتنبي معارضة القرآن بمائة وأربع عشرة عبرة ، ولم يبق منها إلا قوله : « والنجم السيّار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، امض على سنّتك ، واقتف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه ، وضل عن سبيله »[1] .

وكان المتنبي إذا استوعب في مجلس سيف الدولة ، يذكر له هذا القرآن وأمثاله ، مما كان يُحكى عنه فينكره ويجحده .

وقيل : «إن المتنبي نظر في المصحف ، فدخل عليه بعض أصحابه ، فأنكر نظره فيه لما كان عليه من سوء اعتقاده . فقال : إن هذا المكي على فصاحته كان مفحماً ، وربما اعتقد أن الفصاحة في الشعر أمكن وأبلغ »[2] .

والحقيقة أن المتنبي كان أعجوبة الزمان ، ولقد رفع نفسه عن معاصريه معتزاً أشد الاعتزاز بشخصه .

لقد عاش المتنبي يتغنّى بالعروبة ويتمثّل سجاياها وأمجادها ، فاندفع ثائراً متبرماً ساخطاً ضدّ الظلم والجور الذي كان يلقاه العرب في ظل تسلّط العجم .

وتشاء الأقدار ويزج به في السجن في حمص ليمكث فيه سنتين ، ثم يخرج من السجن وما تكاد تهدأ تلك النار المشتعلة بين حنايا صدره في ظلّ أمير حلب سيف الدولة الحمداني لم تكد تهدأ ثائرته حتى يُبتلى بخصوم من أقزام الرجال حاولوا النيلَ منه ومن كرامته ، ودسوا له عند سيف الدولة ، ورموه بالزندقة والإلحاد وادعاء النبوة مشوّهين سمعته ، ولكنه دافع عن نفسه دفاعاً قوياً لم يدع فيه مجالاً لخصومه ومناوئيه .

---

(١) المتنبي في آثار الدارسين - د . عبد الله الجبوري - منشورات وزارة الثقافة العراقية ١٩٧٨ م (١٢) .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (١٥٥) .

ولعله من المناسب هنا ذكر بعض ما قيل عن مدى التزام المتنبي بدينه ، ودفع الأقوال التي دعت البعض إلى اتهامه بادعاء النبوة .

فالأستاذ علي أدهم يقول : « وقد كانت العاطفة الدينيّة عند المتنبي ضعيفة في جميع أدوار حياته ، ففي ريعان شبابه يقول :

أيَّ محلٍّ أرتقي | أيَّ عظيم اتقَّي
وكلُّ ما خلَق الله | وما لم يَخْلُقِ
محتَقَرٌ في همَّتي | كشعرةٍ في مَفْرِقي

وفي هذه الأبيات يمتزج الطموح المتطرف وفرط الثقة بالنفس باحتقار الخليقة بأسرها ، وهي تروى عن شعور رجل أجال بصره فلم ير شيئاً جديراً بإجلاله ، خليقاً بآماله وطموحات نفسه »[1] .

ولكن هذا ليس مسوّغاً لاتهامه بالكفر والإلحاد ، بل إنه دليل بيّن على شعوره بالمرارة والألم القاتل من المحيط الفاسد الذي يحيط به .

والأستاذ عبد الرحمن صدقي يقول : « فاستمع إليه يصف مقامه في الناس وإرباءه على الأكفاء ، وتميزه عن النظراء بما يجعله صنو الأنبياء :

ما مُقَامي بأرض نَخْلَةَ إلا | كمقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ
أنا في أمّةٍ تَدَاركها الله بي | غريبٌ كصالحٍ في ثَمودِ[2]

أقول : وليس في هذا تشبه بالأنبياء ، ولا ادعاء أنه صنو الأنبياء ، فهو لم يشبه نفسه بالمسيح عليه السلام ، وإنما شبّه إقامته بين الحاقدين والحاسدين له بإقامة المسيح بين أشرار الناس اليهود ، بجامع إقامة الخير بين شرار الناس ، (وهذا لا كفر فيه) .

وفي البيت الثاني يندب حظّه العاثر في كونه يعيش غريباً بين الناس ، فهو عبقري فذّ يعيش بين الجهال وأنصافهم ، ولا يسمع منهم إلا زعاف الأفاعي وسم الثعابين ، وربما كان الجهال خيراً من أنصافهم ، وشعوره بالغربة بين الأشرار شعور رجل منصف ومن الظلم البيّن أن يقال فيه غير

---

(١) من كتاب أبو الطيب المتنبي : حياته وشعره ـ للأستاذ علي أدهم ، مقالة تحت عنوان « هل كان المتنبي متديناً » ص ٩٠ .

(٢) من كتاب أبو الطيب المتنبي حياته وشعره المرجع السابق للأستاذ عبد الرحمن صدقي مقالة تحت عنوان « مرض نفسي » ص ٦٢ .

ذلك .

وهو في هذا البيت يشبه غربته بين أمة جاهلة بغربة صالح عليه السلام بين قومه ثمود .

ووجه الشبه غربة رجل مصلح ذكي أبي بين قوم كلهم جحود وغباء .

أما عن معارضة القرآن ، فهذه لم تثبت عن المتنبي حتى عندما قيل له : على من تنبأت ؟

قال : على الشعراء . قيل له : فإن لكل نبي معجزة ، فما هي معجزتك ؟ قال : معجزتي هذا البيت :

وِمنْ نكدِ الدُّنيا على المرءِ أن يَرَى   عَـدُوّاً لـه مـا مِـنْ صـداقَتِـهِ بُـدُّ

وهذا ليس دليلاً على ادعائه النبوة ، وإنما هو لون من التظرف والفكاهة ، علاوة على أن طموح الرجل قد شجع تكاثر الحساد من حوله ، ولا يستبعد أن يكون هناك من دسّ عليه مثل هذا القول ، وإلا فهو أذكى من أن يفكر في لمس الثريا ومعارضة القرآن .

لقد ظلّ المتنبي الشغل الشاغل لكثير من الأدباء والشعراء بحثاً واستقراء واحتذاء ، هذا الشاعر الأبي الذي رفض بعزة نفس وإصرار إلا أن يعيش ويموت وهو يدافع عن أمجاد أمته العربية مكرساً كل قواه لهذا ، متنقلاً في سبيل هذه الأمنية بين البوادي والحضر ، وهو إذ لا يتمكن من تحقيق حلمه هذا إلا أنه يعود إلى مسقط رأسه الكوفة ، وهو يحمل بين جنبيه نفساً تفيض بالعزّة والكرامة ، وتعتصر في نفس الوقت ألماً على رغبة لم تتحقق[1] .

---

(١) كان المتنبي يمنّي النفس بولاية يسترد بها مجد العرب وتراثهم الغابر ، يصف هذا الثعالبي فيقول : « وما زال في بُرد صباه إلى أن أخلقَ بردُ شبابه ، وتضاعفت عقود عمره يدورُ حبّ الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه ، في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف » .

يتيمة الدهر ـ للثعالبي ـ الجزء الأول ـ الطبعة الأولى (١٣) ١٩٧٩ م .

بيد أن هذه الأمنية لم تتحقّق للمتنبي ، فلم يكن الحال في مصر وفي بلاط كافور بأحسن منه في بلاط سيف الدولة . . وهكذا حتى وافته المنية على يد فاتك الأسدي =

وهنا يصطدم بفاتك الأسدي ، ويقتل أبو الطيب المتنبي ، وتطوى صفحة من صفحات الإباء والشمم عن شاعرنا الكبير أبي الطيب المتنبي(الذي ملأ الدنيا وشغل الناس) .

= رحمه الله .

هذا وقد ولد المتنبي كما يذكر المؤرخون بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ في محلة تعرف بكندة بها ثلاثة آلاف بيت من بين رواء ونساج ، واختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً ، فنشأ في خير حاضرة وقال الشعر صبياً .

انظر الواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الأصفهاني (٦) .

المعري في دعوى إلحاده ومعارضته للقرآن

أما فيلسوف الشعراء أحمد بن سليمان المعري فقد قيل عنه مثل ما قيل عن المتنبي ، قيل إنه عارض القرآن في كتابه الفصول والغايات ، فقال : « أقسم بخالق الخيلِ والريح الهابة بليلٍ . ما بين الشرط ومطالع سُهَيل . إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف الذيل . وإياك ومدارج السيل . وعليك التوبة من قبيل تنج وما إخا لك بناج »[1] .

وقد قيل له : إن هذا كلام جيد وليس عليه طلاوة القرآن ، فقال : حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمائة[2] ، وعند ذلك انظروا كيف يكون ؟!

ولعل قوله هذا من أبرع الأكاذيب على اختلاف العصور ومر الدهور . .

وفي عقيدة أبي العلاء خلط كثير ، وكل ذلك نتيجة الظروف التي عاشها أبو العلاء وإغراقه في الفلسفة التي أفسدت عليه كثيراً وجعلته يعيش مضطرباً ، إذ كثر في عصره الزنادقة والملحدون وأصحاب النحل الفاسدة والأهواء المضللة .

وفي ظل هذا كله تعثرت خطوات أبي العلاء ، فتارة ينحرف وتارة يعتدل ، ومرة يهتدي وأخرى يضلّ ، كل هذا لأنه نزع منزع الفلاسفة في الاحتكام إلى العقل المجرّد وحده دون أن يدعمه بسلطان من قوى الحقّ المنزّل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

يقول الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله : « وقد رأيت للمعرّي كتاباً سماه : « الفصول والغايات » يعارض به السور والآيات ، وهو كلام في

---

(١) الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ـ للمعري ـ ضبطه وفسر غريبه محمود حسن زناتي ـ الجزء الأول ـ التوزيع والنشر المكتب التجاري للطباعة ـ بيروت (٢٥٣/ ٢٥٤) .

(٢) ويعني بالأربعمائة : الوقت الذي عاشته الدعوة الإسلامية حتى عصره في القرن الرابع الهجري .

نهاية الركاكة والبرودة ، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته . . » .

ثم يقول : « وكان ظاهر أمره يدلّ على أنه يميل إلى مذهب البراهمة ، فإنهم لا يرون ذبح الحيوان ، ويجحدون الرسل » .

والواقع أن الذين رموا أبا العلاء بالزندقة والإلحاد هم صادقون ، لأنهم رأوا جانباً واحداً من شخصيته المزدوجة ، ولم ينظروا إلى الجانب الآخر .

فمن قال : إن أبا العَلاء ملحد وكافر فقد صدق ، لأن حكمه حينئذ واقع على إحدى شخصيتي أبي العلاء اللتين تعيشان في كيانه ، غير ملتفت إلى ابي العلاء الآخر الذي يعيش في كيانه أيضاً .

ومن قال : إن أبا العلاء مؤمن أوثق الإيمان بالله وبرسله وبكتبه ، وكل ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، فقد صدق ، لأن حكمه واقع على الشخصية الأخرى من أبي العلاء .

هذا أبو العلاء يقول :

ضَحكْنا وكان الضحْكُ منّا سفاهةً وَحُـقَّ لسكّـانِ البريَّـةِ أن يَبْكُـوا

تُحَطِّمُنـا الأيـامُ حتّـى كـأنّنـا زجاجٌ ولكـنْ لا يُعـادُ لَنَا سبْكُ

فهذه زندقة وإلحاد ظاهران ، ثم يعود ليقول :

خُلِقَـتْ أمّـةٌ للبقـاءِ فَضَلَّـتْ أمّـةٌ يحسبُـونَهُـمْ للنَّفَـادِ

إنّمـا يُنْقَلُـونَ مـن دارِ أعمـا لِ إلى دارِ شِقْـوةٍ أو رَشَـادِ

حقّاً إنها شخصية مضطربة أشد الاضطراب ، ففي الوقت الذي ينكر فيه البعث في بيتيه السابقين يعود لإثباته في بيتَيه اللاحقين .

على أنه قد يدافع عن أبي العلاء في بيتيه الأولين بأنه لا يقصد إنكار البعث بعد الموت ، وإنما يقصد أن عوامل الهدم للإنسان في حياته قد تقضي على معنوياته نهائياً ، كالزجاج إذا تحطّم لا يمكن أن يعود كما كان .

وهو الذي يقول :

في الـلاذقيـةِ فتنـةٌ مـا بينَ أحمـد والمسيـحْ

كـلٌّ يعـزِّز دينَـهُ يـاليـتَ شِعْـري مـاالصحيـحْ

ألا يعلم المعري ما الصحيح وهو الباحث المطلع ، ولكنه الهوى

والعياذ بالله ، وقد يكون له في تقديمه الشكّ على اليقين ما يدفعه إلى مثل هذا ، فإذا ما اقتنع ، وهذا ما حصل منه في آخر حياته ، عاد إلى اليقين فقال تلك الأبيات التي تشهد بإيمانه والتي تعجّ بها كتبه . .

فالأقوال السابقة وأمثالها كانت داعية إلى أن يتّهمه بعضهم ، ليس بالزندقة فحسب ، بل إنه قد تجرّأ على كتاب الله وحاول معارضة القرآن الكريم .

وهناك في الاتجاه المقابل ما يبعد شبهة الكفر والزندقة عن أبي العلاء ، ومن أبياته التي تدلّ على إيمانه قوله :

إنْ غَفَــر الله فــلا أســفٌ   على فــائــتٍ مــن تنعُّمِهَــا

وهو إذ يصرح بطلب المغفرة ويبين عن اعتقاده يقول :

وليسَ اعتقـادي خُلـودَ النجـومِ   ولا مَــذْهبــي قِــدَمَ العــالم

ويقول مخاطباً الليالي :

خَلّصِيني مـن ضنـكِ مـا أنـا فيـه   واطْــرَحِينــي لُمنْكَــرٍ ونكير

هذا ومما ينبغي الإشارة إليه أن من الواجب على الباحث قبل اتهامه لأبي العلاء بالزندقة والمروق عن الدين أن يستقريء أشعاره استقراء دقيقاً حتى لا يتورط في الخطأ ، وبخاصة أن المسألة تمسّ دين الرجل وعقيدته .

ولا نرتاب في أنه لو تَرّيث هؤلاء الباحثون بعض التريّث وأعادوا النظر في أشعار أبي العلاء لعدلوا عن تهمتهم ، أو على الأقل لخفّفوا من حدّتها ولم يصوغوها صياغة الجزم واليقين .

ويوضح ذلك من بعض الوجوه أن نراهم يتمثلون له في الهجوم على الديانات بقوله :

أمــورٌ تُستَخــفُّ بهــا حُلــومٌ   ومــا يــدري الفتــى لِمَــنِ الثُّبُــورُ

كتــابُ محمــدٍ وكتــابُ مــوســى   وإنجيــلُ ابــنِ مــريــم والــزَّبُــورُ

وكأنهم يظنون أن البيت الثاني تفسير للأمور التي تستخف بها العقول في البيت الأول ، وهو في حقيقته جزء معلّق ببقية تالية ، أو هو مبتدأ خبره في البيت التالي له الذي يجري على هذا النمط :

نَهــتْ أممــاً فمــا قَبِلــت وبــارَتْ   نَصيحَتُهــا فكــلُّ القــومِ بُــورُ

والبيتان الثاني والثالث هما موضع استخفاف العقول ، أو بعبارة أدق انصراف الناس عن نصائح هذه الكتب السماوية وما تحمل من إرشاد مما يعرضهم للهلاك والدمار هو موضع الاستخفاف ، فقد ردوا رسالات الرسل وأوامرها ونواهيها ، وسجّل عليهم أبو العلاء بذلك البوار والهلاك ، وليس في هذا هجوم على الديانات ولا على الرسل والنبوات ، وإنما هو هجوم على الجاحدين المعاندين للرسل من أهل الضلال »[1] ..

أما ما أثير من أنه قد حاول معارضة المعري للقرآن : فإني أستبعد أشد الاستبعاد معارضة المعري للقرآن وحتى مجرّد التفكير فيه ، وذلك لأمور منها :

كثرة حساد المعري حتى إن أحدهم وهو ياقوت يقول : « كان المعرّي حماراً لا يفقه شيئاً »[2] .

وقد شهد المعري للقرآن يقول : « وأجمعَ ملحد ومهتد ، وناكبٌ عن المَحجَّة ومقتدٍ ، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالإعجاز ، ولقي عدوه بالأرجاز ، ما حذا على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو من القصيد الموزون ، ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ، وجاء كالشمس اللائحة ، لو فهمه الهضب لتصدّع ، وإن الآية منه أو بعض الآية لتعرض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء في جنح غسق ، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق ﴿فتَباركَ الله أحسنُ الخالِقين﴾ »[3] .

وكفى بهذا حجر يرمي به أبو العلاء في فم المتخرصين عليه ، والمتقدمين به في معركة لم يخضها ولم تنزع نفسه إلى الدخول فيها أبداً . .

على أن المعري أبصر بنفسه وبالكلام الذي يعارضه ، وهو أعجز من معارضة القرآن .

هذا وللعلامة كمال الدين بن العديم رسالة تسمى « رفع التجرّي عن

---

(١) البحث الأدبي ـ د . شوقي ضيف ـ الطبعة الثانية (٤٣) .

(٢) معجم الأدباء ـ لياقوت الحموي ـ الجزء الثالث ـ الطبعة الثانية ١٩٢٢ م (١٦٩) .

(٣) رسالة الغفران ـ لأبي العلاء المعري ـ الطبعة الأولى ١٣٢١ هـ ـ تصحيح إبراهيم اليازجي (١٥٨ ـ ١٥٩) .

المعرّي » ذكر فيها محاسنه وفضائله وحفظه وقوة ذاكرته وأن أشعار الكفر ونحوها منتحلة عليه ، وجعله من أصحاب الكرامات وخوارق العادات .

ويقول : «ومكث في محبسه خمسين عاماً ، ألف فيها المؤلفات ، وكان ذكياً خارق الذكاء حتى إنه كان يلعب بالنرد والشطرنج وكان مرهف الحس إرهافاً شديداً مع ذاكرة حاضرة ، حتى قال عن نفسه « ما سمعت شيئاً إلا حفظته ، وما حفظت شيئاً فنسيته »[1] .

روي أن أحد تلاميذه دخل عليه في وقت خلوة بغير علم ، فسمعه ينشد :

كـم بُـودرتْ غـادةٌ كعـوبُ ... وعُمِّـرَتْ أُمُّهـا العجـوزُ

أحـرزهـا الـوالـدان خـوفـاً ... والقبرُ حِـرْزٌ لهـا حـريـزُ

يجـوزُ أن تبطـىء المنـايـا ... والخُلْـدُ في الـدهـر لا يَجُـوزُ

ثم تأوه مرات وتلا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (هود : ١٠٣ ، ١٠٥) .

ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح وجهه على الأرض زماناً ، ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال : سبحان من تكلّم بهذا في القدم ، سبحان من هذا كلامه .

ثم صبرت ساعة ، ثم سلمت عليه فردّ علي وقال : متى أتيت ؟

فقلت : الساعة ، ثم قلت : يا سيدي أرى في وجهك أثر غيظ ؟

فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق وتلوت شيئاً من كلام الخالق فلحقني ما ترى[2] .

---

(١) رفع التجري عن المعري ـ لكمال الدين بن العديم .

(٢) من كتاب أبي العلاء رهين المحبسين بين الإيمان والإلحاد ـ لعبد الكريم الخطيب ـ الطبعة الأولى (١٢٢) .

بودرت : أي : عجل الله بموتها ، والغادة الحسناء والكاعب : التي برز نهداها .

أبو العلاء المعري هو أحمد بن سليمان التنوخي المعري شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ولد بمعرة النعمان من أرض الشام سنة ٣٦٣ هـ ، وأصيب بالعمى =

وكيفما كان حال هذه القصة فإنها تصوّر سلطان البيان القرآني على النفوس وفيها بصيص من نور ينعكس على حياة أبي العلاء المعري .

= وهوصغير في الرابعة من عمره ، سافر وارتحل إلى عدد من البلاد واتصل بالفلاسفة الذين أثروا على طريقة تفكيره تأثيراً واضحاً ، وانعكس على حياته فيما بعد ، وتصرفاته فعاش مضطرب التفكير مع تشاؤم ، وسمى نفسه رهين المحبسين (البيت ، والعمى) للزومه إياهما .

قال الشعر وهو في الحادية عشرة من عمره ، يذكر المؤرخون أن تآليفه أرْبَت على مائتي مجلد ، وأن له من الشعر أكثر من مائة ألف بيت فقد معظمها في الحملات الصليبية على بلاد الشام ، على أن ما بين أيدينا من كتبه يدلّ بحق على أنه كان خزانة علم لا تدرك غاية لما فيها .

وملأت شهرته الآفاق ، فتوجهت إلى شيخ المعرة كل الأنظار ، فقصده الطلاب وكاتبه من لم يصل إليه من علماء ووزراء وذوي الرتب .

لبث أبو العلاء على تلك الحال مدة غير قصيرة حتى عراه المرض ولم يمهله أكثر من ثلاثة أيام ، فتوفى نهار الجمعة سنة ٤٤٩ هـ الثالث من شهر ربيع الأول ، فضجت البلاد بتلك الفاجعة ، ووقف على قبره لا أقل من ثمانين شاعراً يرثونه ويودعون فيه (فيلسوف الشعر) .

المستشرقون والقرآن

ومن العجيب حقاً ، والعجائب جمة ، أن نرى رجلاً غير ضليع بالعلوم والمعارف وهو يتصدّى للحكم عليها ؟!

ولكن الأعجب والأدهى أن نرى أعجمياً لا يكاد ينفك عن عجمته ، ولم ينطلق لسانه في العربية انطلاق العاديين من أهلها ولم يزل محكوماً للعجمة في نطقه وفهمه ، ومع ذلك يحاول هذا الدعي أن يتصدّر للحكم وإبداء الرأي في كتاب الله الكريم .

ذلك هو المستشرق اليهودي المجري الأصل « اجنتس جولد تسيهر » يقول هذا اليهودي في تنطع : « لكن حميّة النبوة وحدتها أخذت في عظات المدينة والوحي الذي جاء بها تهدأ رويداً رويداً ، حيث أخذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفة شاحبة ، كما أخذ الوحي نفسه ينزل إلى مستوى أقل بحكم ما كان يعالجه من موضوعات ومسائل ، حتى لقد صار أحياناً في مستوى النثر العادي »[1] .

ويقول أيضاً : « ويجب ألا يفوتنا الإشارة إلى أن القوة الخطابية (في القرآن) أخذت تفتر حماستها ، برغم استعمال السجع في أجزاء القرآن التي نزلت بالمدينة ، كما في الأجزاء الأخرى المكية »[2] .

ثم يقول : « لقد كانت السور الأولى في النزول على الشكل الذي تعوّد الكهّان القدماء وضع نبوّاتهم فيه ، ولو جاء في شكلٍ آخر لما رضي أي عربي أن يرى فيه قرآناً موحى من الله ، على أن محمداً قد أكّد أن جميع ما جاء به من الوحي الإلٰهي »[3] .

وخلاصة قول تسيهر :

١ ـ إن القرآن قد ضعفت بلاغته حين أخذ ينزل بالمدينة ، وهو ما عناه بقوله :

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام ـ لجولد تسيهر ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ م ـ (١٤) .

(٢) نفس المرجع ص (١٥) .

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام ـ لجولد تسيهر ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ ـ (١٥) .

« حيث أخذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفة شاحبة » .

٢ ـ إن القرآن الكريم قد نزل على سجعات الكهان ، وذلك ليوافق هوى العرب بمكّة وهو ما عناه حين يقول : « ولو جاء على شكل آخر لما رضي أي عربي أن يرى فيه قرآناً موحى من الله » .

وهو يريد أن يصل بمقالته هذه إلى نفي الإعجاز عن القرآن وهو ما رمى إليه بقوله : « لقد قرَر محمد نفسه أن القرآن عمل معجز لا يمكن الإتيان بمثله »[1] .

لقد قرر محمد بنفسه أن القرآن عمل معجز ، أي : أن القرآن لا إعجاز فيه وليس من كلام الله عز وجل .

لماذا ؟ لأن محمداً هو الذي قرر أنه معجز وأنه لا يمكن الإتيان بمثله .

هذا هو تسيهر وهؤلاء هم اليهود لم يسلم من افتراءاتهم أنبياؤهم ! ولا كتبهم ! ولا الناس من حولهم !

ولتفنيد ما جاء به تسيهر نقول : أما من حيث الإعجاز في القرآن فلقد سلم به أرباب اللسن وصناع الكلام والذين هم أقدر على التذوق والمعرفة بهذا القول منه وممن هم على شاكلته .

وأما من حيث أن البلاغة في هذا الوحي أصبحت في المدينة ضعيفة شاحبة فلا أدري كيف أصبحت ضعيفة شاحبة وهي التي جاءت تحمل في طياتها ما يقض مضاجع الكافرين ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء : ٥٦) .

وليس مجيئها على هذا النمط من مراعاة مقتضى الحال إلا دليلاً واضحاً على صدق بلاغتها ، فإن مراعاة مقتضى الحال من أخصّ معاني البلاغة .

ثم فريضة الجهاد إنما شرعت في المدينة ، ولقد حملت هذه الآيات من القوة البيانية الملهبة للحماسة ما حل أصحاب رسول الله ﷺ على بذل

---

(١) العقيدة والشريعة ـ لجولد تيسهر ـ الطبعة الأولى (١٥) .

أموالهم ومهجهم رخيصة في سبيل الله .

وأما قوله : « لقد كانت السور الأولى في النزول على الشكل الذي تعود الكهان القدماء وضع نبواتهم فيه » .

وهنا يبرز سؤال : هل راعى منزل القرآن أن ينزله على حسب صنعة الكهنة في حديثهم ليفوز برضاء العرب ؟!

وهل نزل القرآن للعرب أم للعالم أجمع ؟!

إن القرآن يزري على الكهنة سجعهم وكفرهم ، والرسول ﷺ يقول : « أسجعاً كسجع الكهان ؟ »[1] ، ومنزل القرآن يقول : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (الطور : ٢٩) .

وقد نص سبحانه على تميز القرآن على ما سواه من كلام ، ككلام الكهنة والشعراء فقال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الحاقة : ٣٨ ، ٤٣) .

أيصح بعد هذا كله أن يقال : « إن السور الأولى في النزول على الشكل الذي تعوده الكهان » ؟

إن الذي متع رسوله برجاحة العقل وأنعم عليه بالنبوة وأيده بالذكر الحكيم وقواطع الآيات ليس كاهناً يلقي نبوءات تذهب أدراج الرياح .

إن المباينة بين القرآن وكلام الكهنة ظاهرة ، فمعانيه تنافي معانيهم ، وهدايته تنسف ضلالتهم ! وأسلوبه الفذ لا يدانيه بحال من الأحوال أسلوبهم .

وأحوال رسول الله ﷺ وخصاله على النقيض من أحوالهم وخصالهم وذاك كله واضح جلي لا يتوقف على تأمل قطعاً[2] .

وأين تسيهر من قول عتبة بن ربيعة وهو يربأ بنفسه أن ينسب القرآن إلى الشعر أو السحر أو الكهانة يقول : « إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة .

---

(١) العقيدة والشريعة ـ لتسيهر (١٥) .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين الجزء الرابع (٤٠٢) .

يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم »[1] .

ولندع عتبة بن ربيعة ونسمع إلى المستشرق الفرنسي الدكتور مادريش وقد كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية بترجمة اثنتين وستين سورة من السور الطوال المئين والمفصل التي لا تكرار فيها ، ففعل وقال في مقدمة ترجمته الصادرة سنة ١٩٢٦ م :

« أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جلّ وعلا ، فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلٰهياً ، والحقّ الواقع أن أكثر الكتاب ارتياباً وشكاً قد خضعوا لسلطان تأثيره . . . وأن سلطانه على الثلاثمائة الملايين من المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل أجانب (المبشرين) يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن .

ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو كان نثراً جد طريف ، يفيض جزالة في اتساق نسق ، متجانساً مسجعاً لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية ، لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع (الذي لم يسمع بمثله) بلغة أخرى ، وخاصة اللغة الفرنسية الضيقة (التي لا تتسع للتعبير عن الشعور) .

وزد على ذلك أن اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية ، وما استعملت قط للتعبير عن الألوهية[2] » .

---

(١) سيرة النبي لابن هشام ـ تصحيح وتعليق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد (٣١٤) ـ الجزء الأول ـ دار الفكر ـ بيروت .

(٢) الوحي المحمدي ـ لمحمد رشيد رضا ـ الطبعة السادسة (٢٥ ـ ٢٦) ـ المكتب الاسلامي .

ولهذا الدكتور الفرنسي نظائر كثر ممن أنصفوا وأنطق الله الحق على لسانهم ، نذكر منهم الأديب اللبناني المعاصر مارون عبود (الذي يشيد بالقرآن ويعلن اعتقاده بإعجاز القرآن ، ومحبته للنبي ﷺ كما أعلن عن تسمية ولده محمداً) .

أيضاً الأديب إبراهيم اليازجي أبلغ كاتب أخرجته المسيحية لا يملك أن يدفع =

وأخيرا فهل بعد قرار فحول القوم وعقلائهم من مسلمين وكتابيين ومشركين قديماً وحديثاً ينخدع أحد بقول تسيهر .

إن هذا اليهودي لم يقصد من كلامه سوى التشكيك والإضلال ، ولم يقصد سوى زعزعة عقيدة المسلمين ، ولكنه هجوم أهوج شرس ينم عن حقد دفين وضحالة في الفكر ، وليست هذه صفات الباحث النزيه وإنما هي الركاكة والتجاوز والإسراف في الباطل ، وهذا من طبائع اليهود .

= عن نفسه عقيدة إعجاز القرآن .

والأديب الشاعر نقولا حنا قد تلا القرآن فجذبه إليه وشغل قلبه وفؤاده ، وقذف في أعماق فكره يقيناً راسخاً بأن القرآن هو كتاب الله المعجز ، وأنه يسمو على سائر المعجزات فهو معجزة إلٰهية خالدة ، وهكذا أعلن هذا الشاعر إسلامه بأسلوب علمي بارع يقول : « قرأت القرآن فأذهلني ، وتعمّقت به ففتنني ، ثم أعدت القراءة فآمنت .. آمنت بالقرآن الإلٰهي العظيم ، وبالرسول من حمله .. النبي العربي الكريم ، أما الله فمن نصرانيتي ورثت إيماني به وبالفرقان عظم هذا الإيمان .. وكيف لا أومن ومعجزة القرآن بين يدي أنظرها وأحسها كل حين .. هي معجزة لا كبقية المعجزات .. معجزة إلٰهية تدل بنفسها عن نفسها ، وليست بحاجة لمن يحدث عنها أو يبشر بها » . من وحي القرآن ـ لنقولا حنا .

والحديث عن براءة القرآن عن الشعر أمر يطول شرحه ، وقد تصدى له جهابذة أهل العلم والنظر وفندوه .

ونحن تكفينا شهادة الوليد بن المغيرة هنا والحق ما شهدت به الأعداء : « لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .. والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناة » سيرة النبي ﷺ لابن هشام .

فالقرآن ليس بالرجز المزخرف ، ولا الكلام المبني على خيالات وأوهام واهية وصدق القائل : ﴿ وما هُوَ بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ﴾ [الحاقة : ٤١] .

وما يعرض للشعراء من خلط فالنبي ﷺ منه براء ، وصدق القائل : ﴿ وما علَّمْناه الشعرَ وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين ﴾ [يس : ٦٩] ، فما هذا الذي يتلوه النبي ﷺ إلا عظة وهداية وتذكيراً بالله سبحانه . وقرآناً واضحاً ساطعاً لا يلتبس به الشعر بحال من الأحوال .

وقال تعالى : ﴿ والشعراءُ يتبعُهم الغاوون * ألم تر أنَّهم في كلِّ وادٍ يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ ـ ٢٢٦] .

وإن أردت مزيد استفاضة في الموضوع فراجع (إعجاز القرآن) للإمام الباقلاني وثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

أما المستشرق الفرنسي بلاشير فيقول : « ويحس بالرسالة القرآنية إذن ، إنها تكون بالتحديد من وجه « ما » معجزة تجددت طوال دعوة محمد ﷺ ، ولا يلبث هذا المستشرق بعد ترديده لمزاعم قريش الذين سماهم (المعارضين المكيين) أن يقول عن القرآن : إنه أجمل أثر أدبي كان يمكن تصوره ، وقال : إن لهذه الميزة تأثيراً حتى على السامع الذي لا ينطق بالضاد (يقصد غير العرب وبخاصة الأوربيين) ».

ثم لا يلبث هذا الرجل أن يشبه القرآن في خبث شديد بالشعر الأصيل مستدلاً بالتلاوة والتجويد والموسيقى للمقاطع اللفظية والحركات ، واستعمال القوافي المنظومة أو المسجعة على حدّ تعبيره .

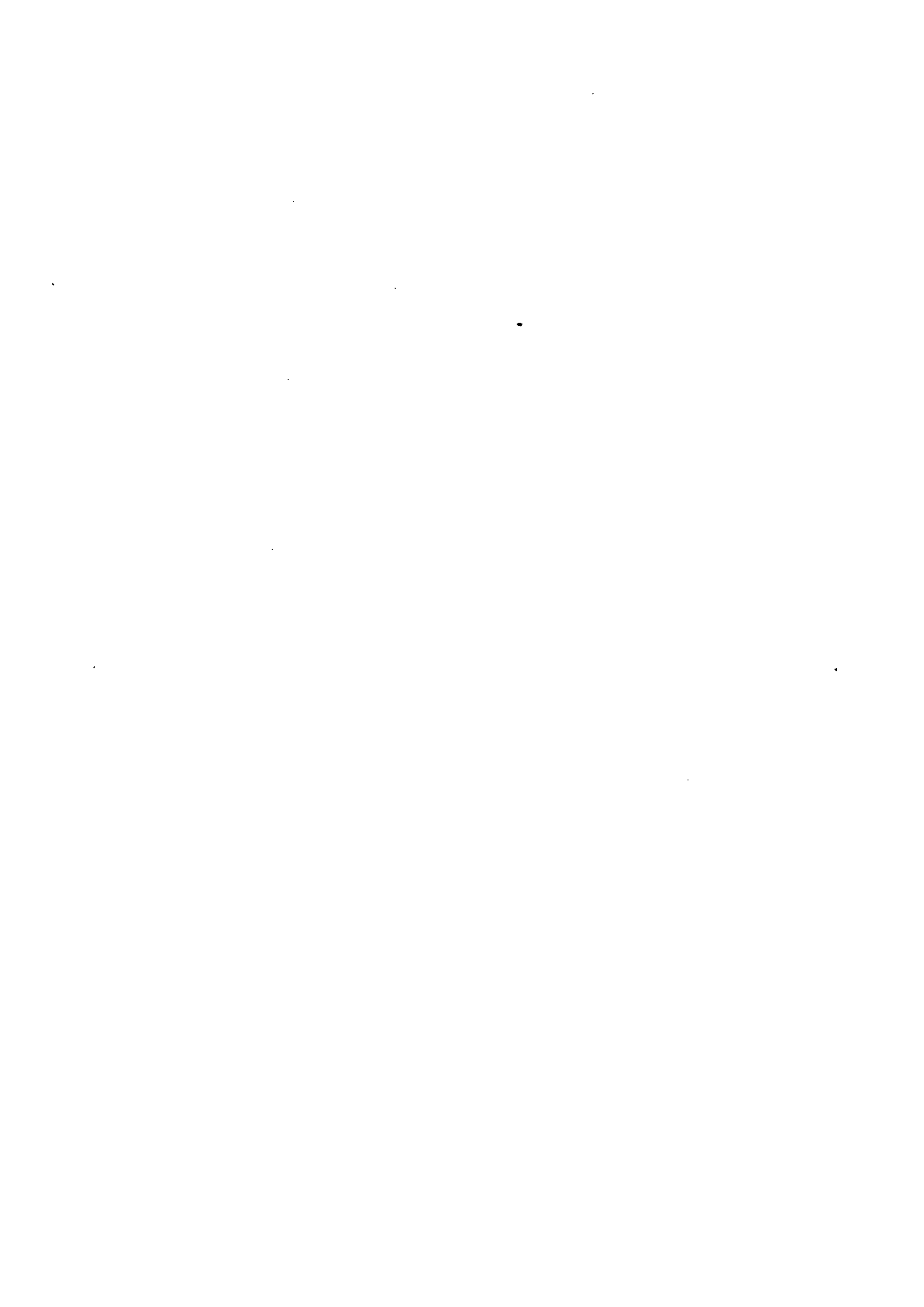
ثم يقول : « إن القرآن تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف » .

والواقع أن الرجل يبدي خلاف ما يضمر ، وتفوح من كلامه رائحة الخبث والتحامل على القرآن ونبي القرآن ، فهو يريد أن ينسب القرآن للشعر وهذا قد سبقه إليه أبو جهل والوليد بن المغيرة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان .

وهو يريد أن يخرج القرآن عن حيز الوحي إلى الإشادة به كتحفة أدبية . .

وهيهات أن تنفصل الهداية المعجزة عن البيان الرائع المعجز في كتاب الله رب العالمين .

الْخَاتِمَة



وبعد فلقد تجلى لنا من خلال تطوافنا مع كتاب الله ونحن نضع أيدينا على مناحي الإعجاز فيه أن هذا الكتاب قد بهر بإعجازه، وسما في بيانه، وتفرد في أسلوبه.

وكيف لا.. وهو كلام الله رب العالمين؟

أجل إنه معجز في أسلوبه، وفي هدايته، في جدله وحواره، في حكمه وأمثاله، في قصصه وتكراره، وفي كل ما أورده من وسائل التعبير وصور البيان.

وما أروع ما انفرد به هذا الأسلوب من آيات بينات وحجج ناصعات كانت دليلاً على الإعجاز الإلهي الذي أحاط بكل شيء علماً وأحسن كل شيء صنعاً..

ولقد أبنت من خلال تتبعي لمواطن الإعجاز في دراستي هذه أن إعجاز القرآن قد تجلى وبدا واضحاً في هدايته التي عبر عنها أسلوبه المعجز البديع.

ففي جانب الزمان كان للهداية القرآنية دورها من خلال دائرة الزمان بأكمله في ماضيه، وفي حاضره، وفي مستقبله.

وفي الجانب المكاني تجلّت صور الهداية القرآنية وهي تنبع من مواطنها وأمكنتها فتوحي بأحجامها وأشكالها ومساحاتها بما يمكن أن تعطيه من إيحاءات تفيض في النفوس فتثير فيها مختلف المشاعر والأحاسيس.

كما اتضح أيضاً دور الأسلوب القرآني ترغيباً وترهيباً في الهداية والتوجيه.

كذلك في الجانب الأخلاقي تبين دور الهداية المعجزة من

الناحية الاجتماعية والنفسية والمسؤولية التي تمتاز بها الجماعة المسلمة والفردية في إطار هذا التوجيه الأخلاقي البديع .

كما تجلت لنا صور الهداية أيضاً فيما طرقناه من بحوث حول جدل القرآن وأسلوب القسم والمثل فيه .

وما أروع ما انفردت به القصة القرآنية من نواح فنية وخصائص إبداعية كانت دليلاً ومظهراً على الإعجاز الإلٰهي وحجة ساطعة على الخلائق جمعاء .

أما عن تكرارها فلقد أبنت بأن مقتضى الحال هو الذي جعلها تدور بين التكرار وعدمه .

وأبنت عن سر تكرار الأحداث في القصة القرآنية بأنه طريق من طرق تأكيد المعنى وتثبيته في النفوس مع تلك المظاهر الرائعة والمتنوعة في التعبير القرآني التي فاقت كل مظاهر التعبير عند الناس مهما عظم مستواهم في الفصاحة والبيان .

والحق أن عرض القصة القرآنية بأكثر من أسلوب كان متفقاً كل الاتفاق مع مشارب الناس حتى يتذوق كلّ قارىء أو سامع لهذه القصة أو تلك حسبما يدركه ذوقه وحسب الاتجاه النفسي الذي يغلب عليه أو يتأثر به .

وتكرار المعنى الواحد بأساليب متعددة وبقوة فائقة لا تخمد ولا تضعف طريق من طرق الإعجاز ودليل على الإبداع الذي لا يسامى .

ومن حيث الوقائع في القصة فإنها لم تكن وليدة التصنّع والتعمّل ، وإنما هو تصوير حقيقي حتى لنحسّ بأن حذف حدث من أحداث القصة قد يخل بكيانها .

وفي هذا رد على من ادعى بأن الصنيع البلاغي للقرآن الذي يقوم على تخليص العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وأخبار

من معانيها التاريخية ، وجعلها صالحة كل الصلاحية لاستثارة العواطف والانفعالات حتى تكون العظة والعبرة .

هذا ولم يفتني أن أناقش دعوى المستشرقين وافتراءاتهم على كتاب الله ، وإثبات أن الهداية المعجزة لم تنفصل أبداً عن البيان الرائع في كتاب الله سبحانه .

ذلك الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

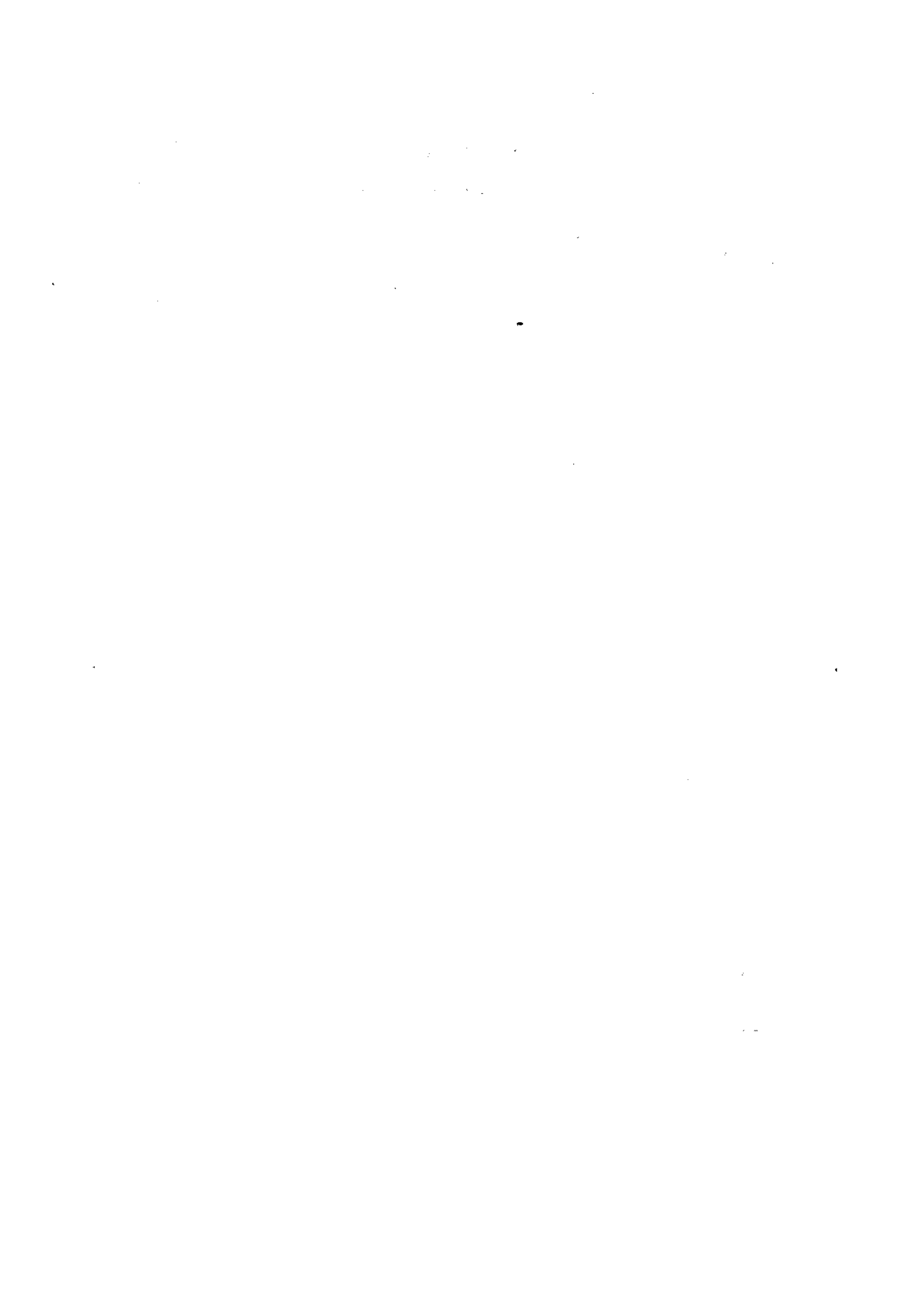
وبعد هذا العرض القائم على التحليل والمناقشة والاستنباط ، وهو أن جانب الهداية القرآنية مع الأسلوب البياني المبدع هما لبّ الإعجاز في القرآن الكريم ، وأنهما دليل باهر على أنه ليس في مقدور البشر أن يصلوا إلى قوّته البالغة وإعجازه الفريد .

ففرق بين ربّ خالق حكيم يدبر ويهدي إلى الحق في أروع بيان ، وبين مخلوق عاجز مهما أوتي من بلاغة الكلام وفصاحة المنطق وسمو البيان ، فإن فيه مع كل ذلك ضعف البشرية وعجزها التي تنم عن إنسان له نهاية في التفكير وغاية في الابتكار ومستوى محدود في القدرة على الإفصاح والبيان .

وصدق الله عز وجل حيث يقول : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

وصلى الله على صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه الأبرار والسادة الأخيار ما غنت الأطيار وتذوكرت الأذكار ، وسلم تسليماً كثيراً .

* * *



ثبت المصَادِر وَالمرَاجِع



أولاً : القرآن العظيم :

ثانياً : كتب التفاسير :

١ ـ جامع البيان في تفسير القرآن :

للإمام الطبري ـ الطبعة الأولى ـ المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق .

٢ ـ صفوة التفاسير :

للشيخ محمد بن علي الصابوني ـ الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ـ دار القرآن الكريم ـ بيروت .

٣ ـ في ظلال القرآن :

للشهيد سيد قطب ـ الطبعة العاشرة .

٤ ـ الكشاف « عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل »

لجار الله محمود بن عمر الزمخشري .

٥ ـ المنار :

لمحمد رشيد رضا ـ الطبعة الثالثة .

٦ ـ المنتخب في تفسير القرآن :

للشيخ محمد متولي الشعراوي ـ دار النصر للطباعة والنشر .

ثالثاً : كتب تبحث حول علوم التفسير :

٧ ـ حاشية الجمل على الجلالين .

٨ ـ منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه :

للدكتور مصطفى الصاوي الجويني .

٩ ـ منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير

لفهد عبد الرحمن الرومي ـ الطبعة الأولى ـ الناشر : مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

رابعا : كتب السنة :

١٠ ـ سنن ابن ماجه :
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ الناشر : دار إحياء التراث العربي .

١١ ـ سنن أبي داود :
الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ .

١٢ ـ سنن الترمذي :
الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ .

١٣ ـ سنن الدارمي :
الناشر : دار إحياء السنة النبوية .

١٤ ـ صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري :
ملتزم الطبع والنشر مصطفى البابي الحلبي بمصر طبعة ١٣٧٢ هـ .

١٥ ـ صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ .

١٦ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني :
الناشر : المكتب الإسلامي ـ بيروت .

خامساً : كتب تبحث حول فن الحديث :

١٧ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري :
لابن حجر العسقلاني .

سادساً : كتب السير والتاريخ :

١٨ ـ تهذيب سيرة ابن هشام :

تحقيق عبد السلام هارون .

١٩ ـ سيرة النبي ﷺ :

لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام ـ شرح الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة دار الفكر ـ بيروت .

٢٠ ـ الكامل في التاريخ :

لعمدة المؤرخين على ابن أبي الكرم بن عبد الكريم الشيباني المشهور بابن الأثير ـ الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ ـ دار الكتاب العربي بيروت .

سابعاً : كتب المعاجم :

٢١ ـ لسان العرب :

لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ـ الناشر : الدار المصرية للتأليف .

٢٢ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

لمحمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر ـ بيروت .

ثامناً ـ كتب التراجم :

٢٣ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة

للحافظ ابن حجر العسقلاني ـ تحقيق محمد سيد جاد الحق .

٢٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب

لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ـ الناشر : المكتب التجاري للطباعة ـ بيروت .

٢٥ ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين

الناشر : مكتبة المثنى ـ بيروت ١٩٥٥ م .

تاسعاً : كتب في القصة :

٢٦ ـ السرد القصصي في القرآن

لثروت أباظة ـ الناشر : دار النهضة ـ مصر .
٢٧ ـ الفن القصصي في القرآن :
د . محمد أحمد خلف الله ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م ـ الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية .

عاشراً : كتب بلاغية :
٢٨ ـ بيان إعجاز القرآن :
لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي ـ الطبعة الثالثة .
٢٩ ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية :
د . محمد حسين أبو موسى .
٣٠ ـ أسرار البلاغة :
لعبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق محمد رشيد رضا ـ طبعة ١٣١٩ هـ بمطبعة الترقي .
٣١ ـ إعجاز القرآن :
للإمام أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ـ تحقيق السيد احمد صقر ـ الطبعة الثالثة .
٣٢ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية :
لمصطفى صادق الرافعي ـ الطبعة الثامنة ـ الناشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت .
٣٣ ـ سر الفصاحة :
لابن سنان الخفاجي ـ تحقيق د . عبد الرازق أبو زيد ـ طبعة ١٩٧٦ م .
٣٤ ـ النكت في إعجاز القرآن :
لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ـ تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، د . محمد زغلول سلام ـ الطبعة الثالثة .

حادي عشر : كتب في علوم القرآن :
٣٥ ـ الإتقان في علوم القرآن :
للإمام الجلال السيوطي .
٣٦ ـ البرهان في علوم القرآن :
لبدر الدين الزركشي ـ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الثانية ـ دار المعرفة ـ بيروت .
٣٧ ـ التبيان في أقسام القرآن :
للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الناشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت .
٣٨ ـ التصوير الفني في القرآن :
للشهيد سيد قطب ـ الطبعة الثامنة ١٤٠٣ هـ .
٣٩ ـ التعبير الفني في القرآن :
للدكتور بكري شيخ أمين ـ الطبعة الثالثة .
٤٠ ـ دستور الأخلاق في القرآن :
للدكتور محمد عبد الله دراز ـ الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ .
٤١ ـ من علوم القرآن :
د . فؤاد علي رضا ـ الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .
٤٢ ـ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان :
لابن قيم الجوزية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ .
٤٣ ـ القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين :
للشيخ محمد الصادق عرجون ـ طبعة ١٣٨٦ هـ ـ الناشر : مكتبة الكليات الازهرية .
٤٤ ـ مباحث في علوم القرآن :
للشيخ مناع خليل القطان .
٤٥ ـ المدخل لدراسة القرآن :

للشيخ محمد أبو شهبة .
٤٦ ـ مشاهد القيامة في القرآن :
للشهيد سيد قطب ـ الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ ـ الناشر : دار الشروق .
٤٧ ـ المعجزة الكبرى القرآن :
للإمام محمد أبو زهرة ـ الناشر ـ دار الفكر العربي .
٤٨ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن :
للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ـ الطبعة الثالثة ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر .
٤٩ ـ من بلاغة القرآن :
للدكتور أحمد بدوي .
٥٠ ـ نظرات في القرآن :
للشيخ محمد الغزالي ـ الطبعة الخامسة .

ثاني عشر : كتب أدبية :
٥١ ـ البحث الأدبي :
د . شوقي ضيف ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر .
٥٢ ـ أبو الطيب المتنبي حياته وشعره :
بأقلام عدد من الأدباء ـ الناشر : المكتبة الحديثة للطباعة والنشر ـ بيروت .
٥٣ ـ أبو العلاء المعري رهين المحبسين بين الإيمان والإلحاد :
الطبعة الأولى ـ لعبد الكريم الخطيب .
٥٤ ـ الحيوان :
لعمرو بن بحر الجاحظ .
٥٥ ـ رسالة الغفران :
لابي العلاء المعري ـ تصحيح إبراهيم اليازجي ـ الطبعة الأولى

١٣٢١ هـ .
٥٦ ـ طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام :
لأنور الجندي ـ الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ .
٥٧ ـ الفصول والغايات :
لأبي العلاء المعري ـ ضبطه وفسر غريبه محمود حسن زناتي ـ الناشر : المكتب التجاري ـ بيروت .
٥٨ ـ المتنبي في آثار الدارسين :
للدكتور عبد الله الجبوري ـ من منشورات وزارة الثقافة العراقية ١٩٧٨ م .
٥٩ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :
لابن الأثير ـ تحقيق د . أحمد الحوفي ـ د . بدوي طبانة .
٦٠ ـ معجم الأدباء :
لياقوت الحموي ـ الطبعة الثانية ١٩٢٢ م .
٦١ ـ نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي :
د . عبد الحميد المسلوت ـ الناشر : دار القلم ـ بالقاهرة .
٦٢ ـ نقد كتاب في الشعر الجاهلي :
للأستاذ فريد وجدي .
٦٣ ـ نقض كتاب في الشعر الجاهلي :
للسيد محمد الخضر حسين ـ المكتبة العلمية ـ بيروت .
٦٤ ـ الواضح في مشكلات شعر المتنبي :
لأبي القاسم الأصفهاني .
٦٥ ـ يتيمة الدهر :
للثعالبي ـ الطبعة الأولى ١٩٧٩ م .

ثالث عشر : كتب ثقافية :

٦٦ ـ إعلام الموقعين :

للإمام ابن قيم الجوزيّة .
٦٧ ـ الأمثال من الكتاب والسنة :
للحكيم الترمذي ـ تحقيق محمد علي البجاوي .
٦٨ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة :
للسيوطي .
٦٩ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين :
للإمام ابن قيم الجوزية .
٧٠ ـ سيد قطب خلاصة حياته ومنهجه في الحركة والنقد الموجه إليه
لمحمد توفيق بركات .
٧١ ـ العقيدة والشريعة في الإسلام :
لجولد تسيهر ـ الطبعة الأولى ١٩٤٦ م .
٧٢ ـ قصة الحضارة : لول ديورانت .
٧٣ ـ كفاحي : لهتلر .
٧٤ ـ الوحي المحمدي : لمحمد رشيد رضا .

فهرس الموضوعات



